توربينو

رواية من جزئين

بقلم

محمد بهاء الدين فودة

obeikandl.com

تورينو

محمد بهاء فودة

غلاف/ خديجة يونس

مدقق لغوي أ.محمد فهمي

رقم إيداع ٢٢٧٩/ ٢٠١٧ط١

الترقيم الدولى / ٦- ٠٢١ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

01022661632 -

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithbook.com

جميـع الحقـوق محفوظـة للنـاشر وأي اقتبـاس أو إعـادة طبـع أو نـشر في أي صـورة كانـت ورقيـة أو إليكترونيـة أو في وسـيلة سـمعية أو بصريـة دون موافقـة كتابيـة مـن النـاشر، يعـرض صاحبـه للمسـاءلة القانونيـة .

obeikandl.com

obeikandl.com

الجزء الأول
الماركاتو

obeikandl.com

obeikandl.com

تورينو

obeikandl.com

استهلال

الحوش لم يكن موحشا.. ثمة ريح تهب بطيئة حاملة رائحة مألوفة عبقة بالسكون الذى أطبق معيدا المكان لطبيعته ووقاره على أثر إتمام مراسم جنازة ابنه بخيت ومواراته الثرى ومغادرة المشيعون بعد أن صافحوه واحدا بعد الآخر عائدين للقرية!..

سمع نفر من أقاربه وجيرانه الذين تخلفوا لمرافقته ينادون عليه ليلحقوا بمن سبقهم.. خطا خارج السور الخشبى الذى تتسلق عليه شجرة لبلاب ونظر فرأى شجرة الصبار على قارعة الطريق ترنو إليه وتقدم له بأكفها الخضراء كيزان العسل!.. تمتم محتجا :

- لا عسل بعد اليوم !

ورفع عينيه للسماء يستلهم من صفائها فى ظهيرة ذاك اليوم القائظ من الصيف ما يعينه على التماسك والجلد فوقع بصره على أكف أصغر وأرق لشجرة التوت الوارفة التى تظلل البيت الذى إنتقل فلذة كبده للسكنى فيه بمفرده تقدم له ثمارها الصغيرة الحمراء فغمغم باحتجاج أشد :

- حمراء فى لون الدم الذى تشربه!.. ياتوتة.. ياتوتة.. أتريدين أن أشرب معك دم وحيدى !

openkandil.com

نظـر أبعـد فـرأى النخلـة التـى تجاورهـا وتعلوهـا طـولا تقـدم لـه عراجـين البلـح الأصفـر فداخلـه شـعور بالـرضى واسـتتلى : - حمـدا للـه.. مايـزال فى الدنيـا الغـرورة بقيـة مـن جـمال شـاحب أصفـر!.. هـذه ثمارهـا صفـراء فاقـع لونهـا لأنهـا ليسـت مـن هـواة شرب الـدم ! سـمع مـن يكـرر مناداتـه مسـتعجلا.. حـاول أن يخطـو فى إثرهـم.. لم يطاوعـه قلبـه أن يذهـب ويـترك بخيـت وحيـدا.. إنقلـب راجعـا إليـه.. جثـا عـلى ركبتيـه أمـام البـاب الـذى حجبـه عنـه والـذى لم يجـف بعـد ملاطـه الأسـمنتى المحشـو بالطـوب الـذى أغلقـه.. ختـم بأناملـه العـشرة عليـه.. فكـر أن يهيلـه ويسـتخرج فلـذة كبـده . وفى اللحظـة التـى أنشـب فيهـا أطـراف أناملـه إستشـعر خـدرا يـسرى فى بدنـه وبأجفانـه تثقـل كأنها تأخـذه لإغفـاءة خفيفـة.. استسـلم لهـا وهـام معهـا بفكـره فخيـل إليـه أن وحيـده ردت إليـه الـروح بمشـيئة اللـه ليشـاطره حزنـه عليـه وليخفـف مـا جثـم عـلى صـدره مـن الوقـر وأنـه غـادر بطـن القـبر و خـرج يرفـل فى كفنـه الأبيـض والتقـط بضـع ثمـرات حمـراء مـن شـجرة التـوت التـى مـا إن حـف بهـا حتـى ابتهجـت وأرخـت غصونهـا عليـه والتقـم إحداهـا بفمـه ووقـف متكئـا عـلى الجـدار يرنـو إليـه دون أن ينبـس كـما لـو كان قـد اسـتطعم مذاقهـا فثنـى ملتقـما ثمـرة ثانيـة وشـغله هـذا فيـما يبـدو عـما يتوجـب عليـه مـن اظهـار مواسـاته لأبيـه الـذى قـال معاتبًـا:- الآن يـا بخيـت يابنـى.. إسـترحت.. كـم رقمـك كغريـق فى القريـة التـى كان إسـمها

فى الزمـن الجميـل ميـت الغرقـا ! ولم يكـن هنـاك غريـق واحـد!.. كان البحـر حنونـا كأيامـه وناسـه.. أمـا الآن وبعـد تغيـير الإسـم إلى ميـت الكرما مـا أسرع مـا توالـت أرقـام الغرقـى! حذرتـك مـن المغامـرة فالعمـر ليـس بعزقـة!.. لكنـك لم تطعنـى ..لم تطـع والـدك سـبب وجـودك!.. وهاهـى النتيجـة.. أمـا كان أولى بـك أن تسـمع كلامـى!.. كـم حذرتـك ألا تلقـى بنفسـك للتهلكـة وتركـب البحـر قاصـدا عبـوره للشـاطىء الآخـر فى زورق صغـير مـن زوارق الصيـد فى الـترع.. لكنـك فعلـت مثلهـم.. هـؤلاء الشـباب الذيـن انتحـروا يأسـا مـن ضيـق الحـال كأننـا لا نملـك الأرض الطيبـة!.. يـا خسـارة!.. شـباب زى الـورد إلتقمهـم البحـر فى جوفـه.. أعتقـد أن رقمـك مائـة ومـن ثـم يتوجـب العـودة للإسـم الأول!.. آه!.. الآن أتذكـر رحلتـى لإيطاليـا.. لا لا لم تتـم.. ولا أكـون مغاليـا إذا قلـت أنهـا لم تكـن لتتـم إلا فى خيـالى!.. قـد مضـت ثلاثـون عامـا الآن عـلى رحلتـى تلـك فى الزمـن الجميـل.. زمـن الحصـول مـن القنصليـة عـلى تأشـيرة السـفر ومـن ثـم الإقامـة للسـياحة مـن مكتـب السـفريات مـع ثمـن التذكـرة!.. آه لشـد مـا تغـيرت الأحـوال فعـلا.. الآن ازدادت إيطاليـا رخـاء ونمـاء بالعمـل الجماعى ووحـدة الـروح الأوربيـة.. وازداد وطننـا ضعفـا وتخلفـا وفقـرا بالعمـل الفـردى وتمـزق الـروح ولأسـباب أخـرى لا ذنـب لـه ولا للجماعـات التـى يطلـق أفرادهـا لحاهـم ويقـصرون جلاليبهـم البيضـاء أو يلبسـون قمصانـا وسراويـلا فيـما وقـع مـن عـدوان لا يتخيلـه عقـل عـلى الآمنـين فى معقـل التجـارة العالميـة يـوم 11سـبتمبر .

ومـن مزايـا قوتهـا الوليـدة (وقـوة باقـى المجموعـة الأوربية) أنهـا جذبت (وتجـذب كل يـوم) أعـدادا غفـيرة مـن شـبابنا للإرتحـال إليهـا بالبحـر.. وهـم إن أفلحـوا فى عبـوره ونجـوا مـن الأهـوال يقذفـون بأنفسـهم مـن القـوارب فى الميـل أو الميلـين الباقيـين فى منافسـة يائسـة لكنهـا شريفـة كطـلاب قـرش أبيـض ينفـع فى اليـوم الأسـود!.. ليسـتكملوا الرحلـة سـباحة إليهـا مـن الشـواطىء الخلفيـة ..

قـد يحالفهـم الحـظ وتلمـس أناملهـم رمـال الأمـان الصفـراء!.. وقـد يموتـون عـلى الرغـم مـن أنهـم دفعـوا مـا يزيـد عـلى تكلفـة السـفر الآمـن مائـة مـرة ..قـد كان المطلـوب أن يدفعـوا للحيتـان وذوى الفكـوك المفترسـة الـف مـرة مثـل القلـة القـادرة.. حتـى تـرضى عنهـم نيوبهـم الداميـة وتتكـون لهـم ذرائـع وأسـباب لنجاتهـم وحصولهـم عـلى السـفر الآمـن والإقامـة الشرعيـة..

ربـاه سـبحانك تلـك الأيـام تداولهـا بين النـاس.. قـد تضاعفت قيمـة العملة الإيطاليـة القديمـة التـى عرفتهـا عـشرات المـرات بعـد تحولهـا إلى " اليـورو " ولأسـباب أخـرى غـير التحـول ترجـع إلى صحـة الطريـق الـذى سـارت فيـه إيطاليـا وهـى تقـوم بتحويـل الغـاز الطبيعـى للبحـر الأدرياتيـكى إلى صناعـات حديثـة متطـورة ومتنوعـة جعلتهـا جديـرة بعضويـة تلـك الوحـدة القاريـة ولم تقـم ببيعـه خامـا رخيصـا قليـل القيمـة مثلنـا ..

أسـفا عـلى كل مـن غـرق أو سـيغرق مـن بنـى جلـدتى فى البحـر سـواء الأبيـض أو الأحمـر!..

إنهـم لم يرتكبـوا مـن الاخطـاء أكـثر مـن أنهـم سـعوا فى سـبيل اللـه فى البحـر مـن أجـل الـرزق وبذلـوا فى سـبيل ذلـك حياتهـم ناشـدين بعـد العـودة اللقمـة والشربـة التـى تـروى النفـس والبـدن مـع الأهلـين فى الوطـن.. بعـد أن تجرعـوا مـرارة الغربـة إلى آخـر قطـرة مـن قطـرات مـاء البحـر المالـح..

مـوتى هـم بـلا قبـور بأيـدى السـماسرة الغـلاظ الأكبـاد سـواء وهـم ذاهبـون أو عائـدون.. وبأيديهـم أيضـا فى أرض الغربـة إذ يميتـون أنفسـهم مـن شـدة وحماسـة العمـل.. وأحسـب أنهـم لـو عملـوا فى الوطـن بنفـس الحماسـة لصـار أغنـى الأوطـان وتلـك حقـا هـى الخطيئـة الكبرى التـى لا يماثلهـا إلا مأسـاة مـوت إنسـان مـن فـرط العـوز والفاقـة أو لسـبب آخـر لا يقـل عـن البطالـة وعـدم توفـر العمـل المناسـب أهميـة.. أو توافـره لكـن بقـدر لا يـدر مـن الأجـر حـد الكفايـة ..

أسـفى عـلى ارواحهـم الطاهـرة.. أشـعر أننـى بشـكل مـا بصفتـى أب أشـترك مـع جميـع الآبـاء فى الشـعور الوطنـى بالذنـب.. نعـم بالذنـب ! لأننـا لم نقـدم لهـم الحمايـة الكافيـة مـن أنفسـهم.. وأعلنهـا صريحـة وكلى ألم نحـن الآبـاء جميعـا يجللنـا العـار لتقصيرنـا فى حقهـم!..

يـا بنـى الحبيـب أهـدى تلـك السـطور كباقـة مـن الزهـور إليـك وإلى كل رفاقـك الذيـن غرقـوا معـك.. ولا يسـعنى إلا أن أقـدم اعتـذارى (كباقـة زهـور أخـرى) لحـرس السـواحل الإيطـالى الـذى تجشـم الكثـير مـن العنـت لإنقـاذ جثثكـم ..

أنـا أعرفهـم هـم مثـل بقيـة مواطنيهـم يشـعرون فى أعماقهـم أنهـم أصحـاب حضـارة قديمـة مثلنـا ويحبوننـا مـن هـذا المنطلـق وأنـا مـن ناحيتـى ربيتـك عـلى هـذا الأسـاس فـالأرض رحبـة وفيهـا متسـع لـكل البـشر ..

تلـك كانـت أنشـودة للحيـاة غنيتهـا معهـم فى صـدر شـبابى عـلى عكـس ما نشـاهده اليـوم فى بعـض الشـعوب.. فلـم يكـن ظهـور عـمال أجانـب فى مواقـع العمـل كالأسـواق والمطاعـم والمـزارع والمصانـع يثير حساسـية.. بل كان المواطـن الإيطـالى يوسـع للمغتربـين فى وطنـه ويقتسـم معهـم لقمـة عيشـه وهـو يلقـى النـكات فيـما حولـه لتجميـل وجـه الحيـاة الـذى كانـت تشـوهه مافيـا جماعـات الجريمـة المنظمـة " المرتبطـة بتجـارة البشر والمخـدرات والجماعـات الإرهابيـة الدوليـة التـى كانـت شـهيرة وقتهـا.. مثـل جماعـة " الألويـة الحمـراء " ممـن كانـوا يدعـون شرف الدفـاع عـن حقـوق الفقـراء.. سـامحهم اللـه جميعـا.. الحيـاة أبسـط وأقـل تعقيـدا وتسـتحق أن تعـاش بعظمـة كماعشـتها أنـا فى رحلـة العمـل التـى قمـت بهـا فى الزمـن الجميـل بتورينـو بورتـا سوسـا وبورتـا نوفـا وبورتـا لينغوتـو !

obeikandl.com

كلاهم تورينو فيكتور عما نويل الملك الأشهر موحد إيطاليا !

آه!.. لشد ما تغير الحال الآن.. ولهذ ترانى أدق ناقوس الذكرى لعلها تؤاسى من تبقى على قيد الحياة من أهل الغرقى فى الزمن الذى عاشوه بعدهم دونهم ..

يابنى الحبيب.. بالله لا تنظر إلي تلك النظرة ولا تبسم لى تلك البسمة أنا لا أستحق نظراتك وابتساماتك!.. ثمة شيء يتصدع فى قلبى.. لا أدرى ماذا حدث لى!.. أشعر برغبة خبيثة فى التقيؤ!.. روائح الذكرى تلاعب أرنبة أنفى!.. تنفذ إلى خياشيمى.. رباه كأننى فى الأدرياتكا ثانية والبحر يؤرجحها ذات اليمين وذات الشمال!..

أجل يا بنى الحبيب يخيل إلي أن الزمن قد عاد بى القهقرى لأيام شبابى قبل أن أتزوج أمك وأنجبك!.. رأسى يدور كأن دوامة فى البحر المتلاطم الأمواج تجذبه لتبتلعه فى جوفها الظليم!..

الآن أتذكر كل التفاصيل الصغيرة ..

obeikandl.com

أتذكر أولا وقبل كل شيء صديقا لى طاب له أن يقص علي رحلته إلى هذه البقعة من الأرض التى قام بها وهو طالب يدرس بالجامعة فى إجازة صيف وأنا مبهور أتشوف كلما توغل فى الحديث إلى القيام بنفس الرحلة.. ولذلك وبلا تفكير وجدتنى أعرض عليه مصاحبته يوما نحدده بأسرع وقت لنرتحل سويا إلى هناك.. حيث يمكنه أن يعيش ثانية ذكرياته وحيث أستطيع بدورى أن أرى تلك الصورة الباهرة التى رسمها لى عن شعب وأرض هذا البلد العريق فلم يملك إزاء حماستى إلا أن يعدنى..

وانقضت بضعة أيام لم أر صديقى خلالها فانتابنى القلق وفكرت فى زيارته لأذكره بما تواعدنا عليه فإذا به يقابلنى لدى خروجى أمام بوابة منزلى وكأننا كنا على ميعاد وقال لى مبادرا وهو يبتسم فى رفق :

- هناك رحلة على العبّارة الإيطالية " أدرياتكا " يوم الثلاثاء بعد القادم فما رأيك ؟

أجبته بلهفة وأنا أتلقف يده بين يدى بحماسة وحرارة :

- نسافر عليها بأمر الله ..

واتفقنا على أن يتقدم كل منا لجهة عملة بطلب أجازة خاصة لمدة عام ولم نفكر فى التكاليف الباهظة للرحلة لأن هدف العمل لنكسب مالا يفيض على حاجتنا للإقامة كان واردا إلى جانب هف البحث عن متعة السياحة وفوائد الترحال..

وما هى إلا بضعة أيام حتى كنا قد أنهينا جميع إجراءات السفر وحتى جاء الثلاثاء الموعود الرابع من أكتوبر عام 1977 وألفينا أنفسنا بين المودعين من الأهل نقطع أبهاء محطة الركاب البحرية بالإسكندرية.. وتقدمت ورفيقى على هون إلى ضابط الجوازات لننهى آخر إجراءات المغادرة للوطن الحبيب فوقعت مفاجأة لم تكن فى الحسبان لما أخبرنا الضابط ببساطة أننى سأسافر أما رفيقى فلن يسافر لأن جواز سفره به عيب قانونى يلزم به تجديده!.. فكيف أسافر دون صديقى الذى لولا معرفته السابقة بتلك البلاد ما نجمت فكرة السفر قط لنا على بال ؟..

مررت بلحظة من انعدام الوزن أحسست فيها أن كل أعضائى قد تجمدت وأننى أكثر من ذلك عاجز عن التفكير واتخاذ قرار ..

كان الوقت يمر سريعا وأوان قيام الباخرة فى الثالثة مساء يقترب

وأنـذرنى هـذا بالخـروج مـما ألم بى وفكـرت بسرعـة أننـى إن أقنعـت نفـسى بقبـول المغامـرة فاننـى سـأعجز قطعـا عـن إقناعهـم واقتربـت منـى آنذاك إحـدى السـيدات الأجنبيـات تطلـب قلـما فأعطيتهـا إيـاه وأنـا مشـتت الفكـر لا أدرى مـاذا عسـاى أفعـل ؟.. وغابـت السـيدة لحظـة ثـم عـادت لـترد لى القلـم ويبـدو أنهـا قـرأت مـن الارتبـاك والحـيرة المرتسـمين عـلى وجهـى ومـن الجـزع المرسـوم بالشـحوب عـلى محيـا أمـى عـلى وجـه الخصـوص أن ثمـة مشـكلة وكانـت تعـرف بعـض الكلـمات العربيـة فأنشـأت تسـأل بصـوت رقيـق منغـم بلكنـة أجنبيـة مضحكـة :

- أأستطيع أن أمد لكم يد العون ؟!

وكأننى تلقفت طوق نجاه هتفت لتوى :

- نعم بكل تأكيد تستطيعين !

وبصعوبـة بالغـة افهمتهـا حقيقـة الموقـف مسـتخدما بعـض الكلـمات الإنجليزيـة لأفسر لهـا بعـض مـا غمـض مـن معـانى الكلـمات العربيـة فـما كان منهـا إلا أن نظـرت إلى وشـملت الجميـع بنظـرة مماثلـة فيهـا الكثـير مـن معـانى الدهـش وعـدم

التصديـق وكأننـا قـوم بلهـاء نخلـق المصاعـب لأنفسـنا وقالـت بانجليزيـة مترفعـة خالصـة وهـى تضحـك مبتعـدة :

- يا صغيرى تستطيع أن تسافر وحدك إلى آخر الدنيا !

obeikandl.com

وصعدت سلم الباخرة واختفت عن أنظارنا وهى تواصل الضحك فى عجب ونحن نتابعها فى سكون كأن كل واحد منا قد ناله منها لطمة على صدغه ليفيق !

وفعلا أفقت ! وأخذتنى الغيرة على نفسى " حقا كيف أخاف السفر وحدى " هذا درس صغير لقنته لى تلك السيدة الأوربية ولابد أن أواجه التحدى وألحق بها لأريها أننى على النقيض مما تصورت لست صغيرها وأستطيع أن اذهب إلى ما هو أبعد من آخر الدنيا وحدى إن كان لها آخر غير النهاية المحتومة لكل حى !

ونظرت إلى أمى الهلعة وأبى المترقب وأخواتى وإخوتى المشدوهين والى رفيقى المتحير من أن أكون قد فكرت فى الرحيل دونه فعلا !

وفكرت أن استغل موقف السيدة وأختلق أكذوبة أحتال بها لأقنعهم بسفرى وحدى كأن أقول مثلا أن السيدة صاحبة " بنسيون " وأنها دعتنى للنزول عندها!.. لكنى أدركت أننى لكى أنجح لابد أن أقنع صديقى أولا لأنه لابد قد فهم ما تفوهت به السيدة.. وعلى الفور جذبته من يده وانتحيت به جانبا وأخبرته بما قر عليه عزمى سائلا إياه بحق الصداقة أن يوافقنى فانتفض وحدق في دون أن ينبس ببنت شفة.. وفى تلك اللحظة أطلقت الباخرة صفارة تعلن بها بدء الرحيل ودونما تردد توجهت إلى أبى وأعلنته بما قر عليه عزمى موضحا

أننى لا خوف على ولا أحد يحزن فإننى سأرافق السيدة المهذبة ! وسترشدنى طوال الرحلة بل وسأنزل فى " بنسيون " تملكه فى إحدى المدن الإيطالية التى سأجعلها محل اقامتى.. ووافق أبى على مضض لما وجدنى عليه من إصرار على السفر وصافحنى مودعا وهو يدعو لى بأمن الله وسلامته وتوفيقه.. وخطوت نحو أمى التى كانت تتسمع مأخوذة غير مصدقة وعانقتها وبادلتنى العناق بدموعها ودعواتها وهى على يقين من أنه قد فات الوقت وأنه لا فائدة من الاعتراض..

وعانقت إخوتى وأخواتى ثم صافحت صديقى الصامت الآسف وفى لحظة اختطفت حقيبتى ووثبت على السلم الذى كان على وشك الإنفصال عن الباخرة ..

وما هى إلا لحظة أخرى إلا وجدتنى فوق سطح " الأدرياتكا " لاهث الأنفاس مضطرب الفؤاد تتقاذفنى أمواج شتى من مشاعر البهر والجزع والفضول والترقب والأسى لفراق الأهل وأنا أتابع بناظري الأيد الحبيبة التى لاحت لى مودعة على البعد كأنها وريقات رسائل بيضاء أو حمائم.. ولا أدرى كيف هجس فى صدرى هاجس ثقيل إذ خيل إلي أن صديقى دنا من أمى وأسر لها شيئا بخصوصى أفزعها فتحركت تروح وتجىء فى مكانها على الرصيف لهفى على ولدها الذى يوشك أن يضيع منها وهى كالهرة على نار لا تدرى ماذا تفعل ؟

وانطبعت تلك الصورة المؤلمة فى ذهنى بشدة وزاد من وطأتها اعتقاد سابق لي بأن تلك الأم الحنون قد دللتنى من عمرى سنين.. مما جر علي وبال التمرد والتبطر على نعمة التمتع بالراحة والحياة السهلة ! فتوهمت بأننى لن تقوم لي قائمة أبدا إلا بالجهاد الأكبر.. جهاد النفس.. وهذا لن يتأتى إن لم أقم بتعذيب جسدى الذى ركن طويلا لتلك النعمة!..

وساعد على نمو هذا الوهم اعفائى طبيا من أداء الخدمة الوطنية والعسكرية ! لسبب لم استشعر يوما أنه مثل لى مشكلة ألا وهو أننى صاحب قدم مفلطح!.. ولكن هاهو العيب الخلقى البسيط يحرمنى من شرف المشاركة مع أبناء جيلى ويحفر حفرا عميقا فى نفسى يجعلنى على الدوام أشعر بالدونية وبالحاجة المستمرة لإثبات وجودى حتى ولو لم يكن هناك داع !

كان وهما أسرفت فيه على نفسى وسيطر علي وقتا طويلا لحد المرض.. وربما كان الوازع الحقيقى للسفر فلم أكن بكامل قواى العقلية حتى أفكر على هذا النحو فى تلك الآونة من حياتى وفى الشرق عبر البحر الأحمر خير مطهر ..نعم.. نعم خير مطهر فالمصرى متدين بالفطرة والشىء بالشىء يذكر!.. بدليل أننى (وهذا الإحساس أكده لى كل من سألته) حين أسمع ترتيل آية من القرآن الكريم

تتجلى الآية التى بعدها منيرة ذهنى وكأننى أحفظ ربيع القلوب كله عن ظهر قلب!.. وإن كان ثمة ضرورة لذكر صراع فى النفس فهو ثقافى بحت يوزع التساؤلات التى لا أهمية لها بالنسبة لى فقضية السبق الحضارى محسومة!.. أنا إبن أقدم حضارة ونظام دولة ودين فى التاريخ ومن هنا أشعر بتفوقى وامتلاء ذاتى!.. ولامعنى لدى لمن يثير القلاقل ويتساءل مثلا.. هل تأثر دورانتى أليجيرى (الشهير بدانتى) وهو يكتب الكوميديا الإلهية برسالة الغفران لأبى العلاء المعرى !؟..

كان يكفينى للإجابة أن أتوقع مقابلة شواهد عبقرية المكان الذى أنجب هذا الكاتب العبقرى وبت لا أدرى ماذا يخبىء لى الغد حين أحط رحالى على تلك الأرض.. أواحدة من مكون الثلاثية فى الكوميديا.. الجحيم والمطهر والفردوس أو كل من الثلاث على الترتيب فى رحلتى تلك الأقرب للكوميديا!.. قد كنت أرى فقط المطهر فهو أقرب للوضوء تأهبا للصلاة.. وهذا كل ما كان يستحوذ على شعورى ثم ليكن بعد ذلك ما يكون!.. أنا وحظى!.. فقد أقابل تاجر البندقية!.. أو ألاقى بعينى تلك النظرة الغامضة فى عينى موناليزا الساحرتين!.. وأيا كانت المرئيات والمقدمات والنتائج فاننى تجاسرت وقر عزمى على السفر وحدى!..

قد كانت هناك قوة جاذبة تشدنى إلى ايطاليا فما السر فى ذلك لا أعلم.. أنا لم أكن لأتورع عن أخبار أحد بهذا لو أننى كنت نفسى أعرفه! ومع ذلك يمكننى القول باننى كنت أعلم عن ايطاليا أكثر مما يعرفة جميع معارفى وأقرانى.. وقد بدأت معرفتى تلك منذ كنت طفلا أعشق مشاهدة الأفلام التى تمجد الشجاعة والبطولة وحروب الامبراطورية الرومانية.. ثم إبان دراساتى وقراءاتى لسير شخصيات تاريخية عظيمة من أول قيصر روما إلى فيكتور عما نويل تورينو.. وناهيك عن ليوناردو دافنشى صاحب إبتسامة الجيوكندا أو المونا ليزا.. وميخائيل أنجلو ذلك الرسام العظيم الذى بلغ حبه للجمال أن حرم نفسه رسم الوجوه خشية أن يكلفه طاغية تصوير وجه قبيح !

أفقت من أفكارى تلك وصوت نسائى رقيق ينبعث من مكبرات الصوت المنتشرة فى أرجاء المركب قائلا : - الآن نجتاز بوغاز الإسكندرية فمن شاء أن يكتب لآله وذوية فليفعل.. مكتب البرقيات مفتوح والبطاقات جاهزة والقبطان يسعده أن يعرب للجميع عن أطيب تمنياته وتمنيات طاقم المركب وإدارة الشركة الايطالية برحلة ممتعة على متن إكسبريس البحر أدرياتكا !

كرر الصوت هذا النداء بثلاث لغات.. وأشعت بصرى عبر لجة الماء التى تزايدت واتسعت إلى رصيف الميناء عسى أن أتزود من الأهلين

بنظـرة أخـيرة فـما رأيـت اجسـادا وشـخوصا واضحـة وانمـا رأيـت نقطـا سـوداء متحركـة تصغـر وتصغـر كلـما ابتعدنـا عـن اليابـس بنفـس القـدر الـذى كانـت صفحـة المـاء تتسـع وتتسـع ملتهمـة المركـب مـن كل جانـب.. والإسـكندرية.. ياللاسـكندرية ! خطـوط رأسـية وأفقيـة مجـردة مـن تفاصيـل المبـانى التـى بـدت عـلى البعـد كنـماذج البنايـات فى إدارة التخطيـط الهنـدسى بالمصلحـة.. وعـلى صفحـة الميـاه أمامهـا تنتـشر هنـا وهنـاك المراكـب والسـفن التـى كانـت تبـدو منـذ دقائـق كالعمائـر الشـاهقه البيضـاء فـإذا بهـا الآن صغـيرة كلعـب الأطفـال بـين يـدى طفـل عمـلاق لا يـرى أولـه مـن آخـره!.. وبـين وقـت وأخـر يمـر " لنـش " يمـرق أمـام أبصارنـا كجـواد فى سـباق لحـرس السـواحل أو لزمـرة مـن الصيادين العتـاه وتنطلـق صفارتـه محييـة فتجاوبـه الأدريانـكا بأحسـن منهـا !

ومررنـا مـن أمـام أحـواض إصـلاح وصيانـة السـفن ذات الاذرع القائمـة لأعـلى والمفتوحـة عـلى الوسـع دائمـا والتابعـة للترسـانة البحريـة فلـوح عمالهـا وفنيوهـا بأيديهـم تحيـة لنـا وهـم يصفـرون ويصفقـون لنـا بمـرح كـما لـو كنـا جنـدا فى طريقنـا لأتـون معركـة!.. فرددنـا لهـم تحيتهـم التـى بعثوهـا لنـا عـلى ظهـر الغيـب دون أن يعرفـوا أكـثر مـن أننـا أخـوة لهـم فى الوطـن والإنسـانية.. وغـير التلويـح بالأيـدى أطلـق لهـم بعـض الـركاب الظرفـاء صفـيرا منغـما بديعـا لـه أجـراس ! فطفـرت مـن عينـى دمعـة وأنـا أتذكـر قـول بـن تيميـة :

- والله لن تنال الآخوة حقها حتى تقول لأخيك يا أنا !

وأسلمنى بئر الذكرى الذى فى غمضة عين أمسى بحرا لراحة نفسية بالغة فبدأت أتنفس الصعداء وأعب من نسيم البحر النقى المنعش ما وسعنى.. ثم فكرت فى حقيبتى التى كانت ما تزال بيدى فثقلت فجأة حين تذكرتها ! ودلفت داخلا من باب زجاجى كان ورائى لأسير فى ممر يخترق قمرات الركاب على الجانبين ..

كانت تذكرتى من الدرجة السياحية ولذلك رحت أبحث وأسأل عن عنبر الكراسى حتى عثرت به فى جانب من جوانب الباخرة.. دلفت من باب زجاجى آخر فواجهتهى على الفور أربعة صفوف من الكراسى كل صفين على جانب بينهما ممر كانت مقاعد جلدية ذات لون رمادى وظهر متحرك ليمكن الراكب أن ينصب المقعد رأسيا فيجلس أو يرجعه للوراء فى وضع أفقى لينام..

تفقدت أرقام المقاعد حتى بلغت المقعد رقم 21 الذى يخصنى.. كان بجوار طاقة مستديرة تطل على البحر فأسعدنى موقعه المميز كثيرا الذى سيتيح لى الرؤية والمشاهدة وأنا جالس أو نصف نائم مستريح ووقفت قبالته أتأمل لجة البحر الهادئة المنبسطة كأنها سماء شفافة لا نهاية لها.. ويبدو أننى أطلت فى وقفتى لدرجة أن أحد الركاب الأجانب دنا منى وتحركت شفتاه موجها الكلام إلي ففهمت من

تعبيرات وجهه وإشارات يديه أنه يبدى تطوعه لمساعدتى فى التعرف على مقعدى!.. وخامرنى على الفور شعور بالإمتنان وقلت لنفسى " بشرى خير ! " وألفيتنى أجيبة بلغة إيطالية ركيكة :

- نمرو فينتى اونو !

ويبدو أن راكبا مصريا خمنت أنه من الإسكندرية سمع ركاكتى فى النطق فجاوبنى مصححا :

- تقصد فينتونو !

وتبسم كلاهما لى فى وقت واحد وأشارا إلى المقعد كأنهما يقولان لى أنت تقف أمامه!.. وذكرنى منظر المقعد المريح بالتعب فأحسست به ! ومن ثم ألقيت بالحقيبة وخلعت الحذاء وألقيت بظهر المقعد إلى الوراء قليلا ثم اضطجعت ملتمسا بعض الراحة وأنا أجيل البصر من خلال زجاج النافذة السميك فلا أرى غير أطباق المياه التى تدافعت إلى الأعماق الغريقة فى فم البحر المفتوح كفم حوت أزرق ضخم يسبح فى اللانهاية..

أخذتنى إغفاءة قصيرة من فرط التعب أو هكذا تخيلت وأنا أتأمل منظر البحر على الوجه السابق ذكره وحين أفقت وجدت العنبر ممتلئا بالركاب كل على مقعدة من الجنسين ..

كانـوا جميعـا شـبابا صغـارا مـن أجنـاس مختلفـة واسـترعى انتباهـى تفـاوت الألـوان والأحجـام ودرجـات النعومـة سـواء فى الثيـاب أو الوجـوه أو الشـعور والأطـوال.. نظـرت إلى رفيـق السـفر الجالـس إلى يمينـى فعرفت أنـه مـصرى مـن سـمرته وملامحـه.. بادرتـه بالتعـارف فعرفـت أنـه يقصـد " ميلانـو " وأن هـذه الرحلـة بالنسـبة لـه رحلـة عـودة لا ذهـاب وأنـه كان يعمـل بشركـة الغـزل والنسـيج بالمحلـة الكبرى ثـم تقـدم باسـتقالته وسـافر منـذ عامـين يحـدوه الأمـل ليجـرب حظـة فى بـلاد الإفرنـج !

وشـجعنى نجاحـة فى العثـور عـلى عمـل بمعطـم بميلانـو وأملنـى أن يكـون لى نفـس الحـظ إلا أنـه لفـت نظـرى ولا أدرى لمـاذا إلى أن بميلانـو أعـداد كبـيرة مـن المصريـين يتسـكعون فى الطرقـات نهـارا ويتسـولون طعامهـم مـن الكنيسـة ثـم يبيتـون فى عربـات السـكك الحديديـة ليـلا فهـم بـلا عمـل.. وأن شرطـة السـياحة لا تكـف عـن مطاردتهـم وترحيـل مـن يقـع منهـم فى حبائـل رجالهـا ويكـون " كاسرا الفيـزة " أى مـدة الإقامة فاسـتولى عـلى نـوع مـن الرهبـة والابتئـاس ودعـوت اللـه أن يكـون فى عـونى فيـما أنـا مقبـل عليـه.. فمـن ناحيـة النقـود قليلـة تسـعون دولارا فحسـب هـى كل مـا وافقـت السـلطات عـلى تغيـره مـن العملـة الأجنبيـة وكنـت قـد قـدرت قبـل الرحيـل أنهـا تكفـى الانفـاق عـلى حاجـاتى الأوليـة مـن مـأكل ومـأوى لمـدة أسـبوع ريثـما أعـثر عـلى عمـل.. هـذا فى أحسـن الفـروض وإذا لم يباغتنـى شىء يجهـز عـلى المبلـغ كلـه فى لحظـة ..

ومـن ناحيـة إلمامـى بلغـة للتخاطـب كنـت عـلى معرفـة بالإنجليزيـة قـراءة وكتابـة بدرجـة متوسـطة وقليـل مـن الإيطاليـين مـن يعـرف تلـك اللغـة وإن كان الكثـيرون منهـم يجيـدون الفرنسـية بحكـم الجـوار ووحـدة الديـن الكاثوليـكى وحـب وتقديـر الشـعب الإيطـالى للحيـاة الفرنسـية وثقافـة شـعبها.. ولأنهـا أول اللغـات الأجنبيـة تدريسـا واهتمامـا فى المـدارس الايطاليـة وقـد يكـون مرجـع هـذا أيضـا بدرجـة كبـيرة مـا بـين اللغتـين مـن وجـه شـبه فى النطـق والمعنـى..

وبالنسـبة لى كان جهـلى بالفرنسـية مطبـق ! كـما هـو الحـال بالايطاليـة التـى لم أهتـم بتعلمهـا إهتمامـا كافيـا قبـل السـفر اعتـمادا عـلى أن صديقـى الـذى تخلـف عـن رفقتـى سـيتكفل بارشـادى والهيمنـة عـلى أمـورى حتـى اتعلمهـا مـن ألسـن أهلهـا.. آه لكـم كنـت ضيـق الأفـق إذ كنـت أملـك الوقـت الـكافى لتعلـم بعـض الكلـمات المرشـدة مـن ذلـك الكتـاب الشـائع عـن تعلـم اللغـة الايطاليـة بغـير معلـم المسـمى " التحفة الإيطاليـة " الـذى ابتعتـه ولم أتعلـم منـه إلا القليـل الـذى يوافـق قـدر مـا ثـار فى نفـسى مـن فضـول عـن الأعـداد والأسـماء وحـروف الجـر والعطف!

ولـدى ذكـر الكتـاب مـددت يـدى إلى حقيبتـى وأخرجتـه ورحـت أتصفـح عناويـن الموضوعـات التـى يحويهـا فاكتشـف أن بـه كـما لا بـأس مـن التعبـيرات المفيـدة التـى تعيننـى عـلى التفاهـم حـين اسـال عـن السـاعة

أو الطريق أو البنك أو السكة الحديد أو فى الصيدلية والمطعم والفندق ومكتب البريد إلى آخرة مما لا غنى عنه للسائح فانبريت ألوم نفسى لوما شديدا حيث كنت أملك الوقت أما الآن فالوقت هو الذى يمتلكنى !

سالنى رفيق السفر مخرجنى من أفكارى تلك بقوله وكأن حديثنا لم ينقطع :

- أنت!.. قد عرفت عنى الكثير من المعلومات وفى المقابل لم تعرفنى بشىء عنك وعن حكايتك ؟!

- أيه حكاية ؟

- تلك التى وراء مغادرة الأهل والأحبة والصحاب إلى الغربة فى بلاد الله لخلق الله !

لا أدرى لم استشعرت الحيرة والحرج والارتباك من سؤاله رغم انه سؤال عادى لا يرقى للخصوصيات التى لم يتحرج منها وأعطانى بعض المعلومات الخاصة عن نفسه.. والآن حان دورى.. على أن اقص عليه سبب لهفتى واندفاعى للسفر..

- حسنا قد كنت ابحث لنفسى عن مهرب !

قلت له فتساءل بدهشة :

obeikandl.com

- مهرب.. مم ؟!

أجبته فى غير احتفال ودونما تفكير :

- ربما من نفسى التى دللتها إلى حد الخواء!.. أنا الآن أبحث لها عن مهرب منها!.. أتعرف يا صديقى أنا لا أخاف الأهوال الجسام التى أدرك أنها ستجابهنى فى غربتى المقبلة!..أجل لا أخاف ! وأدرك أننى سأموت من التعب!.. بل ساذوق المر والهوان لكنى سأرتاح!.. لأننى بقدر ما أتعذب أهرب.. أهرب !

وكررت تلك الكلمة بحماسة وعنف إزدادت له دهشة رفيقى وارتسمت على محياه أمارات أضحكتنى فى أعماقى فهو على قدر الدهش وعدم الفهم الواضح فى تعبيرات وجهه قد انتابة فيما يبدو الخوف من أن تكون جلسته تلك قد جاءت إلى جوار مجنون لا يفقه لما يقول وما يفعل!.. أو إلى مجرم عتيد خارج عن القانون ونهض واقفا وبارح المكان دون كلمة.. ربما إلى دورة المياة ليفرغ خوفه !

لا أدرى لم أبهجنى منظره هذا فعظمت ضحكتى الداخلية وتضخمت وملأت صدرى وخرجت من فمى ! ورحت أتسلى بمرأى الركاب فرأيت على المقعدين المجاورين إلى اليمين شابا وفتاه يتحدثان الإنجليزية بصوت خافت شجى وقد تجاورا جنبا إلى جنب ووجها لوجه وغابا

فى حديث طويل كأنه لا أحد حولهما.. وبين الحين والحين يطلق أحدهما ضحكة رخية تعبر عما يرفلان فيه من هيام ووئام.. وعلى المقعدين الأماميين كان يجلس الشاب المصرى الذى تطوع لتصحيح طريقة نطقى الإيطالية لرقم مقعدى ويبدو أن رفيقه فى السفر كان والده لأنه كان يبدى له الكثير من الحب والاحترام وفهمت من حديثهما أنهما فى سفرة عمل لشراء سيارة فيات لتشغيلها أجرة فى مدينتهما طنطا ! والتفتت خلفى فرأيت فتاة فى غاية من الجمال يرافقها فتى بهى الطلعة وتورطت فى تحية صغيرة معهما إذ وقعت عيناى عليهما وفوجئت بجمالها فأصابنى ما يشبه الحرج.. كان لابد أن أحييهما درءا لهذا الشعور على الأقل فأجابا تحيتى بإيماءة من رأسيهما لطيفة ثم لم افهم الحديث الذى تشاغلا به وخمنت أنهما عائدين لوطنهما من رحلة ممتعة فى مصر ..

على المقاعد الاخرى تناثر باقى الركاب وهم فى حال لا تختلف عمن ذكرت.. اللهم إلا أن هيام بعضهم مع بعضهن كان قويا لدرجة تسمع معها أنه أو صرخة أو قبلة!.. ومع مرور الوقت إختزن عنبر ركاب الدرجة السياحية أنفاسا حارة شعرت معها بالضيق فتخليت عن مقعدى ألتمس الهواء المتجدد بالخارج.. خطوت مهرولا إلى شرفة من شرفات الأدريانكا ثم رأيتنى بجوار سلم فارتقيته لأرى سطح المركب الفسيح الذى تبعثر فى أرجائه ركاب كنت تراهم إما فرادى

مثلى وإما هو مع هى مثلهما !

والغريب أننى وجدت بين الفرادى إناثا وفى منتصف السطح رأيت حماما للسباحة خال من الماء وبالطبع من أى ساكن ! وحمدت الله كثيرا على أنه لم يكن عامرا وإلا لما تحمل صدرى ضغط أنفاسه الحارة !

لكنى لم أهنأ بضبط حركة الأنفاس طويلا لأن بعض الفتيات كن يجلسن على راحتهن بغير اكتراث لما تعرى من مفاتنهن على الأرائك الخشبية المتفرقة بمحاذاة السور المحيط بسطح المركب.. ونظرت إلى السماء مستجيرا فرأيتها زرقاء صافية لا نهائية وفى الجانب الغربى منها بدأت مركبة الشمس الذهبية رحلة السقوط فيما وراء البحر وعلى البعد هنا وهنالك رأيت قطعا بحرية بيضاء متناثرة تتهادى على سطح الماء فى سير حثيث غير ملحوظ لشدة بعدها وباستثناء زبد المياه الذى كان كان يكلل كزهرات القرنفل البيضاء غير المتناسقة رؤوس الأمواج الهادرة فى منطقة إندفاع الباخرة فإن سطح الماء فيما وراء تلك المنطقة كان هادئا نسبيا فى هذا الوقت من السنة كما لو أن صدر البحر يتنفس فى نعومة رضيع صحيح البدن وحده ! وثمة أسراب من الطيور البحرية البيضاء الخفافة التى كانت تتناوب الظهور فى السماء من الشرق إلى الغرب سربا بعد آخر وفى توقيت

خيـل إلى معـه أنـه كان منتظـما فـما هـى إلا فى سـباق تتابـع وأن خـط النهايـة طالمـا أنهـا تختفـى فى اتجـاه الغـرب يقـع مجـازا عنـد مهبـط الشـمس !

******

كـدت أرى كذلـك حـوض السـباحة ممتلئـا بالمـاء لـدى أول نظـرة رشـقته بهـا مـن شـدة تحديقـى فى البحـر لـولا أن روعـة مـا

كنـت أراه منـذ لحظـة سـاهم فى إرخـاء عضـلاتى فاسـتلانت وانتظمـت أيضـا أمـواج الإشـارات فى حركتهـا الدائيـة داخـل أعصـابى فهـدأت خواطـرى وصرت أرى الفتيـة والفتيـات فى أوضـاع طبيعيـة وشـعرت بالجـوع فتذكـرت ذكـر البـط المحمـر الـذى دسـته أمـى داخـل لفافـة بحقيبتـى وفى التـو هرولـت نـازلا السـلم ودلفـت داخـلا العنـبر وأنا اشـمل الجميـع بنظـرة واحـدة دون أن اهتـم فى نظـرتى تلـك المـرة بتفاصيـل الأحـوال التـى هـم عليهـا إذ كان كل همـى فى تلـك الآونـة عـلى مـا يبـدو وكـما يقولـون " فى بطنـى " ومـا وصلـت مقعـدى حتـى وجـدت رفيـق السـفر جالسـا وظهـره مائـل للخلـف جلسـة الراحـة فلـم أهتـم بالنظـر إليـه وتجاوزتـه مسرعـا ومـددت يـدى إلى حقيبتـى والى حيـث اللفافـة فأخرجتهـا ولاحظـت مـن طـرف خفـى أن الرفيـق ينظـر إلي متوقعـا دعـوة ! فمـددت يـدى إليـه واعطيتـه ربـع الذكـر فقبـل شـاكرا ثـم خيـل إلى أن

الفتى والفتاة بالمقعدين الخلفيين ينظران فى اشتهاء أيضا ودون تفكير قطعت ربعين آخرين ومددت كلتا يدي إليهما وتوقعت شكرا دون أخذ ولذلك اهتزت يداى وأنا أمد " ربعى الذكر " نحوهما ولكنهما خيبا ظنى وأخذا وشكرا وتحاشيت النظر إلى أى أحد آخر خشية أن يذهب منى الربع الأخير !

بلغ بى الحرص على ذلك كل مبلغ لدرجة أننى توهمت أن جميع من بالعنبر من إناس على مختلف الأجناس كانوا ينظرون إلى وأنهم أكثر من ذلك يتوقعون دعوة ! فقلت لنفسى " يا لله العالم كله جائع ! " وشعرت لدهشتى ببعض الذنب والحرج حتى أننى فكرت أن أكف عن الأكل وأخفى ما بقى من الذكر على قلته.. كيلا يراه جائع ولا اعطيه وكأننى المسئول الأول عما بالعالم من جوع !

لم ينتشلنى من هذا العذاب إلا صوت رفيق السفر يقول بصوت متقطع من مضغ لحم الزفر :

- إنهما من جنوا..

سالته بارتباك وأنا استجمع شتات نفسى من التيه الذى غمرنى :

- من.. من ؟

تلمظ بشفتيه قائلا وهو يمضغ :

- هذان اللذان وراءنا وقد شكراك بكلمة جراتسى وكان عليك أن ترد

الشكر قائلا بريجو !

قلت له بلهجة تنطوى على بعض التهكم والدعابة :

- فى المرة القادمة سأقول..

فرمقنى باستغراب وتساءل :

- المرة القادمة ؟

فهمت مغزى سؤاله فأجبت بنفس اللهجة :

- نعم ولكن لأى سبب آخر غير ذكر البط منذ اللحظة التى أشركت فيها رفيق السفر فى طعامى صرنا أكثر ودا وألفه وأكاد أقول أنشا ذلك بداية صداقة بينى وبينه لدرجة أننى فكرت فى أن افاتحه فى مصاحبته حيث يذهب ليكفينى مئونة المشاق التى سأتجشمها حتما ثم ترددت لأننى لم أكن على ثقة من أن صداقتنا الوليدة نمت وتوطدت فى بضع ساعات!.. وقد يكون مرد ذلك أيضا شدة حرصى على جهاد النفس الأمر الذى لن يتوافر لو أننى جنبتها مسالك الغربة الوعرة وخبزها المر !

حدثتنى نفسى بهذا وعيناى إلى سطور كتاب تعلم الايطالية التى غابت أمام ناظرى من شدة أهمية ما أفكر فيه وحسما للأمر قررت أن أفاتحه حالا لعل نبتة الأمل تكبر وتنمو إلى بادرة ! فأدرت رأسى إليه ونظرت فإذا هو نائم يغط فى السبات العميق وأغاظنى هذا

obeikandl.com

لسبب أعلمه فها هى بداية الصداقة تغط فى النوم ودون أن أتروى وأحتسب وجدت يدى تمتد إليه وتهزة موقظة إياه.. المسكين.. كم صعب على منظره وهو يفيق من نومه جزعا.. أو بعد ذلك يحق لى أن أطلب إليه إسداء تلك الخدمة الجليلة ؟!

سألنى بعد أن ابتلع ريقه واسترد أنفاسه وفرك عينية بأنامله :

- مالك ؟

أجبته بصوت متلعثم وأنا أبحث عن مفر لعيني تلك المرة :

- لا ولكن باعتبارك على معرفة باللغة الايطالية فكرت فى أن اسمعك بعض الكلمات التى تعلمتها !

حدجنى بنظرة يقطر منها الغيظ والكمد متسائلا :

- أما كان بامكانك أن تؤجل هذا لوقت آخر ؟

إرتبكت لسؤاله المنطقى وأجفلت لحظة توهمت فيها أنه يفكر جديا فى التعارك معى ! لكنه هب على قدميه واقفا ومشى وهو يترنج كأنه يوشك على الغثيان وبارح المكان بنفس الطريقة التى فعلها قبلا.. ربما إلى سور الباخرة هذه المرة ليفرغ فى حوض المتوسط غيظه منى !

أسفت لما سببته له واحتوانى الخجل من نفسى فنهضت ألحق به لأعتذر إليه مبررا طيشى وسوء تصرفى لصعوبة موقفى وخوفى من المجهول الذى ينتظرنى لكنى لم أعثر له على أثر لأن حواجز السور فى الناحية الغربية التى يقع عليها الجناح الذى نزلنا به والمشرفة على البحرغصت جميعها بالمسافرين الذين أقعوا عليها وأعينهم تكاد أن تخرج من مآقيها لشدة تحديقهم ناحية الغرب.. لم أفهم سببا لتزاحمهم لأول وهلة.. صعدت إلى أعلى شرفة فى السطح!.. كانت الشمس توشك على المغيب ومرأى القرص الأحمر المستدير المعلق فوق الخط المستقيم الفاصل بين الماء والسماء وما يلقيه عليهما سويا من ألوان الشفق القرمزية بديعا يخلب أألباب المسافرين فتكاثروا يزاحم بعضهم بعضا فى تلك الناحية.. نسيت برهة ما كنت بسبيله وأنا اتأمل روعة المنظر من خلف أكتاف المشاهدين الذين وقفوا بلا حراك وبلا صوت يحملقون وكأنهم يتبتلون ويكبرون سجود الشمس لله فى جامع الغسق الأرجوانى!

إستغربت لأن وقفتى جاءت بمحض الصدفة خلف رفيق السفر.. إستغربت أكثر لأننى وكأن قرص الشمس قد ضرب يافوخى وجدت أنامل يدى تمتد إليه دونما إرادة وتربت برفق على كتفه.. آه لشد ما توهمت لاحمرار الجو ! أن تووددى ينطوى على حماقة ! والرفيق يستدير برأسه العتيد ليرى من الطارق الثقيل فوقع بصره علي..

الأشد غرابة أننى وقد توقعت منه الغضب ألفيته يرمقنى بنظرة لينة ودودة وكأننى لم افسد عليه متعته ولم أقلق راحته كرة ثانية إبتسمت له ورحت أسوق إليه عبارات الاعتذار والمديح لشخصة الصبور الرائع فأوقفنى بحركة من يده لطيفة على فمى متمتما :

- عيبك أنك لا تعرف كيف تختار الوقت المناسب !

لم يول سماع الرد اهتماما واستدار مواصلا ما كان فيه من استمتاع واندماج وكأن شيئا لم يكن ولا أدرى لم ضقت لهدوئة ووداعته وسعة صدره معى.. ألأننى كنت اتوقع غير ذلك أم لأن ظروفه أفضل منى فهو يعرف اللغة ولديه العمل والمأوى.. أما أنا فماذا لدى ؟.. حقا لا تصح المقارنة.. فهو أصغار أمام الأرقام وأنا أرقامى كلها تحت الصفر!.. فى درجة من درجات التجمد والعدم !

إنى أحسده!.. أحسد كذلك كل الركاب الهادئين!.. أحسد تلك الشمس الآفلة التى غرق نصف قرصها المشتعل فى الأفق على خط تماس السماء بالبحر.. أحسدها لأنها تعرف طريقها!.. آه ما أقسى هذا الشعور وأشد إيلامه كلما أوغل المرء فى بحار الغربة التى لا يدرى لها مبتدأ من خبر!.. وكلما اقتربت بسطة الهبوط على الناحية الأخرى من الحياة التى لا يعرفها!.. إنى لم اخدم فى الجندية وهذا داخليا سر إحساسى بالدونية!.. ماذا فيم أفكر متوجسا هكذا لأذهب

وأنـم !

وانتزعـت نفـسى مـما أنـا فيـه ونمـت إلى مـا بعـد منتصـف الليـل.. كان ممكنـا أن أنـام إلى الصبـاح غـير أن الريـح أتـت فيـما يبـدو بمـا لا تشـتهى الأدرياتـكا.. إشـتدت وعنفـت وحركـت قرائـح الأمـواج فانـبرت هـذه تدافـع جيوشـها وتقـذف بالسـفين إلى ذروة الغضـب عـلى قـرن بهيمـة الليـل تـارة.. وتتلقفهـا عـلى وهـدة التحفـز للغضـب بـين القرنـين تـارة ثانيـة.. والنتيجـة الحتميـة دوار وغثيـان وقـىء فى كل مـكان وتعبـق جـو العنـبر بالرطوبـة المشـبعة بالروائـح غـير العطـرة واختنقـت أنفـاسى ولكنى تماسـكت بمقعـدى ولم أفكـر فى مبارحتـه خوفـا مـن أن أتأرجـح وأقـع ارضـا مـع تأرجـح السـفينة حـين اقـف.. ولعـل ذلـك سـبب تقيـؤ البعـض عـلى الأرض بـين المقاعـد وفكـرت فى أن أحسـن شىء أفعلـه فى تلـك الحـال وأشـفى عـلاج هـو النـوم.. حاولـت قـدر إمـكانى لكنـه جفـانى ! ولم أظفـر بـه إلا فى أخريـات الليـل بعـد جهـد ونصـب شـديدين.. أو بمعنـى أدق بعـد أن هـدأ عصـف الريـح وغضـب البحـر عـلى الأدريانـكا وأخواتهـا !

وفى الصبـاح تسـللت أشـعة الشـمس مـن خـلال النوافـذ الزجاجيـة بالعنـبر ونـشرت ضياءهـا فى كل مـكان وفتحـت عينـى وأخـذت أجيـل البـصر فيمـن حـولى مـن الـركاب فلاحظـت أول مـا لاحظـت أن رفيـق السـفر لم يكـن بجانبـى ولعلـه كان فى مـكان مـا يقـضى حاجـة مـن الحاجـات..

شعرت بافتقاده وبأننى فى حاجة ماسة لرؤياه وعلى المقعد الأمامى كان الأب السكندرى جالسا فى انتعاش يطالع جريدة عربية وكان ابنه يقف بجواره يصفف شعره بعد أن اغتسل وعلى المقعدين الخلفيين كان الفتى والفتاه الإيطاليين غائبين فى النوم مازالا.. واسترعى انتباهى إلى اليمين خلو المقعدين من الشاب والفتاة اللذان كانا يتحدثان الإنجليزية ثم مالبث أن تناهى إلى سمعى أصوات شابة مرحة لدى الباب.. نظرت لأراهما يدلفان فى ركاب بعضهما وهما يتبادلان فى مرح منشفة واحدة وقد تبلل شعراهما والتصق بصورة توحى بأنهما خارجان لتوهما من حمام مشترك!.. أما باقى المقاعد فرأيتها إما مشغولة بصاحبها النائم أو خالية منه وقد خرج يغتسل ..

خرجت بدورى اغتسل.. إستشعرت برودة الصبح ونسيمة المنعش لدى خروجى من الباب توا وفى الطريق تقابلت ورفيق السفر فى الممر المؤدى إلى دورة المياه التى تتناثر على جانبيها العديد من الحمامات.. تبادلنا أن " صباح الخير " ببشر وأدب.. وفى محل الأدب شرعت فى الاغتسال وازالة شعر الذقن وكل ما من شأنه تخفيف الوزن سواء فى الروح أو البدن ! ثم عدت أدراجى فرأيت رفيقى فى السفر يتناول إفطارا خفيفا من مخبوز مصرى يسمى " قراقيش " فابتسم لى ودعانى لمشاركته.. تناولت من يده قرقوشة على حين دسست يدى الثانية أبحث داخل الحقيبة عن كيس من الورق ملأته

أمى بالبيض المسلوق وما عثرت به حتى ذكرت ما حدث بالليل من قيىء وروائح غير عطرة فترددت وسحبت أناملى بسرعة كان عقربا قد لدغنى وشرد ذهنى ولاحظ رفيقى أطوارى تلك فتساءل مستثارا :

- مالك مرة أخرى ؟!

أجبته بلهجة تتيه فخرا :

- تصور أن جميع الركاب تقريبا بما فيهم أنت أصابهم دوار البحر فلفظوا ما فى بطونهم إلا أنا !

قال وهو يبادلنى نظرة ماكرة تنم عن عدم رضاه عن تفردى وتميزى :

- هذا عجيب لكنه طيب !

لم أعر لهجته ونظرته اهتماما ودفعنى حب الاستطلاع للخروج إلى شرفة من شرفات الباخرة لأرى أين نحن من البحر بعد مضى حوالى سبعة عشر ساعة على مغادرة محطة الركاب البحرية بالاسكندرية فرأيت لدهشتى أننا نسير بمحازاة منطقة جبلية وساءلت نفسى " أو نكون قد عبرنا البحر ونحن الآن نمخرعباب هذا الجزء منه المسمى بحر إيجه جنوبى اليونان..

فكرت قليلا وأضفت لنفسى " حسب معلوماتى إن صح هذا فإننا

obeikandl.com

سـنصل ميناء بيريه فى وقت ما من هذا اليوم ! "

ولازمنى الفضول والتطلع الشديد سحابة هذا النهار وأنا اشغل الوقت بتأمل كل ما يقع عليه بصرى فوق (ومن فوق) سطح المركب وبين احتساء الشاى فى صالة سمر الركاب ..

كنت احيانا أرى قرى ومدائن صغيرة بيضاء مدسوسة على الجانب المطل على البحر من الجبال كعلب الكبريت التى أخفاها أصحابها بعيدا عن أيد الأطفال العابثين إلا اننى لم أر بها بشرا لأن المسافة بيننا وبينها لم تكن لتتيح رؤية الأشياء فى حجم البشر ..

وفى وقت ما تصادف أن رأيت تلك السيدة الأوروبية الضاحكة التى اقترضت منى القلم بالمحطة البحرية بالإسكندرية وما رأتنى حتى أجفلت بناظريها كما لو كانت تعاقب نفسها على ذنب اقترفته تجاهى.. إقتربت منها وحييتها فيما يشبه الزهو ! فردت على باسمة كأنها تشجعنى لمحادثتها!.. لكن طبعى الجاد غلبنى فتباعدت عنها.. ثم اننى تعرفت فى وقت آخر كنت أجالس فيه رفيق السفر على إحدى الأرائك إلى سيدة مصرية أنيقة فى نحو الاربعين كانت تتودد إلى المصريين والأجانب وتتداخل بينهم وفى أحاديثهم بجرأة وبساطة لدرجة أننى خامرنى شعور بأنها تنتمى إلى جهاز المخابرات فهى لا تكف عن الحركة وتلقى الأسئلة بغير حساب.. ولم أصدق ما قالته

عـن نفسـها قـط مـن أنهـا فى طريقهـا إلى ألمانيـا عـن طريـق " فينيسـيا " وأنهـا تسـتجلب لمـصر سـيارات مـن مصنـع " مرسـيدس ! " الألمـانى الشـهير.. وشىء آخـر استشـعرته نحوهـا (وأنـا أغالـب رغبتـى العارمـة فى البـوح لهـا بظـروفى عـلى أمـل أن تنتشـلنى !) هـو لباقتهـا الفائفـة فى التهـرب والزوغـان متظاهـرة بأنهـا لا تـكاد تصـدق مـن حديثـى أنهـا أول مـرة أسـافر فيهـا إلى أوروبـا ولا أدرى كيـف ؟!

هكـذا عـلى هـذا المنـوال إنقـضى أغلـب النهـار الـذى كانـت شمسـه وضـاءة تكشـف لشـدة ضوئهـا الأشـياء عـلى حقيقتهـا وتجلوهـا فتراهـا متفـردة متميـزة بطبيعتهـا التـى خلقـه اللـه عليهـا لا سـيما الألـوان البشريـة!.. فالأسـود أسـود وفقـط والأبيـض أبيـض والأصفـر أصفـر بـلا تداخـل بـين الألـوان!.. اللهـم إلا تداخـل أشـعة الشـمس التـى كانـت تعطـى بريـق الذهـب الـذى كان يتسـلل وينسـاب مـن خلـل الألـوان!.. إلى أن جـاء أوان رأيـت فيـه زورقـا بخاريـا يقـترب بداخلـه رجـل أشـقر يرتـدى بـزة ضابـط بحـرى ناصعـة البيـاض.. وهنـاك عـلى مبعـدة ظهـرت طلائـع مدينـة كانـت تكـبر وتتضـح لنـا تفاصيـل مبانيهـا شـيئا فشـيئا مـع اقـتراب القـارب.. وسـألت رفيـق السـفر فعرفـت أنـه قـارب الإرشـاد اليونـانى وأننـا ندنـو مـن مينـاء " بيريـه "

بعـد لحظـات كان القـارب قـاب قوسـين أو أدنى وأدلى البحـارة سـلما

مضفرا بالحبال والخشب إلى أسفل الباخرة حتى غطس فى الماء وصعد المرشد اليونانى لقيادة الأدرياتكا التى أطلقت صفارتها محيية إياه والأرض والشعب الذى ينتمى إليهما ومعلنة رسميا دخولنا البوغاز ..

كان الغرض من الرسو بميناء بيريه هو إنزال ركاب والصعود بركاب آخرين فلم يسمح لأحد بمغادرة السفين وضماما لإحكام الأمر سحبت إدارة الباخرة جوازات السفر من جميع الركاب قبل الوصول حتى لا يغافلها أحد ويهبط أو يهرب إلى بلاد جبل الأولمب.. وبذلك لم أشاهد من المدينة إلا أرصفة المرفأ ومخازنه والشارع الرئيسى الذى يمتد بمحازاته وتتعامد عليه بضع شوارع فرعية صاعدة لأعلى حيث كانت المدينة فى مرتفع عن الميناء وقد لفت نظرى فى العمائر المطلة هيكل خرسانى ضخم لبناء لم يتم.. وبسؤال رفيق السفر عنه أفادنى أنه قائم على هذا النحو منذ سنين وأغلب الظن أن وراءه خلاف أو أن بناءه جاء على خطأ معمارى.. ومرة ثانية أجدنى آحسد صديقى على أنه يعرف كثيرا ويمتلك أكثر..

غير أننى تلك المرة لم آسمح لهذا الإحساس البغيض بالتملك منى وطفقت أتسلى بمراى الركاب الجدد وهو يودعون ذويهم أو وهم يصعدون سلم الأدرياتكا.. ولفت نظرى هذا الهدوء والثبات العميقين الذى اتسم به هؤلاء الركاب الظرفاء وهم يرتقون درجات السلم

وبين أيديهم أو على ظهورهم أحمالهم وحقائبهم ينظرون لأعلى بابتسامة عريضة كلها سعادة ونور واشراق من فرط إقبالهم على الرحلة قد يكون.. أو من فرط شعور جميل يكنه الركاب اللاحقون لنا نحن الركاب السابقون!.. قلت قد يكون !

ولذلك لم تستغرق عملية استقبالهم ودخولهم السفينة وقتا على نقيض ما كنت أتوقع إذ فجأة لاحظت اننى لم أعد أرى أحدا يصعد وخيم السكون التام على السلم بعض الوقت ثم ما لبث أن برز البحارة من باطن المركب بغتة وهم ينادون على بعضهم البعض فى لغط وضجيج هيأ لى أنهم يعمدون إليه من قبيل العادة أو المرح وتوافروا على سحب مخاطيف الباخرة بعد فكها من تلك الكتل الحديدية المنتظمة الشكل والمثبتة فى تلك القواعد الخرسانية المشيدة بالرصيف على أبعاد متقاربة والتى تسمى الواحدة منها " شمعة رباط "كانوا يقومون بتلك العملية وهم وقوف فى قوارب وبعد أن تم لهم العمل على أكمل وجه سارعوا بالصعود إلى الباخرة..

وكما حدث قبلا شاهدت نفس المرشد فى كابينة القيادة محل الربان (الذى كان يقف مستريحا إلى جانبه) يقوم بتوجيه الباخرة فى سيرها من منطقة المرسى إلى منطقة البوغار بين تصفيق وصفير كل من الركاب لاسيما الجدد وهؤلاء الذين كانوا فى ودعاهم على الرصيف.. وأتاح لى الهرج والمرج الذى إندلع بغتة أن أتساءل :

- بالله ماذا حدث لهم قد كانوا ظرفاء هادئين منذ قليل.. هل السفر بالبحر عمل بطولى حتى يقابل بكل هذا التهليل ساعة الرحيل ؟!

رويدا رويدا اجتازت الباخرة بوغاز بيريه وبدأت تغز السير مبتعدة وأنا جامد فى مكانى أتأمل كل ما أراه أمامى وبالأخص هذا البناء الخرسانى العملاق الذى استرق منى نظرة تأمل طويلة لا أدرى سببها.. كأننى كنت أفنده لأكشف على البعد عيبه عملا بالقاعدة التى تقول أن الأشياء تبدو للناظر على البعد أشمل وأكمل !.. وما لبث أن صغر واندمجت تفاصيلة أمام ناظرى مع كافة تفاصيل المدينة الأخرى..

كنا قد ابتعدنا كثيرا وبدأت الأمواة تتحول إلى أمواج تصفع أوجه السفين وانتبهت على صوت صفير يزاحم سمعى من البحر والجو.. نظرت فرأيت زورق الإرشاد الذى كان يتقدمنا قد تأخر ليستعيد المرشد الذى هبط وثابا نشطا على جانبه.. وما إن استقر به المقام حتى أسرع الزورق البخارى منطلقا إلى مسافة ما ثم تباطأ ولف نصف دورة مستديرا إلى جانب المركب وتوقف ثمة.. علامة على تسلم الربان ثانية عجلة القيادة مما يتوجب معه تحيته بتلك الحركة!.. وعلى أثر ذلك وفى حدة الإنضباط والجد إنطلق الزورق

عائـدا وهـو يطلـق صفـارة تحيـة لربـان وركاب الأدرياتـكا التـى جاوبتـه التحيـة التقليديـة بصفـير أحسـن !

قـد كان هـذا منظـرا مبهجـا لم أنسـه عـلى مـر السـنين التـى انقضـت عـلى وقـت قيامـى برحلتـى.. وشـعرت لأول مـرة منـذ فارقـت الوطـن والأهـل بالإسـكندرية أننـى سـعيد بـل ومحظـوظ بتلـك الرحلـة التـى شـاء قـدرى آخـر لحظـة أن أقـوم بهـا وحـدى.. بـل اننـى توهمـت أننـى كنـت أكـون أقـل سـعادة وشـعورا بالحـظ.. لـو أن صديقـى الـذى تخلـف بالإسـكندرية كان قـد رافقنـى.. ولا أدرى لم ؟.. إن الإنسـان مجبـول عـلى حـب مـا فى المجهـول مـن مخاطـرة.. هـذه حقيقـة بـدأت أؤمـن بهـا.. أو أن هـذا جميعـه بالنسـبة لى كان مبعثـه نشـوة الشـعور بالإنتصـار.. بعـد أن وفقت فى الفـرار (وهـذا سر أبـوح بـه لآول مـرة وكنـت أرمـز إلى مـا يشـبهه مثـل الرغبـة فى التطهـر !) مـن تجربـة زيجـة فاشـلة كانـت مطلقتـى وآلهـا يتربصـون بى لإيقاعـى فى جنايـة تـؤدى إلى غيابـة السـجن إنتقامـا لأننـى تجـاسرت وطلقتهـا غيابيـا.. الأمـر الـذى أعتـذر لعـدم الإشـارة إليـه مـن قبـل.. ربمـا لأننـى كنـت أراه تافهـا لا يسـتحق الذكـر.. وربمـا لأننـى كنـت أرغـب فى نسـيانه كتجربـة قاسـية لم تخلـف فى نفسـى غـير هـذا الشـعور بالتمـرد عـلى تلـك النفـس التـى حمـدا للـه قـد أدركـت قبـل فـوات الأوان أنهـا آخـذة فى التحلـل بالزهـو والتدلـل!.. فتوجـب محقهـا !

عـلى تلـك الوتـيرة جـرت أفـكارى وأنـا أهطـع داخـلا العنـبر ملتمسـا الراحـة مـما رأيـت وفكـرت.. ومـا وصلـت مـكانى وتبلغـت ببضـع لقيـمات وبيضـة حتـى أسـلمت نفـسى لنـوم عميـق ابتلعنـى بغتـة ربمـا لشـدة يقظـة حـواسى ومتابعتهـا للمرئيـات التـى مررنـا بهـا سـحابة هـذا النهـار الطويـل.. ومـا افقـت حتـى اقتحـم عـلى بـصرى فجـأة أضـواء شـديدة تنفـذ مـن النافـذة التـى بجانبـى وفتحـت عينـى بشـدة كالمصـدوم مـن منظـر غريـب غـير متوقـع لأرى جـدارا صخريـا عاليـا عـلى بعـد لا يتجـاوز المـتر مـن النافـذة التـى بجـوارى !

وجـب قلبـى وجيـب الخـوف والفـزع معتقـدا أن الباخـرة قـد ضلـت طريقهـا فى البحـر وأنهـا قـد جنحـت ومـا شـابه ذلـك فانحـشرت داخـل مغـارة أو متاهـة لمـا جـن الليـل.. لكنـى سرعـان مـا انتبهـت إلى أنهـا تسـير بخطـوات محسـوبة ومنتظمـة ثـم إن كانـت حقـا مغـارة أو متاهـة.. فمـن الـذى أضاءهـا بتلـك المصابيـح القويـة التـى تحيـل الليـل نهـارا ؟.. أدركـت أننـا نعـبر مجـرى مـائى ضيـق أو قنـاة مـن القنـوات المرسـومة فى خـط السـير المعتـاد للباخـرة وأنـه لا موجـب للخـوف والفـزع وبهـرنى الضـوء الأرجـوانى الـذى صبـغ أديـم الصخـر الإردوازى الأصهـب بالحمـرة فانغرسـت عينـاى فى التطلـع وقتـا لم أحسـبة ولكـن ..

- أين نحن ؟

صحت بصوت مسموع دون أن أعى من شدة عجبى فاجابنى صاحبى الذى كان إلى جوارى يتأمل أطوارى بأكثر مما يتأمل المنظر قائلا :

- فى قناة كورنثا

- كورنثا ؟!

- تلك التى تفصل بحر إيجه عن البحر الأيونى..

- أيونى ؟!

- أجل إنها توفر على السفينة مشقة ومخاطر الدوران حول شبه جزيرة المورا !

- المورا ؟!

- أجل توفر أكثر من ثلاثمائة وعشرين كيلو مترا مع أن طولها لا يتعدى ستة كيلومترات وثلاثمائة متر !

- صديقى إنك تعرف كثير جدا وأنا أغبطك !

- تغبطنى ؟!

- أجل ولا تعجب أو تغضب فما أروع ما تقول وما أروع قناة كورنثا هذه !

- قد فاتك أن ترى المنظر الأروع للقناة قبل دخول المركب فيها

obeikandl.com

منذ قليل وقد عكست المصابيح ضوءها الذهبى على صفحة الماء فى المجرى الذى يبدو عن بعد كطريق مستقيم طويل ضيق تحف به من الجانبين الصخور الصلدة !

- وقد رأيته أنت ؟

- بكل تأكيد !

- ليتنى يا آخى ما نمت !

- ملحوقة !

- كيف ؟

- بعد أن نخرج منه ! ومع ذلك.. ليتك يا أخى لم تنم !

نظرت فى الساعة لأعرف كم من الوقت نمت أو كم انقضى من الوقت على رحيلنا من ميناء بيريه كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل.. إذاً مضت تسع ساعات تقريبا منذ غادرنا بيريه ولابد أن المنظر أكثر روعة واكتمالا من فوق سطح المركب ولم أضع وقتى إذ سارعت بالإنفلات من خلال باب العنبر واجتزت الممر بين قمرات ركاب الدرجة الأولى حتى وصلت صالة سمر الركاب ومن هناك أخذت السلم وثبا إلى سطح الباخرة ..

وجدتنى وجها لوجه أمام الجدارين الشاهقين المضيئين اللذين احتويا السفينة احتواء الفريسة السائغة بين فكى السبع.. شهقت :

obeikandl.com

- ياللسموات السبع!.. السفينة بين امتداد فكى جبل الأولب.. ما أقل ما أعرف وما أجمل ما لا أعرف وأبدعه !

تنهدت تنهدة الندم وأنا ارمق مقدمة السفين وهو تعلو وتهبط فى سيرها الحذر الخطر على أننى اضعت كل هذه السنين من عمرى دون أن أمتع نفسى بتلك الرحلة بغض النظر عن كافة الأسباب والمبررات العرجاء.. أجل فالجمال فى هذه الرحلة سبب كاف للإغراء بها.. وليس من ضرورة للبحث عن سبب آخر غير هذا السبب فهو فى حد ذاته سببا ونتيجة وكفى.. أنا لا أغالى فى كثير أو قليل إذ أقول ذلك بل واكون ظالما غريرا لو قلت أننى قد عبرت تعبيرا كاملا ونجحت فى أن أصل بالوصف إلى مستوى الموصوف لأن ما أراه أروع من كل وصف وفوق أى مستوى عالى من مستويات اللغة.. يا إلهى سبحانك وهبت لإنسان العقل فتجلت قدرتك وبديع صنعك.. يا ناس تصورا معى حقيقة ما أنا فيه.. إنكم إن رأيتم المنظر فى لوحة رؤى العين فحسب لانبهرتم ونالت منكم كافة مشاعر الافتتان والعجب فما بالكم.. أنا أعيش فيه وكأننى جزء منه.. هذا الخضم من الرهبة اللذيذة والفزع الممتع!.. نعم هذا هو التعبير المناسب إن شئنا الدقة.. فهل منكم من أحس يوما لذاذة فى الرهبة ومتعة فى الفزع فدعا ربه أن يوقف عقارب الزمن سائلا المزيد منهما !؟

وزجـرنى صـوت مبهـم فى أعماقـى يقـول أن كـف عـن الاسـتطراد الممـل وانتبـه.. إنـه الليـل.. الـسر سـحر الليـل لا أكـثر ! وانتبهـت فعـلا وجـال فى ذهنـى الخاطـر وتسـاءلت تـرى لـو كنـا بالنهـار هـل كنـت أنفعـل بقنـاة كورنثـا ويأخـذنى العجـب بهـا هـذا المأخـذ ؟.. عـاد الصـوت يراوغنـى كأنـه يجيـب سـؤالى " تأكـد أنـه الليـل وانتظـر بضـع دقائـق حتـى تخـرج الأدرياتـكا مـن المجـرى.. أنظـر مـاذا هنالـك ؟ " ..

ويمـضى الوقـت وتنـصرم الدقائـق وتخـرج الأدرياتـكا مـن المجـرى بسـلام وأمـن وتبتعـد.. تبتعـد.. وأنظـر الليـل الأسـود والمصابيـح التـى تشـع الذهـب الأحمـر البراقـة عـلى صفحـة المـاء وصفحـات الصخـور الملسـاء الصلبـة.. ويـرن فى أذنى صـوت رقيـق (ذكـرى هـذا الصـوت) لـذاك الرفيق وهـو يصـف المضيـق بأنـه يبـدو عـلى البعـد كطريـق مسـتقيم طويـل ضيـق تحـف بـه صخـور صلـدة مـن الجانبـين.. وذاك الصـوت فى الأعـماق يـردد أن انتبـه الـسر فى الليـل فأجـدنى أردد بـلا وعـى فى صـوت متلعثـم لنفـسى.. بـل الـسر فى التاريـخ.. لكورنثـا مـاض زاهـر طويـل وعريـق مـع الأسـطورة أو الخرافـة التـى كانـت تقـول للإغريـق أن للبحـر إلـه إسـمه نبتـون كان يقيـم هنـا !

obeikandl.com

بعد أن عبرت الأدرياتكا البحر الأيونى من خليج كورنثا عرفت من رفيق سفرى بعض معلومات مقتضبة عن أنها انتقلت لعبور مضيق "أترانتو" أمام المنحدرات الوعرة لجبال " بندس" التى تمتد بين اليونان وألبانيا والتى ظلت تسير بمحازاتها إلى أن انتهت من الساحل الالبانى الذى أسلمها إلى الدخول قبل نهايته فى البحر الأدرياتى الذى يفصل فى معظمة جبال الألب الدينارية اليوغوسلافية عن الساحل الإيطالى.. وعلى تلك الوتيرة المنتظمة فى السير مضى نهار اليوم التالى الخميس 6 اكتوبر عام 1977 عاديا رتيبا لا يستأهل شىء الحديث عنه!.. لأن صورة قناة كورنثا فى الليل لم تبرح ذهنى حتى خلت أنها ستسكن فيه للأبد!.. وأكثر من ذلك جعلتنى أقضى نهارى كله لا أشعر برغبة فى تأمل شىء آخر أو الحديث مع أحد دائم الحركة كأن ثمة شخوص غير مرئية تطاردنى!.. أو على العكس من ذلك أسير شاردا بخطو متثاقل أفكر فى اللاشىء ! أفكر فى اللاشىء كأننى مخمور أو معتوه !

وجاءت المفاجأة التى أيقظتنى فى المساء وأماطت عن نفسى وعقلى بعيدا كل ما يمت لكورنثا وقناتها وإلهها البحرى المزعوم بصلة إذ تفضل رفيق السفر بتقديمى إلى شاب يدعى كمال كامل من

الإسـكندرية وحدثـه فى شـأنى فوافـق عـلى اصحطـابى معـه إلى المدينـة التـى يقصدهـا تورينـو ..

كان كـمال كامـل هـذا شـابا متوسـط الطـول نحيـف القـوام ناعـم الشـعر أسـوده رقيـق قسـمات الوجـه المائـل للشـحوب ذا شـارب صغـير مـن شـعر هـش أصفـر خفيـف.. وعـلى حـين غـرة منـى وأنـا أتأملـه سـألنى :

- هل تعريف تورينو ؟

أجبتـه باهتـمام شـديد يـشى بمـا أشـعر بـه تجـاه شـخصه الكريـم مـن إكبـار واعـزاز :

- نعم طبعا سمعت عنها !

حدجنى بنظرة كلها ثقة بالنفس وعاود مساءلتى بإصرار :

- ماذا تعرف عنها ؟

أجبتـه بنفـس اللهجـة ودون تفكـير وبحـرارة تنـم عـن جهـلى المطبـق عـما يسـأل :

- إنها تقع فى جنوب شرق إيطاليا !

أردف بلا اكتراث وبنظرة أخرى أكثر رزانة وثقة ومباهاه :

- كلا هـذه تارانتـو!.. أمـا تورينـو التـى أقصدهـا موطـن ملـك إيطاليـا العظيـم فيكتـور عمانويـل فهـى تقـع فى شـمال غـرب إيطاليـا ومـن قسـم

obeikandl.com

منهـا يسـمى تورينـو بورتـا سوسـا يبـدأ طريـق يسـمى كورسـو فرانشـا.. أى طريـق فرنسـا !

سألته كمن يرغب أن يستزيد من معارف أستاذ كبير :

- تقصد أنها تقع على حدود فرنسا ؟

أجاب وهو يرمقنى بنظرة العارف المتمدين إلى ريفى أبله :

- بعـد حـوالى مائتـى كيلومـتر غربـا تربـض المحطـة الحدوديـة " مـودان " وهـى أول مـا يطالعـك مـن فرنسـا العظمـى !

كنـا آنـذاك نجلـس ثلاثتنـا فى قاعـدة سـمر الـركاب بالأدريانـكا حيـث كنـت مـن قبيـل التـودد والتلطـف قـد دعـوت منقـذى

الشـاب النحيـل ورفيـق سـفرى الرجـل الأصيـل الـذى تبنـى مشـكورا مشـكلتى ووجـد لهـا الحـل المناسـب فى هـذا الشـاب المتوجـه إلى مدينـة مـن أرقـى مـدن إيطاليـا وأقلهـا مـن ناحيـة عـدد المصريـين العاطلـين هنـاك أو عـلى حـد قولـه :

- عددنـا هنـاك لا يتجـاوز عـشرة مصريـين.. كلنـا نعمـل ونتبـادل مشـاعر الصداقـة والمحبـة.. وكثـيرا مـا ننـادى عـلى بعضنـا مـن أسـفل ونحـن فى الشـارع لينـزل إلينـا المتواجـد فى البنسـيون فـوق لنتجمـع ونتنـزه كمجموعـة واحـدة.. قلـت وصـوتى يهتـز مـن شـدة الفـرح والإعجـاب

بنبتة الأمل الذى بزغت بغتة كشعرة ضعيفة فى شارب منقذى ! وأنا أضغط على يده بطريقة مسرحية وإن كانت تعبر عن شعور صادق الود منى :

- تالله أن هذا لرائع!.. أنا سعيد الحظ بالتعرف إلى شاب شهم مثلك!.. غايتى ومناى أن ترشدنى إلى بنسيون أقيم فيه.. وبعد ذلك يأتى فرج الله.. أجل لا أطمع منك أكثر من ذلك!..

قلتها ببساطة وعلى سجيتى ومن أعماق شعورى ولم أكن أعلم أن هذا الشاب المنقذ سيحفظ هذا القول العابر لى فى ذاكرته.. حفظ الكلام الثمين فى اللوح المحفوظ.. لوقت يذكرنى فيه بفضله علي.. مستقطعا من لحمى ودمى الثمن الأمر الذى سيأتى بيانه تفصيلا فى حينه..

لم آفهم فى تلك اللحظة مغزى تلك الأنوار التى ومضت فجأة فى عينيه وهو يردد :

- سيكون لك ما تريك وأكثر مما تريد.. الصبر جميل !

ومنذ تلك اللحظة صرت لا أكاد أفارق كمال كامل.. وجهت إليه جل اهتمامى وحرصت على أن اقضى معه أو فى ظله كل وقتى كأننى أحرسه وأحميه مخافة أن يسطو عليه أحد آخر وينافسنى فيه كما

كنـت أتوهـم !

وحكيـت لـه كل شيء عنـى وعـن أسرتى وبلـدتى ومـن أنـا ومـاذا أكـون وعـن إخفاقـى فى زيجتـى ومطـاردة طليقتـى لى ومكائدهـا لـكى أبقـى فى حبائلهـا للأبـد !

كل ذلـك سـقته بأسـلوب يثـير كوامـن فـؤاده ويبـدو أننـى أوغلـت لدرجـة أننـى كـدت أذرف الدمـع الثخـين!.. آه ليتنـى مـا رخصـت نفـسى وعقـدت آمـالى عليـه إلى هـذا الحـد الـذى رفعـه منـى إلى مقـام الفرسـان الشـجعان!.. قـد كنـت عـلى فطـرتى ولم يكـن هـو فارسـا ؟!

بت فى تلك الليلة هانئا قرير العين ..

وفى صبـاح اليـوم التـالى يـوم الجمعـة المأمـول الـذى سـنصل فيـه " فينسـيا " إسـتيقظت مـن نومـى وكان أول شيء فكـرت فيـه أن اذهـب إلى العنـبر الثـانى الـذى يقيـم بـه منقـذى لأحيييـه تحيـة الصبـاح العطـرة !

لم يكـن العنـبر بعيـدا إذ كان يقـع عـلى الجنـاح الآخـر للسـفينة تفصـل بينـه وبـين عنـبر إقامتـى طرقـة صغـيرة ودخلـت لأرى فريقـا آخـر مـن المسـافرين ووجوهـا أخـرى جميلـة وحييـت صاحبـى بلسـان إسـتخفه الجـذل والإعـزاز فـرد تحيتـى بايمـاءة مـن رأسـه هينـة وأشـار إلى أحـد المقاعـد الجلديـة الخاليـة متمتـما :- إجلـس ريثـما أعـود ..

جلست دون صوت وخرج هو إلى دورة المياه فيما رأيت من أدوات الاغتسال بيده ورحت أشاغل نفسى بالنظر إلى هذا الرهط الآخر من الركاب فاسترعى انتباهى منه شاب طويل نحيل ناعم الشعر عزيرة ذو ملامح آسيوية لم يكن بالواقف أو الجالس على حاله.. كان فى حال عجيبة من فقد التوازن النابع من فرط إستحواذ فتاتين أوربيتين كانتا تشاغلانه وتداعبانه وتدغدغانه وهو سائح بينهما لا يدرى على أى وضع هو.. وضع الجالس أم الواقف.. وضع المعتدل أو الملتوى.. وهما تقرقران بالضحك.. ولا تدرى أيضا إن كانتا تضحكان منه أم عليه.. وأغلب الظن أنهما كانتا تضحكان عليه ولا تأبهان له ولا لعواطفة السائلة!.. بل ولا لعواطف أى من المسافرين الآخرين على مختلف أجناسهم ومشاربهم فقد راحت كل منهما تخلع ثوبها الذى كانت ترتديه وتبدله بآخر نظيف على مرأى من الجميع دونما حياء أو خجل وكأنهما فى غرفة نومهما.. ونظرت باحثا عمن ينظر فلم أر غيرى وغير هذا الشاب الأسيوى المسكين الذى كتم انفاسه اللاهثة أو كتم آهة (لا أحد يدرى) وراح مفتوح العينين فى غيبوبة سكرى لذيذة !

وتساءلت فى نفسى " أممكن أن تصل اللامبالاة إلى تلك الدرجة.. إن الحياء صفة إنسانية أصيلة فى الخلق على تباين أجناسهم.. وهى عند الأنثى السوية فيما يتعلق بجسمها أوفر مما عند الذكر.. وما

رأيتـه منـذ لحظـة ليـس لـه إلا معنـى واحـدا هـو أن هاتـان الفتانـا لا تمثـلان إلا تبـذلا وشـذوذا وليـس بعيـدا أن تكونـا معتوهتـان !

وعـاد منقـذى إلي ورأى ختـام المنظـر وألم بعلامـات الاسـتفهام الكـبرى التـى ارتسـمت عـلى محيـاى فقـال مبتسـما :

- آه لا تشغل بالك يا صاحبى فأنت لم تر شيئا يذكر ..

تساءلت :

- أو كانت هناك مناظر أخرى تذكر ؟!

أجاب :

- فى الليل.. إنى لم أنم من فحيج هذا الثعبان الآسيوى !

- وماذا صنعت ؟

سـألته محنقـا فتريـث وبادلنـى نظـرة عميقـة نفـذت إلى أعماقـى فهـدأت مـن سـورتى وأجـاب وهـو يخلـع بـدوره بنطلونـه مرتديـا بنطلونـا آخـر :

- آه لا شىء..

عندئـذ بغتـة تغـيرت الفكـرة السـيئة التـى أخذتهـا عـن الفتاتـين فهـا هـو صاحبـى يخلـع بنطلونـا ويرتـدى آخـر فـماذا يمنـع الفتاتـين مـن أن تفعـلا مثلـه!.. أأعـترض وحينئـذ يناقشـنى أحـد الحسـاب متسـائلا عـما جعلنـى أنظـر جريئـا وعـما يجعلنـى أدس انفـى لأشـم رائحـة الغـير!.. وقـد لا

obeikandl.com

أعدم من يتهمنى كذلك بالتخلف والرجعية إذ أجد فرقا بين الرجل والمرأة ! إن المرأة فى بلدى نالت الكثير من المساواة فى الحقوق بحيث أصبحت لا تختلف عن الرجل.. فما بالك بالمراة الأوربية فى سفين أوروبى يمخر عباب بحر أوروبى !

صاح صوت فى أعماقى إنطلق نافذا كالصاروخ حتى أنفجر فى رأسى :

- بل إنه الفقر.. فتش عنه!.. فلو أن هاتاتين الفتاتين الأوربيتين كانتا ثريتين لسافرتا فى الدرجة الأولى ولوجدتا فى القمرة المنفردة مكانا مناسبا لتبديل الثياب.. إنه الفقر حقا.. الفقر خالع براقع الحياء!.. الفقر جلاب الهوان والضعف والتحلل والانحلال فى ذات الوقت!.. حتى أنت لم تسلم منه فإليه ترجع أسباب إخفاقك فى زواجك ومن ثم سر تفكيرك المفاجىء فى السفر.. ها.. ها !

إهتز كيانى بعنف بهذا الصوت المبهم الذى نفذ من أعماقى وانفجر فى خلاء رأسى كالقنبلة بتلك الكلمات التى انتهت بالسخرية منى.. هببت من جلستى منتفضا ومغضبا من نفسى وجذبت يد كمال داعيا إياه للخروج وكان فعلا قد أتم ارتداء ثيابه واطمأن إلى حسن هيئته وهندامه وتاهب للخروج.. إستسلم لى وخرجنا سويا ولازال جسدى ينتفض وفكرت فى طعام الإفطار فتوجت دون استئذان صاحبى إلى حيث حقيبتى وأحضرت آخر ما تبقى بها من خبز

وبيض وجبن.. عدت مسرعا فوجدته ينتظرنى وما رأى الطعام بيدى حتى ابتسم ابتسامة المستريح الذى تحير لغرابة أطوار من يصاحبه ثم وصل إلى إجابة شافية أخيرا قائلا لدى رؤيتى وهى يتضاحك :

- بيض !

- أجل بيض وجبن.. نعمة من الرزاق ثم من يد أمى!.. إن كانت لا تعجبك تعال إلى المقصف !

المأكل والمشرب على قلتهما كانا وسيلتى المثلى لعلاج كبرياء منقذى حتى أفوز برضاه عنى.. وكثيرا ما كنت أوثره على نفسى عملا بحكمة الأجداد " إطعم الفم تستحى العين!.. وكان الماكر يفهم ما أرمى إليه ولذلك كانت تصدر منه ضحكة تثير الغيظ كلما أحضرت طعاما أو دعوته إلى شراب.. لكنى تحاشيت سؤاله عما يضحكه لئلا أضع نفسى فى مواجهته وأغضبه على نحو ما.. ولتضحك يا صاحبى ما شاء لك الضحك فان غدا بل اليوم لناظره قريب.. اليوم ننظر فينسيا ..

وفى نحو الساعة الثالثة مساء إقترب زورق بخارى وصعد منه مرشد الميناء ونظرنا على البعد فينسيا وبانت طلائعها الجميلة قصورا بيضاء وقبابا فضية والأدريانكا تدنو منها وتطلق صفارات الفرح بقرب نهاية الرحلة وسلامة الوصول المنتظر ..

خـرج الـركاب جميعـا عـن بكـرة أبيهـم إلى الشرفـات والسـطح ينظـرون ويتعجلـون لحظـة الوصـول البهيجـة..

كان البحـر ضحـلا هنـا حتـى تبـدت لأعيننـا رمـال قاعـه مـن خـلال الميـاه الرائقـة الشـفافة ومـن الهـدوء الـذى سـاد سـطح المركـب فهمنـا أنـه تـم إيقـاف ماكيناتـه وأنـه ينزلـق مـع التيـار بقـوة القصـور الـذاتى لينفـذ مـن خـلال مصـدات الأمـواج التـى أسـلمتنا إلى مـا يشـبه فـم الترعـة.. وسرنـا عـلى غـير توقـع مشـوارا طويـلا داخـل هـذه الترعـة المالحـة الممتـدة مـن البحـر تحـف بهـا مـن الجانبـين وعـلى الطـراز البندقـى تلـك القصـور الأثريـة البيضـاء ذات الشرفـات الرحبـة والتماثيـل والأعمـدة المرمريـة الشـاهقة والأبـراج القائمـة والقبـات الفضيـة التـى تعكـس ضـوء الشـمس فتـبرق ملتمعـة إلتـماع اللؤلـؤ فى تـاج عـلى راس ملكـة.. وقـد امتـدت بـين القصـور مجـار مائيـة تقـوم مقـام الشـوارع وينتقـل المـرء مـن مـكان لآخـر عـبر زاروق صغـيرة يدفعهـا بواسـطة مجـداف أو بواسـطة عـرق طويـل مـن الخشـب ينخـز بـه القـاع !

وقـد انتـشرت الكبـارى والقناطـر الصغـيرة فى كافـة الأرجـاء وعـلى أعتـاب القصـور.. مـا هـذا.. مـاذا أرى ؟.. مدينـة عائمـة تحـل فيهـا الـترع والقنـوات محـل الشـوارع والحـارات والقـوارب محـل المركبـات والجسـور محـل أماكـن عبـور المشـاة.. إنى أبحـث عـن شـارع يابـس واحـد فـلا أرى..

أهـى مدينـة مسـحورة فى إحـدى أقاصيـص جـدتى مـسرورة ! مـرة أخـرى أجـدنى فى مواجهـة مـع مشـاعر الرهبـة اللذيـذة والخـوف الممتـع ولكـن تلـك المـرة فى وضـح النهـار لا فى بهيمـة الليـل !

قـد زجـرنى هاتـف الأعـماق قبـلا بالقـول أنـه الليـل.. الـسر فى الليـل لا أكـثر.. والآن أيهـا الصـوت العزيـز مـا بالـك قـد انزويـت إلى ركـن وأنـا أرى تلـك العبقريـة فى النهـار عبقريـة الخالـق سـبحانه الـذى أبـدع خلـق الإنسـان فابـدع الإنسـان بـدوره تجميـل تلـك المدينـة السـاحرة !

تذكـرت قصيـدة " الجنـدول " وهـذا اللحـن البديـع لـذاك الموسـيقى المـصرى عبـد الوهـاب الـذى تغنـى فيـه بتلـك المدينـة الفاتنـة فأدركـت الآن أنـه لم يسـم عبـد الوهـاب صدفـة وأن اللـه الواهـب قـد وهبـه العبقريـة حتـى فى إسـمه وللـه فى خلقـه شـئون.. وألفيتنـى عـن غـير قصـد أردد بانفعـال بعـض مقاطـع مـن هـذا اللحـن وأنـا أتأمـل مـا حـولى مأخـوذا مسـحورا كـما لـو كنـت أحيـا فصـول حكايـة مـن ألـف ليلـة وليلـة.. والخـضرة.. يـا للخـضرة اليانعـة المورقـة مـن نباتـات مائيـة زاحفـة ومتسـلقة كصغـار أشـقياء ليـس لهـم مـن غوايـة أوهوايـة غـير التفـرج عـن كثـب مـن فـوق أسـيجة الشرفـات ومـن خلـل نوافـذ الواجهـات عـلى شىء مـا بالداخـل !

والطيـور.. يالأعـداد الطيـور الغفـيرة.. ويـا لمختلـف ألوانهـا.. سـيما تلـك

البيضاء كلها التى تحمحم أو تلك بجناح أخضر أو أصفر أو أزرق التى تغرد.. لا تسمع نعيبا ولا نعيقا فوق الأشجار كأنها جنة تجرى من تحتها الأنهار.. والأدرياتكا تتهادى كعروس الماء وسط تلك الزفة من الطبيعة ..

- أما والله.. أأانت هنا ؟

- أجل يا كمال أنا هنا.. وهناك !

- ضباط الجوازات صعدوا الباخرة منذ دقائق وأنت لا تشعر.. هيا يا اخ نتسلم جوازات السفر مختومة بتاريخ الوصول.. ماذا كنت تفعل لو لم أكن معك ؟!

- كنت أغرق.. أغرق.. غرق !

كنت فى نشوة كالحلم يقظا غاية البقظة خفيف الروح واالبدن معا فقلتها بصوت منغم بهذا اللحن لذاك المطرب عبد الحليم " إنى أغرق "

وبلا إرادة ألفيتنى أخطو وراء منقدى شاردا ساهما فى اللامنظور الذى خلفه داخلى هذا المنظر المصغر لجنة الخلد فى الأرض لدرجة أننى اصطدمت به من الخلف حين توقف بغته أمامى من هذه الناحية من صالة سمر الركاب وأفقت على صوته وهى ينتهرنى مستنكرا :- أفق.. ألا ترى ما أمامك ؟

obeikandi.com

ووجدتنى وإياه واقفين فى طابور طويل من الركاب على رصيف الميناء الذى ألقت السفينة عليه مراسيها لنتسلم من يد موظف يجلس إلى منضدة عليها أختام جوازات السفر مختومة بتاريخ الوصول ..

إتصل الطابور فدخلنا بعد ذلك غرفة صغيرة أقرب إلى الكشك بها مناضد منخفضة الإرتفاع كالطبالى ! لنثر محتويات الحقائب أمام أعين رجال الجمارك والأمن الوقائى!..

كان منقدى يقف أمامى وحين جاء دورى فى التفتيش وجه إلى كشاف الجمارك بعض الأسئلة باللغة الإيطالية لم أفقه لها معنى ومع ذلك تظاهرت بأننى أفهم وفتحت حقيبتى وأفرغت ما فى جعبتها من ثياب ومقتنيات شخصية كما فعل كل من سبقنى..

وسرعان ما انتهت الإجراءات التى حرص الرجال على تأديتها بطريقة ألقت فى وعينا بيسر أنها ليست أكثر من روتين إدارى إذ ماذا يحمل الوافد من ربوع مصر الذى ينشد العمل ويتخفى تحت عباءة السياحة ؟! وخرجنا فوجدنا عددا من الاوتوبيسات التابعة لشركة أدرياتكا بانتظارنا.. ركبت فى إثر منقذى وأنا أتوجس خيفة منه ولا أدرى لم ؟ ربما لأن خروجنا من الميناء كان يعنى أن الجد جد وأن ساعة الغربة دقت ! وسألته :

- إلى أين يتجه الأوتوبيس ؟

أجابنى :

- إلى محطة السكة الحديد فى ميستر !

عاودت سؤاله :

- وما هى مسيتر ؟

أجابنى :

- مدينة تجارية تقع خلف وعلى بعد خمسة كيلو مترات من فينسيا !

سألته :

- أنركب القطار من هناك إلى تورينو ؟

أجابنى :

- نعم !

وما هى إلا دقائق حتى امتلات جميع المقاعد بالأوتوبيس وصعد رجل إيطالى يرتدى بزة رسمية رزقاء أنيقة وفى الحال أغلق السائق الباب خلفه واستهلنا الرجل بالتحية قائلا :

- بونا سيرا !

سألت منقذى معنى ما قال أجابنى باقتضاب شأنه شأن جميع

obeikandl.com

العارفـين قائـلا :

- مساء الخير !

وتحـرك الأتوبيـس إلى ميسـتر وأخـذ يقطـع الشـوارع تلـو الشـوارع وانتظـرت أن يخـرج إلى خـلاء فاصـل بـين المدينتـين فلـم يحـدث حتـى اقتربنـا مـن منطقـة جليـة قطـارات السـكك الحديديـة ..

سرنـا فى الشـارع المـوازى لأشرطتهـا المتوازيـة التـى كانـت تندفـع أو بالأحـرى تنسـاب عليهـا القطـارات بـلا صـوت غـير صـوت طرقعـة العجـلات بنهايـات وصـلات القضبـان.. وخالجتنـى ذكـرى تـرام القاهـرة والإسـكندرية.. نظـرت لأعـلى فشـاهدت التركيبـات التـى أكـدت لى أن القطـارات هنـا وفى كل أنحـاء إيطاليـا.. بـل فى كل أرجـاء أوروبـا تسـير بالطاقـة الكهربيـة النظيفـة التـى لا يتخلـف عـن تحولهـا إلى طاقـة حركيـة أيـة نواتـج غازيـة أو حراريـة أو صوتيـة !

وتوقـف الأوتوبيـس فى ميـدان ونزلـت ومنقـذى سـويا وبـدأ يخطـو أمامـى كعادتـه فتخلفـت عنـه لحظـة أبحـث عـن رفيـق السـفر الأول الـذى نسـيته طويـلا وأصبـح مـن غـير اللائـق أن نفـترق هكـذا دون أن يشـعر أحدنـا بالاخـر فلـم أجـده.. قلـت لنفـسى لعلـه قـد اسـتقل أوتوبيسـا آخـر وصـل قبلنـا أو بعدنـا وقـد ألاقيـه داخـل المحطـة وتناهـى إلى سـمعى صـوت منقـذى يسـتعجلنى حتـى نلحـق بالقطـار فسـألته :

- متى يقوم ؟

أجابنى :

- الخامسة إلا ثلث والساعة الآن الرابعة والربع !

فأسرعت وراءه ودخلنا صالة رحبة ذات أعمدة رخامية عالية فسألنى:

- أمعك دولارات تريد إبدالها بليرات إيطالية ؟!

أجبته :

- أجل معى ..

لم يهتم منقذى بسماع إجابتى أو لعله قد سمعها وهو يسير فى عجلة أمامى ودائما فى عجلة ولا أدرى السبب وتوجهنا إلى نافذة محل صرافة يقع إلى يمين البهو الكبير ذى الأعمدة الشاهقة الذى دخلناه ووقف أمامى ثانية فى طابور وأخرج من جيبة بعض الأوراق المالية الخضراء وأعطاها لرجل البنك فأخذها منه وقام بعدها وإبدالها له بأوراق حمراء وأخرجت بدورى التسعون دولارا فأبدلها لى الرجل بنفس الأوراق الحمراء.. وحملقت فيها وأنا أدخلها بحرص فى مكانها من حافظتى وأتنهد كأننى أود أن أقول :

- ياالله كل هذا التعب من أجل إستبدال الألوان !

ولم يعطنى منقذى وقتا لممارسة هوايتى القديمة فى البغددة والتبطر!.. جرنى كالطفل فى ذيل أمه لنقاطع البهو الفسيح المكتظ إلى الناحية

obeikandl.com

المقابلـة وأوقفنـى خلفـه فى طابـور طويـل أمـام شـباك بعينـه يعرفـه لنقطـع تذاكـر السـفر إلى تورينـو.. قلـت لنفـسى :

- يالله حقـا.. مـاذا كنـت أصنـع بدونـك يـا منقـذى!.. إنـك تتحـرك هنـا وهنـاك وأنـت عـلى معرفـة تامـة بـكل شىء وكأنـك فى بلـدك الإسـكندرية.. وإنى حقـا لمحظـوظ بالتعـرف إليـك !

ودفعنـا فى التذكـرة الواحـدة سـتة ميـلا لـيرة ونصـف.. (والليرة بالإيطـالى تعـادل المليـم بالمـصرى يعنـى الميـلا جنيـه !) وسرنـا سـويا إلى حيـث أرصفـة المحطـة ..

******

لفـت نظـرى أن أفاريـز الأرصفـة لا تعلـو مسـتوى عجـل القطـارات بـل تنخفـض عنهـا عـلى عكـس مـا الفـت رؤيـاه فى مـصر ونظـرت إلى سـاعة بهـو دخـول المحطـة كانـت تشـير إلى الرابعـة والنصـف وباقـى حـوالى عشر دقائـق عـلى قيـام القطـار.. طفـق منقـذى يقفـز أمامـى مـن رصيـف إلى رصيـف قاصـدا رصيفـا بعينـه يعرفـه وأنـا أتابعـه بالعـدو خلفـه ..ألهـث حقـا لكنـى لا ألـوى عـلى شىء.. وهكـذا سـلمت لـه أمـرى وقلـت لنفـسى لا موجـب للخـوف منـه أو الشـك فيـه إلى أن توقـف عـلى الرصيـف الرابـع فعرفـت أنـه الرصيـف المنشـود ووقـف انتظـر معـه وصـول القطـار كان ينظـر إلى جهـة مـا فأخـذت أقلـده بالتطلـع إلى تلـك الجهـة..

مـا مضـت خمـس دقائـق حتـى وصـل القطـار وتوقـف أمامنـا مالئـا علينـا المـكان بجرمـه الطويـل الفحـل حاجبـا عنـا رؤيـة أى شىء عـداه ورايـت منقـذى يصعـد إليـه فصعـدت خلفـه ثـم دلفنـا فى ممـر تقـع عليـه دواويـن جلـوس الـركاب وشـاهدت صديقـى يدخـل ديوانـا منهـا فصحـت بـه أنبهـه :

- هذه دواوين الدرجة الأولى.. أين أنت ذاهب ؟!

فضحك منى ضحكة العارف بالأمر وأنشأ يقول :

- لا توجـد هنـا عربـات مفتوحـة لجميـع الـركاب كـما فى مـصر.. مختلـف الدرجـات دواويـن منفصلـة عـن بعضهـا وهـذا القطـار بالـذات كلـه درجـة واحـدة !

جلسـنا عـلى المقاعـد الجلديـة وأنـا فى قلـق مـن أن يكـون منقـذى عـلى درجـة مـن الغـرور وأننـا لـن نلبـث نقـف أمـام التذكرجـى الـذى لابـد أنـه سـيمر علينـا فى ايـه لحظـة ليحرجنـا أو يسـتخلص منـا قيمـة زيـادة التذكـرة مضاعفـة.. فكـرت أن اناقـش منقـذى فى هـذا الأمـر لكنـى آثـرت الاستسـلام كيـلا اثقـل عليـه بطبعـى القلـق فيبـدأ فى اظهـار علائـم النفـور منـى.. الأمـر الـذى كنـت أخافـه وجلسـت صامتـا.. ومـا هـو إلا أن شـعرت بالقطـار يتحـرك دون صـوت.. حركـة ناعمـة كـما لـو كان ينسـاب كالمـاء عـلى القبضـان انسـيابا دونمـا عجيـج مـن خشخشـة أو صلصلـة أو قضقضة

مرتاحا فى حركة ارتياحا يعبر عن كمال التركيبات الهندسية سواء تلك التى بينه وبين أجزائه أو تلك التى بينه وبين القضبان وانشغلت عن منقذى بتأمل أسرة إيطالية صغيرة مكونة من أب شاب وأم جميلة وطفل لا يكف عن الحركة ..

كانوا يجلسون قبالتنا وتشاغلت عنهم بالنظر من خلال النافذة كيلا أبدو صفيقا أو متطفلا ولسبب آخر لايقل وجاهة تمثل فى زخم المناظر التى لم يتسن لى ملاحقتها والقطار يسرع بعد أن بارح القطار نهائيا مدينة ميستر ليغز السير غربا فى اتجاه تورينو ..

كان النهار يوشك أن يولى الأدبار ولذلك لم أمنع ناظرى بالتعرف إلى الطبيعة الايطالية إلا ساعة أو بعضها بيد أننى

شاهدت فى تلك الساعة (وهى مدة وجيزة) الكثير من المناظر التى راحت تتوالى من خلال الزجاج وتتراكب وتتراكم فى سرعة القطار لتعرض الخضرة التى تكسو إيطاليا لحما على عظم الأرض ! فما رأيت إلا بساتين غناء وجداول ماء تتناثر بين الروابى الخضر والمروج العامرة بالأشجار والشجيرات والمزروعات.. وإلا طرقا معبدة ظليلة..

حتى الطرق الفرعية بين البيوت الريفية كانت معبدة ونظيفة والمنازل جميعها ذات طراز بناء موحد تحدق بها فى تناسق حدائق

صغيرة تزدان بتماثيل وأسوار من السلك أو زوايا الحديد التى تظهر ما خلفها وتفصل البيوت عن بعضها مما يعطى مجالا واسعا لتنفس الهواء الطلق ومتعة النظر.. كان الضوء هادئا آخر النهار لأن الشمس لم تكن ساطعة ومع ذلك لم يمنع الأمر الألوان من أن تبدو وتزدهى بنضرة واضحة الخطوط ذات رونق خاص لعله رونق الأشياء التى تراها لأول مرة كأنها عذراء تشف عن طوية نقية..

ثم ما لبث أن هبط الليل وأرخى سدوله فلم اعد أرى من الخارج إلا منظرا واحدا لا يتغير كلما مررنا بمدينة كبيرة أو صغيرة هو منظر الأبنية والاضواء ومداخن المصانع وبين هذا وذاك كنت أرى فواصل من الظلمة ولذلك كنت أحول نظرى بين الحين والآخر إلى الأسرة الإيطالية الصغيرة التى كانت تشاركنا الديوان.. واستهوتنى نظرة الراحة المستكنة والطمأنينة الغامرة التى كانت الزوجة ترمق بها زوجها الذى كانت تبدو عليه سيماء السماحة واللطف والابن الصغير يلهو بينهما أوعلى أرجلهما فى بحبوبة وأمان وأنا فى نشوة التطلع أحدق كمن يحاول أن يؤكد لنفسه بأن جوهر الإنسانية يقوم على المحبة والألفة والسلام ..

وعلى هذا النحو جزنا (بعد ميستر) " بادوفا " و " فيتشنتا " و " فيرونا " و " بريستشيا " و" بيرجامو " و " ميلانو " و " نوفارا " ثم

تورينو.. ثلاثمائة واثنين وسبعون كيلو مترا قطعها القطار فى أقل من خمس ساعات بسرعة ثمانين كيلو مترا فى الساعة..

مدن لم المح منها إلا ما اتيح لى رؤيته من الشوارع والأبنية فى المناطق المتاخمة لأسوار السكك الحديدية كرت خطفا كشريط سينمائى فى فيلم من الأفلام غير الناطقة ونحن كالمعتقلين فى عربات السجون ننقل أبصارنا من مكان إلى مكان من نافذة القطار طبقا لسرعته وبما يتناسب مع شدة الانور الصناعية المنبعثة من المصابيح فى الليل..

إلى أن توقف القطار فى محطة وقرأت لافتة على الرصيف مكتوب علها إسم المدينة المنشودة والساعة تدنو من العاشرة مساء فدق قلبى بسرعة وأحسست قشعريرة الرهبة تسرى فى أوصالى وهتفت كالمأخوذ :

- تورينو !

وهزت كتف منقذى ألفت نظره إلى أننا قد وصلنا فتبسم بسمة العارف مرة أخرى ودفع يدى بلطف قائلا:

- هذه تورينو " بورتا سوسا".. سوف ننزل فى البورتا نوفا !

ورددت فى شرود ذهن وأنا أحاول الفهم :

- بورتا سوسا.. بورتا نوفا !

- أجل فإن للمدن الكبرى أكثر من محطة ولتورينو ثلاث محطات !

- وما اسم المحطة الثالثة ؟!

- لينغوتو !

حططنا الرحال فى المحطة التالية " بورتا نوفا " ولدى نزولنا شعرت على غير توقع بمطر يتساقط رذاذا خفيفا ومتواصلا على شعرى ووجهى.. خرجنا من المحطة ذات الأعمدة الرخامية العالية والطرقات الواسعة والأبهاء الرحبة من باب جانبى غير مطروق ومنقذى يتقدمنى.. تبعته بدهشة لمعرفته بتلك النوعية من الأبواب!.. عبرنا بالعرض شارع المحطة المبتل بالماء واحذيتنا تقرقع فوق أسفلته الصلب اللامع.. هرلنا إلى شارع فرعى يتعامد عليه وسرنا على الطوار نحتمى من رذاذ المطر ببروزات الأبنية ثم خرجنا شمالا إلى شارع آخر وانتهى بنا السير إلى بوابة خشبية كبيرة لمبنى عتيق دلفنا من خلالها إلى ردهة كبيرة.. قطعناها فى هرولة.. واجهنا درجا صعدناه إلى الطابق الثالث ثم وقفنا أمام باب وضغط منقذى رز الجرس وفى نفس اللحظة قرأت يافطة مكتوب عليها بنسيون "مالاندرين" وبعد برهة انفتح الباب عن سيدة وسيمة فى نحو الاربعين من عمرها ما أن رأت منقذى حتى شهقت معبرة عن سعادتها برؤيته وفرحتها بعودته ثم توارت برهة فى جناح يقع بجوار الباب مباشرة وآبت لتعطيه المفتاح.. بضع خطوات مشيناها فى طرقة طويلة تصطف على

جانبيها حجرات البنسيون وأمام باب معين وقف

منقذى وعالج فتح الباب وانسل داخلا بينا وقفت لديه أنتظر دعوة للدخول فقد كنت حتى هذا الوقت غير واثق أو مصدق أننى أعثر على مأوى بتلك البساطة!.. عاود منقذى الظهور بعد أن أودع متاعه ومر من أمامى دون أن ينظر إلي فخلت أنه يتعمد إهمالى!.. كنت إلى هذا الوقت لازلت أحمل حقيبتى فأفلتتها من يدى على البلاط متعمدا أن تحدث صوتا واختفى هو بعض الوقت مع السيدة فى جناح الإدارة الذى عرفت فيما بعد أنه أيضا للإقامة مع زوجها السنيور " مالاندرينو ! " ثم رجع برفقتها إلي ونظرت اليهما فى قلق خوفا من ألا تكون بالبنسيون غرفة أو سرير خال لى.. لكنى واجهت بسمة عذبة من المرأة.. بسمة كانت فى نظرى أجمل بسمة لامرأة رأيتها فى حياتى.. هدأت وأيقنت أننى مقبول وفى التو قام بتعريفى إلى السيدة فهزت رأسها محيية بكلمات لم أفهم منها شيئا على أثرها اصطحبنى إلى غرفة فى الصدر تواجه الباب الخارجى فدخلنا وأغلق هو الباب وراءنا..

كانت غرفة مستطيلة تنتهى بشرفة فى الواجهة المقابلة للباب وتحتوى على سريرين ودولاب ملابس وخزانة مكونة من أربعة صفوف من الأدراج يعلوها رف أشبه " بتسريحة ! " لمراة بطول الخزانة خلفه..

جلست على السرير القريب من الباب ووضعت حقيبتى وأنا انظر إلى منقذى فى شكر وامتنان.. هنيهة ثم طرق الباب طارق وسمعنا صوت السيدة ينادى بالإيطالية فى صوت موسيقى وديع :

- كمال.. كمال !

خرج إليها كمال وتبادل معها حديثا طويلا بعض الشىء تخللته بعض الضحكات الرقيقة منها وبعد أن انتهيا استدار نحوى يبغى أن أعطيه جواز السفر كى تثبت السيدة البيانات الخاصة بى.. وأيضا خمسة وعشرين ميلا ليرة قيمة أجر الاقامة لمدة شهر.. أعطيته ما طلب وأنا لا أكاد أصدق أننى رسميا قد أصبحت أمتلك محل إقامة فى تورينو موطن ملك إيطاليا العظيم وموحدها فيكتور عمانويل والتى يبدأ منها غربا طريق عظيم ينتهى بفرنسا العظمى!.. ولما كنت متعبا مكدودا من رهق السفر وهواجس النفس على حد سواء قررت إيقاف التفكير فيما عساه تكون الخطوة التالية وقلت لنفسى الصباح رباح !

وأخذت أهبتى للنوم وفى التو غلبنى إلى أن تبلج الصبح ونفذت أضواء النهار من خلال تقسيمات " شيش " باب " الفرانده " وترامى إلى سمعى جلبة حركة السيارات فى الشارع فتشوفت للفرجة فى وضح النهار على البلدة التى أنشد الاقامة فيها عاما باكمله إن شاء الله ووفقنى فى الاستمرار..

تحركت من فوق الفراش أبغى النهوض وفتح باب الفرائدة والاطلال منها.. بيد أننى ترددت لما رأيت منقذى نائما لم يزل.. فكرت فى الخروج من الحجرة لقضاء حاجات الصباح المعتادة والتعرف على البنسيون ورواده لكنى فضلت التريث لحين استيقاظه فأنا لا أعرف النظام هنا.. تراجعت إلى رقدتى بالفراش فأغرانى السكون وضوء الغرفة الخافت بالتفكير فيما قمت بإرجائه البارحة.. وابتداء فكرت فى أن ما تبقى من نقود يربو على الخمسين ميلا ليرة وأننى إن عزمت على العودة مبكرا من حيث جئت لأى سبب فيلزمنى مالا يقل عن مائة وعشرين ثمنا لتذكرة العودة بحرا فضلا عما يكفى لمواجهة نفقات السفر فى البحر والبر إلى أن أصل البيت.. إذا يلزمنى العمل.. العمل بسرعة!.. وإلا استهلكت الخمسين ميلا ليرة أيضا.. أى عمل بأى أجر سيكون مرضيا.. وسأعرف بطريقتى فى العيش كيف أوفر جانبا لا بأس به من هذا الأجر كى أبتاع تذكرة مفتوحة للعودة فى أى وقت أحدده.. ومن الآن والى أن انجح فى ابتياعها سأظل قلقا.. قلت لنفسى يجب أن أظل قلقا!.. القلق على تحقيق هدف قوة ذاتية دافعة له.. قوة مضادة أيضا !

وكما يقولون انقطع حبل الأفكار المشدود على صوت طرق بالباب.. امسكت انفاسى وتصنعت النوم عسى أن يتكفل الطارق بايقاظ صاحبنا.. لم يطق صبرا.. كان فيما يبدو وثيق الصلة به فلم يهتم

بنومه (ولا بنومى وهو لم يتعرف إلي بعد).. فتح الباب وسمعت وقع خطوه يدخل ويجاوزنى إليه.. سادت برهة من صمت خمنت أن الطارق كان إبانها يعالج إيقاظه بمداعبة وجهه بأنامله دون كلمة.. بغتة ضحك بمرح ضحكة خافضة مؤدبة وترامى إلى أذنى قوله :

- حمد الله على السلامة.. لم أعرف أنك وصلت إلا منذ قليل من السنيورا!

همهم كمال قائلا وهو يتثاءب بين النوم واليقظة :- التعب.. أه.. كنت متعبا فلم أقو على مبارحة الغرفة وأسلمت نفسى للنوم ولم أسل عنك لأننى أعلم أنك تعمل بالمطعم لوقت متأخر!.. سكت لحظة ويبدو أن الطارق أشار نحوى متسائلا عمن أكون دون صوت فسمعته يستتلى قائلا : - أه.. التعب!..إنه من الزقازيق أو المنصورة.. لست أدرى!.. تعرفت إليه فى المركب وطلب منى مرافقتى فوافقت وسترى بعد أن يصحو كيف هو فلاح غريب الطباع ومسل!

كظمت غيظى من صاحبى للوصف الذى وصفنى به فلم اعلم قبلا أننى يمكن أن أكون فلاحا دون أن امتهن الفلاحة يوما وعللت ذلك إلى طبيعة متعالية كنت اعلمها فى سكان كل من القاهرة والإسكندرية فهم يعتبرون ما عداهم من المصريين آل ريف وفلاحة!

خفف هذا من كمدى قليلا وحدثت نفسى بأنه قد أن الأوان لكى اتظاهر باننى اصحو من النوم واصدرت صوت آهة تعبر عن ذلك وتثاءبت وأنا افتح واغمض عبنى فى حركات متوالية ثم اعتدلت جالسا وأنا أدير وجهى اليهما واتمتم بتحية الصباح ورد الاثنان تحيتى معا ثم وقف الطارق وتقدم نحوى فوثبت من السرير واقفا بدورى إذ بدا عليه انه قادم لمصافحتى وكان ما توقعت وصافحنى قائلا :- حمد الله على السلامة.. أنا احمد طالب بكلية هندسة الإسكندرية.. ثم قطع حديثة فجأة إذ دخل شاب آخر دخول المباغت عن عمد من قبيل الخفة والمرح وقال بدوره مقاطعا لحظة دخوله :

- أنا ممدوح شقيقه الأصغر وطالب بكلية الهندسة أيضا اهلا بك بيننا ..

كان وسيما فارع الطول عن شقيقه وصافحته معجبا بحسن استهلاله وتباسطه فى التعارف ثم قدمت نفسى إليه والى شقيقة شاكرا لهما حسن قبولهما لى وانتهزت المناسبة واخذت اكيل المديخ والشكر وكافة الفاظ ومعان الشعور بالعرفان لمنقذى وشاركنى الأخوان فى مدحه والثناء عليه وهو لاينى يطاطىء من رأسه قائلا : - الشكر لله.. الشكر لله ..

سألت احدهما عن دورة المياه فأرشدنى إليها وهناك تعرفت إلى

مصرى آخر يدعى لطفى اسمر الوجه اجعد الشعر نحيف القوام متوسط القامة.. عرفت منه أنه من الإسكندرية أيضا وأنه خريج معهدها للقطن ! وأنه انهى الخدمة العسكرية منذ شهرين وجاء إلى تورينو عقب ذلك مباشرة.. واكتمل تعارفى على مجموعة المصريين حيث عدت إلى الحجرة ولمحت شابين آخرين قدمهما احمد إلي قائلا:

- احمد ومحمد فاضل من الجيزة !

كانا اخوين هما أيضا.. تبادل الجميع الثرثرة عن الأحوال فى الوطن مع كمال وعن الأحوال فى تورينو معهم ثم دعا احمد فاضل الجميع إلى حجرته لتناول الافطار معا.. استبشرت بتلك الدعوة إذ أنها فوق توفير ثمة وجبة تنقص من الخمسين ميلا ليرة اعطتنى مؤشرا طيبا عن أن أفراد المجموعة فى رباط من تبادل أواصر المحبة والصداقة وان منقذى كان صادقا فى قوله السالف عن " أنهم كثيرا ما ينادى بعضهم الآخر للتجمع والتنزة كمجموعة واحدة".. - إذن طالما أن الأمر كذلك فى الطعام والتنزة فلابد انه كذلك فى العمل!

قلت لنفسى ذلك وأنا استبشر خيرا.. خرجنا جميعا إلى حجرة الاخوين احمد ومحمد فاضل.. سرت بينهم كأى فرد منهم فى الممر الطويل وأنا ساكت وهم فى لغط يواصلون احاديثهم على سجيتهم غير آبهين بالآخرين الذين ربما كانوا نياما فى الغرفات التى مررنا عليها ..

ولربما كنت الوحيد الذى جال فى ذهنى هذا الخاطر ولربما كان لسكوت الفضل الأول والأخير فى التفكير وقادنا المسير إلى نهاية الممر ودفع احمد فاضل باب آخر غرفة إلى اليمين ودخلنا جميعا واحدا بعد الآخر.. كانت الغرفة بها ثلاثة أسرة ودولاب مشترك ونافذة وتساءلت :

- لمن السرير الثالث ؟

فنظر إلى محمد فاضل دون أن ينبس أو يريم واجابنى احمد مستخفا:- محجوز لمصرى من الإسكندرية كان قد سافر مع كمال لكنه خانه وعاد قبله!.. اسمه بالمناسبة عادل التيت ! رددت مندهشا :

- التيت ؟!

تضاحكوا جميعا بلا استثناء لدهشتى وتوالت التعليقات الفكهة عن أن التيت هذا اسم أطلق عليه لأنه يسرف فى التظاهر بالاهمية الشخصية وأن لكل واحد هنا اسم ثان ينعت به طبقا لصفة ما فيه تسود فيه ! وهى فى الغالب صفة تنتقى بحيث تكون جالبة للسرور ومخففة لمرارة الغربة!.. وحين لفت ممدوح نظرى إلى اننى يجب إلا اتعجل حظى فإننى لا محالة حامل (سواء رضيت أو لم أرض) اسما آخر!.. اشترك الجميع فى ضحكة أخرى وبعضهم تمادى بالضحك إلى مرتبة القرقرة لأننى قابلت هذه الملاحظة الظريفة بارتباك وصمت

كأنما اخشى أن ينتقى هذا الاسم المتوقع بين يوم وأخر بحيث يكون أكثر مدعاة للسخرية والتفكة من كافة أسماء الآخرين بحكم كونى أحدث الجميع واقلهم معرفة بإيطاليا وشعبها.. ثم جاء الطعام الذى توفر على تجهيزه ووضعه على المنضدة الآخوين " فاضل " ومنعا للتنافس على المقاعد التى لم تكن تكفى الجميع عددا تم التغلب على تلك المشكلة الصغيرة بوضع الترابيزة بين سريري الأخوين وعلى جانبيها الآخرين الأقصر طولا تم رص مقعدين جلست على أحدهما ومددت يدى مع أيد الجميع نأكل فى نهم شديد بشهية مفتوحة..

كان كل منا يتسابق لالتهام أكبر قسط من الطعام حتى أنا وجدتنى اخرج عن تأدبى النابع من حداثة تعارفى وتساءلت " لماذا ؟.. أمن فرط الجوع أو من فرط الخوف من فرطه ؟!.. وهل الجميع مثلى يفكرون باختزان أكبر قدر من وجبة الإفطار لوجبة الغذاء ؟!

وتعجبت لفكرة الاختزان هذه وكيف طرأت لى على بال.. كنت اعلم أن هذا من طبيعة نوع من الحيوانات تعرف بالمجترة فتضايقت من نفسى وتساءلت لماذا أتشبه بها !؟.. وتعاظم شعورى لدرجة أننى لعنت طبعى الذى يحثنى دوما على التفكير والتساؤل والبحث عن تعليل لكل شيء.. ثم وكاننى أخاطب ذاك الطبع صحت :- ما بهذا تستقيم الحياة.. ما بهذا تستقيم الحياة !

ويبدو اننى صحت بصوت مرتفع سمعه الجميع إذ توقفوا معا عن مضع الطعام وسحبوا الأيدى من الأطباق وارتسمت فى أعينهم علامة استفهام واحدة كبيرة يستلزم الأمر إجابة شافية وعاجلة منى!.. حاولت بكل جهد وأمطرونى باسئلة كثيرة عما عساه قد حدث لي.. أأعانى مشكلة ؟.. أأنا فى ضائقة ؟.. أنا مريض ؟!.. تنازعتنى بحدة أكثر مشاعر قاسية فلم اقو على النطق ثانية وصرخ أحدهم بفزع :

- لعل لقمة انحشرت فى زوره.. ماء!.. جرعة ماء !

كان الأخوان فضل قد نسيا إمداد المائدة بالماء فسارع أحدهما آخر إلى كوب ملأه من صنبور بدورة المياة المجاورة ثم قام بسكبه فى حلقى وبعد أن أفرغه كله ! سكنت كل الأصوات وبان على أعين الجميع بإصرار أكثر أنهم ينتظرون منى تلك الإجابة العاجلة الشافية للاطمئنان علي.. غير أننى لذهولى وحيرتى كلفهم لم أنطق وكأننى قضمت لسانى.. أو كأن طيفا من الأطياف غير المرئية قد مسنى من طرف خفى فألجمنى!.. كرة أخرى لم أقو على النطق آنئذ تمزق صبرهم جميعا بالثقوب وانقدح شرر الغضب من أعينهم وكأنهم قد عزموا على الفتك بى تخلصا من فضولهم ورغبتهم الملحة فى الاطمئنان علي.. لولا أن طالب الهندسة مجدى صاح بلهجة من وقع على اكتشاف عظيم قائلا : - أنا شايفه بيضحك فى أعماقه!.. دققوا النظر لتروا ما أراه.. إنه يمزح مزاحا ثقيلا !

عندئذ افترت ثغور الجميع عن ابتسامة غير متيقنة وحدجونى بنظرة تفرس عميقة هالنى ملاقاتها بعينى حتى اننى خفت أن تنفذ (هذه النظرات) إلى اعماقى فعلا لتفتتها استخلاصا لتلك الإجابة الدفينة.. تسارعت أنفاسى.. خفق قلبى خفقا شديدا.. شعرت بوجهى يتقد من شدة اندفاع الدماء إلى صدغى وبرأسى تكاد أن تصل إلى مرحلة الغليان تفصد العرق من أكفى وجبينى.. توهمت اننى على وشك السقوط مغشيا على وبرغبة خبيثة فى القىء.. انتفضت من جلستى.. بارحت الغرفة قاصدا دورة المياة.. افرغت جميع ما فى جوفى من طعام ومن كل ما يضايق نفسى منفجرا فى نوبة من البكاء المريح

obeikandl.com

- نسمية نحن فيكتور عمانويل ويسميه الإيطاليون فيتوريو إيمانويله!.. والشارع مثل هذا كلما كان رئيسيا وهاما ويتكون من عدد من الشوارع المتوازية ذات الاتجاهين يسمى كورسو !

- نحن إذن نمشى الآن فى كورسو فيتوريو ايمانويله ؟

- أجل !

- والشارع الفرعى الذى نقيم به وتقع كنيسة قرب نهايته قبل أن يتقاطع معه اسمه شارع الأمير تومازو !؟

- أجل والله !

- والعمارة السكنية على الطراز القديم تسمى بريسو !؟

- بالضبط ..

- نحن إذن نقيم ببنسيون مالاندرينو الذى يقع فى الدور الثالث من بريسو مالاندرينو أيضا !؟

وسكت محدثى هنيهة متوقعا أن أواصل الحديث ولكنى تشاغلت عنه بتأمل فتاة إيطالية حسناء ذات شعر ذهبى يسترسل فى نعومة وأناقة حول وجهها وعلى كتفيها وفوق جبينها.. كانت تقود سيارة " فيات 28 " بيضاء فى مواجهتنا ولما لاحظت أننى أدقق النظر إليها

obeikandl.com

باعجـاب وافتتـان اهدتنـى نظـرة ذهبيـة طويلـة مـن عينيهـا مـلأت خلايـاى التـى اسـتحالت أعينـا كلهـا بريقـا لحظـة مـرور السـيارة امامنـا.. نظـرة آسرة.. تراقـص فـؤادى.. تابعـت ابتعادهـا مـن الخلـف وفى نفسى وله وأسـف لأنهـا عمـل قليـل تختفـى دون أن اتعـرف بهـا.. وعـلى حـين غـرة كأنهـا استشـعرت مـا اتـوق إليـه جنحـت بسـيارتها إلى أقـصى يمـين الشـارع وتوقفـت كمـن يبتغـى شـيئا.. توقعـت أن تنـزل مـن السـيارة قاصـدة متجـرا أو شـيئا مـن هـذا القبيـل.. لكنـى لحـيرتى ودهشـتى لاحظـت أنهـا لم تنـزل وانهـا أكـثر مـن ذلـك أدارت وجههـا تنظـر فى اتجاهنـا.. تسـاءلت :

- أو تكون وقفتها تلك دعوة للمثول امامها ؟!

اضعـت وقتـا ليـس بالقليـل فى بحـث دوافـع وقوفهـا عـلى هـذا النحـو فى الممنـوع تنظـر إلينـا.. لم يكـن لذلـك التخـاذل إلا نتيجـة واحـدة هـى أنهـا اسـتاءت وفى لحظـة كانـت سـيارتها قـد اندفعـت واختفـت فى زحـام السـيارات الأخـرى..

استحال أسفى حسرة..

هاهى فرصة ثمينة عرضت نفسها علي لانتشالى مما أنا فيه اضعتها!..

فرصـة لا يدانيهـا إلا هـذا الذهـب الألاق فى عينيهـا وفى خصـلات شـعرها المنسـدل عـلى جبينهـا الوضـاء.. تتوقـف وتسـلط عـلي أنوارهـا بينـما أنـا مهـروس كالعهـد بى فى مطحـن التسـاؤل.. أبعـد هـذا الغبـاء غبـاء ؟!

نعم يستحيل أن يوجد فى الكون مخلوق أغبى منى! قد كانت إبنه صاحب مصانع فيات لا ريب !؟.. ومن هنا يبدأ أول طريق نجاح

المصرى فى أوروبا!.. أجل أنا اعرف مئات الاقاصيص الغريبة من هذا الصنف وليس بعيدا اننى كنت اتزوجها بكل ثراء والدها ونفوذه فاحصل على حق الاقامة الدائمة !

أتزوج ايطاليا كلها !

ولم لا ليس هذا بعجيب أو جديد.. اعرف قصة بالتحديد عن شاب مصرى ذكى سافر بحكم عمله كمهندس فى بعثة تدريبية فتعرف على إبنه صاحب مصنع سيارات مرسيدس!.. تزوجها فاغنى نفسه وأهله وصار نلئب مجلس شعب يشار إليه بالبنان ويهدى الوزراء سيارات فيدقون له الكعب ويوقعون على طلبات أبناء دائرته للتعيين فى الوظائف الخالية وغير الخالية بكل امتنان ورغب !

وأنا لماذا أضعت الفرصة ؟.. لماذا.. لماذا ؟..

آه تذكرت!..

حمد الله أنها ضاعت ! فان حياة هذا المهندس المصرى مع تلك الزوجة الالمانية لم تكن سعيدة وقيل أنها انتهت نهاية مؤلمة بانتحاره!.. صحيح إن علم الإنسان الغيب لاختار الواقع ولكن لا مفر

مـن الحـزن!.. فعـلى الرغـم مـن قناعتـى تلـك توهمـت أننـى أوشـك أن تتهـددنى ثانيـة غصـة فى الحلـق!.. ولكـن تلـك المـرة فى شـارع فخيـم عمـلاق وأمـام بـصر وسـمع الآلاف مـن بنـى ايطاليـا.. وداهمنـى إحسـاس زاعـق بخطـر داهـم فاسرعـت بامتـلاك زمامـى وتلفـت إلى محـدثى الـذى كان يقـف بجـوارى سـاكنا يتأمـل أطـوارى الغريبـة بقلـق.. ودمدمـت متسـائلا وأنـا ممـزق النفـس بـين شـعورين متناقضـين مـن الحـزن والفـرح فى وقـت واحـد :

- رأيت ما رأيت ؟!

تنهد وهو يهز رأسة هزات متوالية علامة على الفهم وقال :

- تقصد ما رأيت ؟.. نعم رأيت !

- كانت فاتنة !

لفظتهـا متحـسرا فربـت احمـد طالـب هندسـة الإسـكندرية عـلى كتفـى داعيـا إيـاى لمواصلـة المسـير وهـو يهمهـم بلهجـة آسـفة :

- نعم فاتنة وقد كانت تنظر إليك حقا !

كنـا نقـف عـلى طـوار الشـارع وواصلنـا المسـير ونحـن نـسرع لنلحـق بباقـى أفـراد الجماعـة الذيـن يبـدو أنهـم لم يلحظـوا أسـباب الكارثـة التـى أوشـكت أن تتكـرر لى منـذ لحظـة.. و لعلهـم قـد لاحظوهـا ولم يهتمـوا

obeikandl.com

سـأما وامتعاضـا وغـيرة !

كانـوا قـد اقترحـوا عـلي أن اصاحبهـم فى جولـة إعتـادوا القيـام بهـا كل يـوم سـبت فى كورسـو فيتوريـو ثـم يقصـدون فى نهايتهـا " لسـتاندا".. وهـو اسـم متجـر شـهير بتورينـو.. قيـل لى أننـى أجـد بـه كل مـا يحتـاج إليـه البـشر مـن لـوازم..

ومـع أن الوقـت كان ضحـى فـإن ضـوء الشـمس الخابية وراء غلائـل الغيوم كان يتسـلل أزرقـا هادئـا شـفافا مـن ثناياهـا.. وثمـة رذاذ ضعيـف جـدا من المطـر كان يتسـاقط منعشـا عـلى المـارة وشـجيرات الفيكـس والسـيارات فى الكورسـو الكبـير الحافـل الـذى يشـق قلـب المدينـة وينتهـى مـن ناحيتـه الغربيـة بكورسـو " فرانشـا " بانجـراف قليـل نحـو الشـمال.. وبكورسـو " كازالـة " مـن ناحيتـه الشرقيـة وبانجـراف قليـل نحـو الجنـوب بعـد عبـور قنطـرة قديمـة تـم المحافظـة عـلى طابعهـا الأثـري عـلى نهـر " البـو ! "

ثـم أنـه ملتقـى معظـم الشـوارع الرئيسـية بالمدينـة وأهمهـا شـارع " نيتسـا " وشـارع " الاتحـاد السـوفيتى ! " اللـذان يكونـان فى نهايتهـما الشـمالية رأس ميـدان مسـتطيلة تكونـت مـن تقاطـع الثلاثـة معـا حيـث تربـض محطـة سـكة حديـد ورينـو المسـماة " بورتـا نوفـا " أو البـاب الجديـد.. ومـن كورسـو " فيتوريـو " أيضـا يبـدأ كورسـو " أورباسـانو " الـذى يتجـه لجنـوب المدينـة.. والشـارع التجـارى الشـهير المسـمى شـارع

روما ويبدأ أمام باب المحطة متجها لشمال المدينة حيث يتقاطع فى نهايته هناك مع كورسو " الملكة مارجريتا " ذلك الذى يقع عن كثب من امتداد ذراعه إلى الشرق ميدان تاريخى شهير.. وعن كثب منه أيضا وفى منطقة الكف من ذراعه الممتد غربا يربض المستشفى الكبير الضخم المبنى على الطراز الحديث ويحمل عين اسم الملكة مارجريتا ..

هذه كانت عجالة صغيرة لوصف المحاور الهامة التى كنا نقطن على مقربة منها وكنا نراها أو نمشى فى بعضها يوميا فى رواحنا وغدونا.. والتى يرجع فضل معرفتى بها إلى رفاق البنسيون من المصريين فى الجولة التى دعوننى إليها والمطر يتساقط رذاذا خفيفا منعشا وأنا أسير بينهم كالأطرش فى الزفة فى أول صباح لى أتنسم فيه أريج تلك المدينة العريقة.. ومن هذا التقاطع الذى يتقابل فيه شارع نيتسا مع الكورسو عبرنا الشارع إلى الناحية الأخرى وسرنا على الطوار إلى اليسار عدة أمتار ودخلنا من خلال باب زجاجى ذى ضلفتين إلى لستاندا ..

جزنا قسم أدوات التجميل والعطور ثم هبطنا واقفين على سلم متحرك إلى قسم الأطعمة والأشربة وجذب أحدنا سلة تتحرك على عجل لنستعين بها فى حمل ماتم اختياره من لوازم الأسبوع

الجديد وبالأخص ومستلزمات الطعام والشراب.. اتنهرت تلك الفرصة فانتقيت لنفسى (طبقا) من البيض وقالبا من الزبد صغير الحجم دانمركى المنشأ !

وعلبة من الجبن المطبوخ المقطع على هيئة مثلثات من صنف البقرة الضاحكة!.. وكذلك كيلو سكر ومائة غرام شاى سيلانى إلى آخر هذه الحوائج ..

وبعد أن انتهى كل منا من انتقاء حوائجة توجهنا بالعربة إلى حيس تجلس فتاة أمام منضدة تحسب ثمن الأشياء على ماكينة وتعطى لكل مشتر قائمة بالحساب ثم تعبىء المشتريات فى أكياس شفافة من النايلون تحمل اسم المتجر الذى ما لبثنا أن بارحناه وقفلنا راجعين من حيث اتينا إلى البنسيون..

فى هذا اليوم ايضا اشتركنا جميعا فى اعداد طعام الغذاء بحجرة احمد ومحمد فاضل وكان نصيبى من العمل تقطيع اللحم وتقشير البصل والثوم المحضر من الماركاتو (سوق جملة الخضر والفاكهة) والذى ما انتهى حتى وضعناه على نفس المنضدة بين السريرين وانكببنا عليه نأكل بعين الشهية المفتوحة وبذات التنافس على النيل منه اكبر قسط ولكن بغير أن اضايق نفسى بالتساؤل تلك المرة..

وعلى فكرة ناولنى احمد فاضل ثمرة " كاكا " لفت نظرى حجمها الكبير الذى لانعرفه فى مصر وقشرتها الرقيقة المندمجة مع اللحم اعصيرى السكرى ! قال أنه احضر بعضها إبان عمله بالماركاتو..

وبعد أن اتخمت المعدة بالطعام تحاسبنا ودفعت ستمائة ليرة هى قيمة ما يخص الفرد الواحد منا من تكاليفه.. وقمت بالتدرب على العمل الذى يصبو إليه كل أجنبى بالمطاعم (لما يتميز به من ضمان اللقمة وربما كذلك المنامة !) برفع وغسيل الأوان والصحون ريثما يقوم أحدهم بإعداد الشاى.. وحالما فرغت جلست معهم نحتسيه ونتسامر كعادة المصريين بعد التغذى ! فعلمت أن الأخوين فاضل يعتمدان تلك الفترة على العمل بالماركاتو ويتطلع أكبرهما (احمد) إلى العمل بمطعم المحطة المسمى " مينا " أما الأخ الأصغر محمد فيأمل العمل بورشة ميكانيكى سيارات أو سائق بجراج بحكم خبرته بهذا العمل بمصر.. أما الشقيقان طالبا كلية الهندسة بالإسكندرية فهما يعملان بغسيل الصحون.. احدهما بمطعم يسمى " دابا " يقع بأحد أطراف المدينة بعد عبور نهر البو إلى كورسو " كازاله " بعد حديقة حيوان تورينو وستاد نادى السيدة العجوز الشهير باسم اليوفينتوس الذى يبدأ من خلفه مباشرة طريق عام يفضى لمدينة تحمل اسم الاسكندرية!.. أما الثانى ففى مطعم يدعى " المافراتو " الذى قيل أن يقع بنفس الكورسو لكن فى الطرف العكسى.. وعلمت

أيضا أن لطفى المتخرج حديثا من معهد القطن لم يزل يعمل بالسوق منذ وصولة المدينة قبل شهرين.. وانه توجد بينه بين أحد أصحاب المطعام اتصالات للتفاهم حاليا على قيامة بالعمل لديه وإنها على وشك الانتهاء.. أما منقذى العظيم كمال فكان يعمل قبل سفرة بمطعم يقع فى الشارع الخلفى للشارع الذى نقيم به وسينزل الماركاتو ريثما يجد له مطعم مضمون يناسب مواهبه التى لا تختلف كثيرا عن مواهب الآخرين.. وفى المساء خرجنا جميعا بناء على مقترح من احمد فاضل لبيناه دون تفكير لدخول دار سينما متخصصة فى عرض الأفلام الجنسية تقع فى شارع الاتحاد السوفيتى !

كان بالجو برودة قارسة لفحت وجوهنا بمجرد إنسلالنا من بوابة البريسو وعرجنا يمينا ثم يمينا كرة أخرى فى نهاية المبنى إلى شارع جانبى قصير وعلى الفور طالعنا نفق فى نهايته التى تتعامد على شارع نيتسا الذى تقع به محطة السكك الحديدية بعد مسيرة بضع دقائق إلى اليمين أيضا!.. هممنا فى السير ثم هبطنا سلم النفق المبطن بالبلاط القيشانى الأبيض وثبا لندفىء أنفسنا وعدونا نسابق بعضنا لنصعد درجات السلم على الناحية الأخرى التى أسلمتنا مباشرة للشارع المنشود ومن ثم الدار .. كان الفيلم مكونا من ثلاث قصص.. القصة الأولى منه علمية بحتة وهى عبارة عن شرح مفصل على الطبيعة وخطوة بخطوة لعملية تحويل ذكر إلى أنثى ! وقد

فهمت هذا الجزء وانشغلت وارتعدت فرقا من منظر اللحم المتهرى والدم القانى الحمرة فى بعض المناظر.. أما الجزء الثانى فدار حول فتاة مريضة لم تفلح معها كل أفانين الطب وحيل الأطباء فى ابرائها من مرضها وافلح رجل بوهيمي ماكر فهم سر علتها!.. والثالث كان عن قرية محافظة تتحكم فيها تقاليد متزمتة فيما يتعلق بحرية المرأة ولما استخلصت فتاة ما رأت أنه حريتها فى المعاشرة الجنسية عاقبها أهل القرية بتسليط خنزير شبق عليها وهى عارية تماما فى ميادن عام !

ونحو العاشرة مساء بارحنا دار السينما ونحن نثرثر على سجيتنا ونتقاذف التعليقات اللاذعة عن الفيلم غير مبالين بأصواتنا العالية التى لفتت انظار العديد من المارة الإيطاليين فأمطرونا بنظرات الفضول والازدراء.. ولأن بعضنا استعمل إشارات موحية من أنامله فى التعبير عن بعض المشاهد الساخنة بالفيلم الذى لم يخل من مشاهد رقيقة !

كانت هذه أول مرة فيما مضى لى من عمر ارى فيها فيلما من هذا النوع ولذلك اعتبرت مشاهدتى تلك أول إثم اقترفه عن عمد بإيطاليا!.. وأعطيت هذا الذنب رقما كبيرا حتى أضع نوعا من القيد على نفسى يعصمها مغبة الانزلاق المتوالى على منحدر المعاصى الذى

يبـدأ عـادة بـأول زلـة.. وينـأى بالمغـترب بعيـدا عـن وطنـه وأملـه فى العـودة إليـه.. تلـك العـودة التـى ظللـت أيـام وليـال اتعجـل أوان وصـولى إليهـا لتعلقـى بأمـى !

قطعـا عكسـنا فى إيابنـا خـط سـير ذهابنـا ! وهرولنـا نرتقـى السـلم ولكـن إلى البنسـيون ..

فى تلـك الليلـة وبعـد أن تناولنـا عشـاء سريعـا جلسـنا نتسـامر وأبديـت رغبتـى فى التـزود بمعلومـات تنفعنـى فيـما أنـا بحاجـة إليـه مـن إمسـاك عمـل بعـد أن تفضـل كـمال مشـكورا فى إمسـاكى مـأوى فتبادلـوا مـع بعضهـم نظـرات وبسـمات ذات مغـزى أشـعرنى بالحـرج كـما لوكنـت قـد طلبـت الحصـول عـلى سـلعة غاليـة أو نـادرة دون ثمـن!.. ويبـدو أنهـم لشـدة ذكائهـم أو عـلى العكـس مـن ذلـك محدوديـة ذكائى فهمـوا مـا يجـول بخاطـرى فقـال احمـد فاضـل :

- لا تتعجل رزقك كلنا كنا مثلك!..

وما كاد يكمل قولته حتى أسرع كمال يقول موضحا :

- مثلـه.. كل شىء سـهل وميسـر.. مـن الطريـق للـمأوى كـما قـال.. والمطعم والمـشرب والفسـحة ومشـاهدة مـالم ولـن نشـاهده فى بلدنـا مـن الدنيـا!.. ثـم بعدذلـك يتوقـع عمـل!.. مـن قـال هـذا.. لا هـذا واللـه ليـس عـدلا.. !

لكزه لطفى قائلا وهو يحدجنى بنظرة مشفقة :

- لا تندم على فعل الخير يا كيمو الناس لبعضها !

فتراجع كيمو لسبب غير مفهوم وتغيرت لهجته وسألنى بنوع من التحد :- قل لنا أنت ماذا تعرف عن البلد الذى نزلته سهلا ولم تكن تعرف حتى اسمه ؟!

قهقه الجميع إستغرابا لسؤاله الذى تضمن الإجابة فتغيظت لنفس السبب غير المفهوم وقلت وأنا أتظاهر بحسن الجبلة والتبسط :

- تورينو.. أيوجد واحد فى أمنا مصر لا يعرف تورينو بنت خالتنا إيطاليا !

استدارت الأعين استغرابا هذه المرة لثباتى ورباطة جأشى ونوعية التعبيرات والأوصاف التى أستعملها فداخلنى السرور وانتفخت أوداجى واسترسلت :

- تورينو كما تعرفون تقع على الضفة الغربية لنهر بو..

قالوا دفعة واحدة :

- نعم !

أضفت بثقة أكثر :- وتُعد مدينة تجارية وثقافية مهمة وهي عاصمة إقليم بيمونتى..

obeikandl.com

لنفس السبب الذى أثارنى قاطعنى كمال قائلا كأنه خشى أن أبدو مثقفا واسع الإطلاع :

- تبلغ مساحتها 130.17 كم2.. وهي أيضا عاصمة مقاطعة تورينو وأول عاصمة لإيطاليا الموحدة بين عامي 1861 و1865.. تبعد عن الحدود الفرنسية والسويسرية حوالي 100 كم من الغرب والشمال على التوالى.. ومناخها رطب شبه مدارى وقريب نوعا من المناخ القارى لقربها من جبال الألب.. وهو عكس مناخ البحر المتوسط السائد فى السواحل الإيطالية.. فالشتاء يكون باردا لكنه جاف والصيف يعتبر معتدل بالتلال وحار بشكل كبير.. تسقط معظم الأمطار فى الربيع والخريف.. وقال احمد طالب الهندسة :

- تورينو هي إحدى المدن الأوروبية المزدهرة.. حيث تتمتع بأحدث التطورات التقنية والمعمارية وتتمتع بثقافة وتاريخ ثريين.. وهي معروفة بمعارضها الفنية ومطاعمها وكنائسها وقصورها ودور الأوبرا.. ساحاتها ومتنزهاتها وحدائقها ومسارحها ومكتباتها ومتاحفها وأماكنها الأخرى.. كما هي مشهورة بفن الروكوكو الخاص بها والأرت نوفو.. بنى المعماري الصقلى فليبو بوفارا الكثير من الساحات العامة والقلاع والحدائق والقصور وقد استخدم في بنائه النمط الباروكى ونمط فرساى الكلاسيكي.. ومن النماذج والشواهد على استخدام النمط

المعماري الفرنسي في تورينو قصور أمراء سافوى وقصر ريالة وسط تورينو الذى كان مقرا لملوك بيمونتى - سردينيا ولا حقا أصبح مقرا لملوك إيطاليا.. ويعود قصر مادامًا للعصر الرومانى حيث بنى أساسا ليكون بوابة للمدينة وتحول فى القرون الوسطى لقلعة ثم مع مرور الزمن لقصر تم تصنيفه مع باقى القصور تحت قائمة اليونسكو للتراث العالمى.. وبازيلكية سوبيرغا الواقعة على جبل ساسي بالقرب من مركز تورينو وتعدُ مقصدا لكثير من الحجاج المسيحيين.. وبناية لينغوتو التى كانت تحتوى على أكبر مصنع سيارات فى العالم يوما وحولت لاحقا إلى قاعة مؤتمرات ومعارض واحتفالات وفندق..

وأضاف شقيقه ممدوح : - تُسمى تورينو أحياناً "مهد الحرية الايطالية".. نظرا لأنها كانت وطن العديد من السياسيين البارزين.. والأشخاص الذين ساهموا في توحيد إيطاليا.. أمثال كافور.. تضم تورينو أفضل الجامعات والكليات والأكاديميات وقاعات الألعاب الرياضية في إيطاليا.. ومن أهم هذه الجامعات جامعة البوليتكنيك التي تُعد أيضاً واحدة من أرقى الجامعات في جميع أنحاء العالم في مجالات الهندسة المعمارية..

وقال لطفى :

- كما تضم متاحف مهمة كالمتحف المصرى الذى يحتوى العديد من الآثار والتحف المصرية القديمة ..

- ومول أنطونيليانا الذي يشكل معلماً بارزاً في المدينة ويضم المتحف الوطني للسنيما ..

- ومن فوق برجه البالغ إرتفاعه 167.5م يمكن رؤية منظر جميل للمدينة.. أضاف طالبا الهندسة واحدا بعد الآخر فقال احمد فاض:- عموما تتمتع تورينو بعدة مشاهد ومعالم سياحية جعلتها واحدة من مائتي وخمسين وجهة زيارة فى العالم وكانت تُعدالمركز السياسي الرئيسي الأوروبي فى القرن التاسع عشر .. وقد سكنت بها سلالة سفويا وهي الأسرة المالكة في إيطاليا آنذاك .. - لكنها فقدت أهميتها السياسية بسبب الحرب العالمية الثانية

قال لطفى .. -

وأصبحت مفترق طرق رئيسي للتجارة والصناعة في أوروبا ..قال ممدوح فأردف شقيقة أحمد : - وتُعد حالياً واحدة من المراكز الصناعية الرئيسية في إيطاليا كونها جزءاً من "المثلث الصناعي" جنباً إلى جنب مع ميلانو وجنوه .. وبها المقر الرئيسى لعدد من شركات

صنـاعة السـيارات الإيـطالية .. مثـل فيـــات ولانشـيا وألفـا روميـو ..

قـال كـمال : - وتشـتهر كاتدرائية سـان جوفانى باحتضانها لغطـاء تـورينو (الـذى يعتقـد الكاثوليـك أنـه كان للسـيد المسـيح عليـه السـلام) ولذلـك نـرى الحجـاج يزورونها سـنويا ..

قـال احمـد فاضـل :-وأيضـا حاضنـة لفريقـي كـرة القـدم يوفنتـوس وتورينـو .. ولكونهـا قريبـة مـن جبـال الألـب تعـد مركـزا للرياضـات الشـتوية كالتزلـج الشـهيرة بـه منزلقـات بيرجامـو الجليـدي..

أما شقيـقه محمـد فلم يشارك .. ربما آثر الصـمت حتى لا يثـير لواعجهم مثـلى وأنـا حـديـث عـهد بالمدينـة ! لقطـع لم يكـن ذلك هو السـبب ! .. ولكن الأرجـح أن مسـتوى تعلـيمه لم يتـح لـه الـدافـع الكـافى لامتـــلاك التظاهـر بالمعرفـة مثـل جميـع أنصـاف المثقفـين ! .. ولمـا جـاء أوان النـوم آويـت لفراشـى فى تلـك الليـلة سـعيدا هانئـا ومـر اليـوم التـالى الأحـد عـلى نفـس الوتـيرة مـن التـآلف والراحـة والتشـوف للمعرفة والإلمـام ببعـض المعلومـات الأوليـة عـن الأماكـن الهامـة .. قـد كانـوا كرمـاء معـى إلى حـد مدهـش وتعاهدنـا عـلى زيارتهـا ذات يـوم عندمـا تسـنح فرصـة مؤاتيـة للفرجـة عليهـا فى مواضعهـا .. وبعـد ذلـك لم يسـتجد عـلي سـوى شغـفى فى مســاء ذات اليـــوم بالفـــرجة على التلـقـزيون الذى علـمت أن احـمد فـاضل قد ابتـاعه من سـوق العاديـات الشـــهير بتورينو الذى

يشبه سوق " وكالة البلح " بالقاهرة والمسمى هنا " بورتا باراتسا " .. والذى سيطرت عليه الإعلانات المبهرة وأخبار الملاعب ودورى أندية كرة القدم فى جميع أنحاء إيطاليا وما يرتبط بها من أخبار دورى مراهنات " التوتو سبورت " ! الذى خيل إلي أن كل فرد من الشعب الإيطالى يشارك فيه ويتابعه لحظة بلحظة بالتنبؤ بنتائج المباريات طمعا فى الفوز بجائزة من جوائزه الكبرى التى تبلغ قيمة الواحدة منها مليار ليرة !

***

كنا قد قررنا الخروج فجر اليوم التالى الاثنين للعمل بسوق الجملة ولما كان هذا العمل جديدا علي ويستلزم حضور النشاط واللياقة البدنية فاننى تجنبت السهر واستأذنت باقى الأخوة ولذت بفراشى وأنا أظن أننى وحدى لكنى فوجئت وأنا أتأهب للنوم جاذبا الأغطية بكمال يدنو منى ويضع منبها على « الكومودينو « بجوارى قائلا :

- قمت بضبط جرس المنبه على الساعة الرابعة إلا الربع .. عليك أن تنتبه وتصحو بمجرد سماعك له لتوقظنى وتوقظ الجميع .. لأننا فى خلال نصف ساعة من رنينه يجب أن نكون فى محطة الترام الكائنة بشارع يقع خلف شارع الاتحاد السوفيتى لنستقله من هناك إلى الماركاتو الكائن فى أقصى جنوب تورينو ..

غمـرنى الـسرور الباطـن لتكليفـى بتلـك المهمـة الدقيقـة التـى حملـت بـوادر ثقـة الرفـاق بى وأومـأت لـه بـرأسى موافقـا ومحييـا ومالبـث سـلطان النـوم أن أغرقنـى فى بحـاره إلى أن جـاء الأوان الموقـوت فانتفضـت وكنـت عنـد حسـن ظـن الجميـع بى .. ومـا أسرع أن نـال كل منـا حقـه فى الحـمام وخرجنـا فى هـدأه الفجـر وبرودتـه القارسـة نـدق باحذيتنـا أديـم الشـارع وقلبـى بوجـب باضطـراب وقلـق مسـتثارا مـن الصمـت الشـامل والسـكون الجاثـم مـع انفـاس الفجـر البـاردة جثـوم جبـال الألـب عـلى صـدر المدينـة ..

كنـا خمسـة مـن جماعـة المصريـين بالبنسـيون أنـا وكـمال ولطفـى والاخـوان فاضـل وتسـارعت خطواتنـا لمـا صـاح احمـد فاضـل محـذرا بصـوت تجاوبـت اصـداؤه فى انحـاء المـكان : - بـاق عـلى ميعـاد الـترام خمـس دقائـق ولـن نلحـق بـه إن لم نجـر !

وذكـرنى هـذا الصـوت المنـذر بصـوت رهيـب لملاحـظ لجنـة فى امتحـان .. طففـت مـع باقـى الرفـاق نزيـد مـن سرعتنـا حتـى

القينـا انفسـنا فى النهايـة نجـرى عـبر الشـارع الـذى يطـل عـلى الممـر السـفلى للسـكة الحديـد مباشرة وفى نحـو دقيقـة كنـا نتقافـز حتـى يـكاد الواحـد منـا أن ينكفـىء عـلى السـلم أو يصطـدم بأخيـه ..

جزنـا الممـر الأبيـض إلى الشـارع الـذى يحمـل الإسـم الأحمـر ثـم إلى الشـارع الـذى يقبـع خلفـه وعرجنـا إلى حيـث وقفنـا مـع رهـط مـن عمال مصريـين يقيمـون بالبنسـيونات الأخـرى المنتـشرة بكـثرة حـول المحطـة .. كانـوا يقفـون فى انتظـار الـترام ومـا وقعـت أبصارنـا عليهـم حتـى أدركنـا أن الوقـت لم يفتنـا وفى ابعـد مسـافة ممكنـة مـن الشـارع المتعمـق أخذنـا مـن مـكان وقوفنـا بالمحطـة نتطلـع إلى بعيـد لترقـب مقـدم الـترام .. وماهـى إلا لحظـة أو سـواها حتـى ظهـر فى منحنـى الشـارع ومكثـت اعيننـا عليـه تتابعـة بالنظـر إلى أن بلغنـا وانفتحـت ابوابـة آليـا وركبنـا ..

راح الـترام يجـوب بنـا شـوارع تورينـو المضـاءة بأضـواء خافتـة مـن أعمـدة ثبتـت عليهـا مصابيـح داخـل قناديـل زجاجيـة مثلثـة الأوجـه مخروطيـة القاعـدة أدركـت مـن تأملهـا انـه قصـد مـن ذلـك المحافظـة قـدر الإمـكان (طالمـا أن ذلـك بالامـكان) عـلى الطابـع القديـم للمدينـة حيـث كانـت تضـاء فى غابـر الأيـام شـأنها شـان كل المـدن فى ذلـك العـصر بإشـعال فتيـل مغـروس فى إنـاء مـن الزيـت داخـل فانـوس ..

كان الضـوء المنبعـث عـن هـذا الفتيـل وانيـا ضعيفـا بالطبـع مـما كان يضفـى عـن غـير اختيـار وقتهـا عـلى الشـوارع سـحرا وغموضـا يبعثـان الرهبـة اللذيـذة فى النفـوس .. أمـا الآن وقـد بلـغ التقـدم والتمـدن حـدا يمكـن بـه تحويـل الليـل إلى نهـار بالأضـواء الصناعيـة بحيـث أمكننـى أن

اخمـن أن هـذا المصبـاح الكهـربى حـددت شـدة ضوئـه .. ليـس فقـط إبقـاء عـلى تلـك الرهبـة اللذيـذة .. وليـس عـن توجيـه أمثـل لترشـيد الطافـة فحسـب .. وإنمـا كذلـك لإيصـال الحـاضر بالمـاضى والإبقـاء عـلى روح التاريـخ حيـة عـير الشـوارع كـما هـى عـبر الأجيـال !

ظـل الـترام فى سـيره الحثيـث إلى أن بلـغ نهايـة الخـط فى ذلـك الميـدان الواسـع الـذى يقبـع أمـام الماركاتـو .. نزلنـا .. دق قلبـى عنيفـا حينـما رأيـت لـدى نـزولى الميـدان يغـص بعربـات اللـورى الكبـيرة تقـف صفوفـا وراء بعضهـا منتظـرة دورهـا فى دخـول السـوق وكاننـى توهمـت انـه سـيكون مـن نصيبـى وحـدى تعتيـق البضائـع التـى تحلمهـا كل هـذه العربـات !

الا كـف أيهـا القلـب الأرعـن عـن الخفقـان ! .. فيـم خوفـك ألا تعلـم أنـه عـلى قـدر التعـب تكـون الراحـة .. عـلى مقـدار بـذل الجهـد يكـون المكسـب ! .. يـا ليتنـى اؤتيـت مـن القـوة والجلـد مـا يعيننـى عـلى إنـزال مـا فى باطـن هـذه اللوريـات مـن بضاعـة .. إذاً لكسـبت مـن المـال مـا يكفينـى لـشراء شركـة دريانـكا بأسرهـا لا تذكـرة عـودة واحـدة !

مشـينا حيثـما اتفـق واحـدا بعـد الآخـر أو اثنـين معـا حسـب الفـراع الـذى كان يتـاح لنـا بـين اللوريـات حتـى بلغنـا بوابـة السـوق الكبـيرة وأنـا اشـجع نفـشى وأشـد مـن أزرهـا بالـكلام عـن المكسـب والاطمئنـان

والاستقرار .. أو كنت احلم بهذا ؟ ولم لا هاانذا فى طريقى إلى عمل يدر ربحا بعد أن امتلكت محل إقامة فماذا ابتغى أكثر من ذلك ؟ .. ألا اهدئى أيتها النفس فما أنا بخائر العزم ! .. حقا أنها أول مرة أمرن فيها عضلاتى يبذل جهد آخر غير جهد الرياضة ولكن أيوجد على الأرض أقدس من جهد العمل ؟

علمونا بالمدارس فى فترة ما أن العمل حق وواجب وشرف وحياة .. الآن أضيف أن العمل رياضة روحية ترتفع إلى مستوى الصلاة .. ولكن أية صلاة تلك يار ربى فى عمل كهذا ؟! .. صه أمسك أفكارك تلك وإلا انتابتك تلك النوبة وعدت من السوق معضوض اللسان أو بهذين الخفين لحنين ! .. حنين ومنين ماذا يا أنا ؟! .. أين المفر ؟ العمل الشاق الذى تقت إليه أمامى والضياع خلفى ويتحتم أن أواجه التجربة حتف أنفى سواء رضيت أو لم أرض وليكن بعد ذلك ما يكون !

انحرفنا يسارا (ودائما هذا الصباح يسارا) بعد أن دلفنا من البوابة إلى السير فى شارع السوق الرئيسى الذى يمتد بمحازاة سور تصطف على جانبيه كما هو واضح حوانيت وشوادر تجار الجملة .. حسنا طابور اللوريات يتقدمنا إلى ساحة الإنزال وثمة إعداد كبيرة من الجرارات التى تجر المقطورات وثمة أيضا .. ماهذا ؟ .. نظرت أتأمل

هـذا الـشيء .. إنهـا .. مـاذا أرى ؟ .. آه أرضيـة مـن الخشـب تجـرى عـلى عجـل مـن الكاوتشـوك ويمتـد مـن تلـك الأرضيـة أربـع أعمـدة فى كل زاويـة وفـوق الأعمـدة سـقيفة مـن مشـمع أحمـر ! .. يقـف السـائق فى الواجهـة المطليـة باللـون الأحمـر عـلى دعاسـة عبـارة عـن قطعـة صغـيرة مـن الخشـب تتحـرك مائلـة إلى اليمـين فتنحـرف شـبه العربـة يمينـا أو مائلـة إلى اليسـار فتنحـرف يسـارا ثـم مـاذا ؟ .. آه بيـده إلى اليمـين ذراع يتحكـم بهـا فى سرعتهـا أو يوقفهـا وهـذا كل شيء ! .. سـألت أحـد رفاقـى معجبـا :

- ما هذه ماذا تسمى ؟

فأجابنى :

- كاريللو !

- هـذه إذن بديـل العربـة الـكارو هنـا ! ولكـن .. كيـف يتسـنى لهـا المسـير ؟

سألت الرفيق فأجابنى ثانية :

- ببطارية مشحونة كهرباء !

وصلنـا سـاحة التنزيـل الكـبرى بالسـوق وهالنـى أن أرى هـذا العـدد الهائـل مـن الشـيالين الذيـن وقفـوا أمـام رجـل بعينـه ينتظـرون اللحظـة

obeikandl.com

المأمولة التى ينتقى فيها أحدهم للعمل .. ولاحظت اسما يتردد على ألسن الجميع فخمنت أنه للمقول ومع ذلك تساءلت :

- من هو تونينو ؟

أجابنى متعهد الإجابة على تساؤلاتى من الرفاق بتركيز ورفق :

- المقاول !

تبسمت لأن حدسى جاء فى محله ووقفت أنتظر فى زمرة المنتظرين وأرمق اللوريات التى طفق الشيالين يقومون بتفريغها من صناديق العنب أو الكاكا أو الطماطم أو الموز أو التين أو الخس إلى آخرة من صنوف الخضر والفاكهة وأتامل لأقف على الطريقة المثلى لحسن الحمل حتى لا أخطى فأسبب ارتباكا لحركة العمل ..

استرعى بصرى أن أهم عامل فى عملية التفريغ هذه هو جماعية العمل وسرعته فالأيدى تناول بعضها بمنتهى الخفة والدقة سواء فى الإخلاء أو الرص .. يقف الشيالون صفا داخل الكاميون (اللورى) ويتلقف الأول بجوار الرصة المراد إنزالها صندوقا يسلمه للذى يليه .. وعلى الفور تتوالى عملية التسليم هذه إلى أن يصل الصندوق ليد آخر الشيالين وهذا بالذات هو المعنى بالرص خارج العربة على ظهر مقطورة .. وكلما انتهى من رص صف يبدأ فيما يليه وهكذا

إلى أن تمتلىء فيأتى جرار ليسحبها إلى حيث محال تجار الجملة وفى التو تحل محلها مقطورة ثانية ينتقل إليها العمل .. ويتواكب مع تلك العملية فى تفريغ الكاميونات عملية مماثلة فى ذات الوقت بالمحلات حيث يتوفر عمال الإنزال هناك على رص البضاعة بها .. وكلما كان حجم العمل كبيرا وعدد الكميونات وافرا كلما زاد عدد الشيالين والأجر .. والمقاول بذكائه يقسم الشيالين إلى درجات كل حسب مهارته ومواظبته وقدرته البدنية وفى النهاية يمكن القول أن المهارة مران .. والمواظبة مثابرة يومية على الكدح ! .. والقدرة من الله .. فيما علمت من محدثى الذى كان يقف بجوارى يترقب معى أن يسعفه الحظ وينتقى للعمل .. ومنه علمت أيضا أن للمقاول عدته المثبتة لديه من الشيالين الذين احترفوا الشيالة ! فهم عماد العمل ثم هناك فئة ثانية ممن يعتمد عليهم ويشركهم فى العمل يوميا ولكن حسب الحاجة ودون تثبيت .. وهناك فئة ثالثة يضطر إلى الاستعانة بهم كلما دعت الحاجة إليهم من الجدد أمثالى ومن محدودى المهارة والطاقة ومن يفتقدون عنصر الدأب والمثابرة !

ويبدو أننى كنت محظوظا لأن حجم العمل فى هذا اليوم كان كبيرا فهو يوم الاثنين بعد عطلة الأحد ولا أقول وبعد التأهب بالتراخى العام السبت ! إذ سرعان ما لاحظت أن تونينو قد بدأ فى سحب الشيالين بعد أن قام بتوزيع المثبتين وانتفى الذين يعتمد عليهم

ثم بغير اختيار بعد ذلك أشار إلي أنا أيضا فاستخفنى الجد والفرح ووقفت فى المكان الذى أشار إليه وبعد لحظة وجدت من يدفعنى امامه قائلا :

- هيا تقدم !

كان كمال وشكرت الله أنه وقع معى فى نفس مجموعتى وفى الحال صعدنا كاميون ووقفت حيث وجب على أن اقف وما أنا إلا أن رأيت شيالا يدفع إلى يدى بصندوق ممتلىء إلى حوافه بالعنب الأسود المسمى بالفينو الذى يستعمل فى صنع نوع من الخمور بإيطاليا يسمى قينو أيضا .. فناولته وكأننى أقذفه أو أتخلص منه لمن بجوارى الذى كنت أعرف أنه لن يكشفنى وسيعالج خطأى ..

كانت الصناديق فى هذا الكاميون من القطع الكبير ! ومهارتى ولياقتى فى الحمل من القطع الصغير ! الأمر الذى أرهقنى أيما ارهاق حتى كدت أسقط بأحد الصناديق أرضا .. ولولا اننى كنت أتكىء بثقل الصندوق كله على بطنى بينما أسنده بذراعى من الجانبين ما أتيح لى التحمل ومواصلة العمل ..

كانت السرعة التى نوهت إليها آنفا هى سبب الرهق والمعاناة وقد توصى بى العامل الإيطالى الذى كان يسبقنى وكذلك الذى يلينى بعد سحب كمال ونفر من رفاقى إلى كاميون آخر تلبية لأمر أحد

أتباع تونينو فكان على أن أتردد بينهما كبندول الساعة ! .. ترنحت أكثر من مرة وكاد أن ينكشف قصورى التأهيلى لتلك العملية وبدأت أتوهم أن زميلى الإيطالى الذى كان يناولنى يحدجنى بنظرات عدم الرضى ويهمهم بألفاظ غير مفهومة لى بلغته .. لكنه لم يصل بعون الله ورحمته لدرجة التذمر والشكوى التى كانت ستؤدى به حتما للصراخ فى وجهى وشتمى الأمر الذى كنت لن أستطيع عليه سكوتا فتقع مشادة بيننا وينتهى كل شىء أو يلاحظ أحد اتباع المقاول ذلك فيأمرنى بالنزول لأعود من السوق محبطا بخفى حنين حقا !

قد صابرت وكابرت إلى أن انتهى العمل فى « كاميون الفينو « وكان الجهد الذى بذلته قد نال منى غايته والعرق الذى تصبب من جميع أعضائى قد ألصق ثيابى الداخلية بجسدى من فرطه ..

أمرنا آمر بالنزول والانتقال إلى كاميون مجاور يحتوى لمنتصفه صناديق خشبية مليئة برؤوس أبصال كبيرة بيضاء بسوق رفيعة وقصيرة وأوراق خضراء لكنها لا تبدو من بعيد بصلا ! .. اعتليت الكاميون الجديد متصنعا الهمة والنشاط وساعدنى فى التصنع أننى نلت بعض التدرب على صناديق أكبر حجما .. دنوت وتوا شممت رائحة نوع من الخضر أعرفه .. مددت أناملى ومزقت نتفة صغيرة من بصيلة مدلاة من أحد الصناديق فتأكد لى مذاق « الشبت ! « ..

سألت أحد أقراني فأفادني أن تلك الرأس البيضاء المكونة من طبقات ملتفة فوق بعضها هي الجزء المستعمل وأن اسمه « فينوكي ! « فانخرطت في العمل مع الباقين وما انتهينا منه حتى كان النهار قد بزغ وملأت أشعة الشمس أرجاء الساحة .. نظرت فرأيت أن العمل في باقي الكاميونات قد انتهى أيضا أو كاد .. نزلت ألحلق بكمال الذي نادى علي كي آخذ من تونينو حسابي وسبقني إلى حيث وقف بين مجموعة من الشيالين ووقفت إلى جانبه وحين جاء دورنا مد كمال يده وتناول أجره ففعلت مثله ..

كان تونيتو المقاول شابا وسيما في نحو الأربعين يرتدي « سويتر من نسيج الشاماواه « لدن ناعم بني اللون وكان أبرز ما فيه نعومة شعره وطول هذا الشعر الذي كان ينساب مغطيا قفاه إلى أول كتفيه .. نظرت وأنا أتباعد عنه ماخوذا بطريقته في دفع الأجر حيث يبدأ في تركيز نظره إلى وجه الشيال الذي سينقده أجره كانه يحاول تذكر ملامحه أو يتعمد أن يوحي إليه بذلك كي يستقر في أنفس الجميع أنه يعرف جميع من كلفهم بالعمل .. وتكون الحركة التالية بعد تلك النظرة هي استمرار النظر ! وفتح يده القابضة على أوراق النقود من فئة الميلا ليرة ويبدأ في العد ووضع الأجر في يد الأجير ورقة ورقة !

وسايرت كمال إلى حيث كان يسير وأنا أحاول جاهدا أن استجمع فقرات ظهرى الذى تفكك من فرط الجهد حتى كدت أتوهم انه انخلع من منطقة العصعص ! .. واننى لا محالة قد اصبت بعاهة تستلزم جراحة دقيقة فى فقرات هذا الظهر من شدة شعورى بالانهاك ومن برودة الصباح التى كنت اشعر بها تتخلل ثيابى المبتلة بالعرق وتنفذ إلى عظامى فتنخر فيها وترعدنى !

كنا نتماشى بين صفوف « الكاريللات « الحمراء التى تمددت من موقفها بالميدان أمام البوابة الرئيسية إلى ثلاث شوارع أحدها يتعامد عليه والثانى يتجه يمينا والثالث (الذى أتينا منه) يسارا .. ومن حيث بدأت تتأهب للتحرك إلى محلات الجملة التى تقع على جوانب الشوارع وتفريعاتها الداخلية غير المرئية اعتبارا من الساعة السابعة المحددة لعملها .. وهناك أمام البار التقينا باقى الأخوة المصريين الذين أضيف إليهم عدد من الوجوه الجديدة بالنسبة إلي والتى لم يأت أصحابها لنوبة العمل الباكرة .. وما انتهيت من مصافحتهم والتعرف إليهم حتى اكتشفت أن مجموعة البنسيون ينقصها فى ذاك الوقت الرفيق لطفى .. سألت عنه فأجابنى احمد فاضل بأن أحد حوذية الكاريللات قد ألحقه بالعمل معه على الكاريللو التى تخصه .. ولم يكد ينتهى من قولته حتى ظهر أمامنا بغتة حوذى من هؤلاء طويل القامة يرتدى زى رعاة البقر الأميركان بما فى ذلك الزوائد

والشراشيب الحريرية المدلاة من الجانبين الطوليين لبنطلونه الجينز الأسود وعلى جانبى كتفيه وذراعى سترته .. حتى القبعة الجوخ على رأسه الرمادية اللون كانت من النوع الذى اشتهر به رعاة البقر أيضا .. ولفت نظرى كذلك أنه ما إن وقع نظره على الأخوين فاضل حتى حياهما قائلا بلهجة عربية ركيكة :

- سلامو عليكو !

وألفيتنى أرد السلام مع الجميع فى دهش وإعجاب بهذا الإيطالى المتفرد بمظهره ونطقه وأيضا تدخينه السيجار الكوبى الذى به تتم الهيئة الجامعة لأكثر من بلد ! والذى ما أن ألفى نفسه بيننا حتى أشار إلى الأخوين بالسير معه فانحسبا من المكان وهما فى سعادة لأنهما سيعملان معه ويبدو أنهما قد اعتادا ذلك يوميا لأنه كان يسير متأبطا ذراع أحدهما وواضعا ذراعه على كتف الآخر وأثناء ذلك كان يتبادل المزاح معهما .. وما هو إلا أن وقف على تلك الخشبة فى مقدمة الكاريللو فوثب الأخوان فاضل إلى ظهرها وتشبث كلا منهما بأحد أعمدتها وهما يلوحان لتا على حين اندفع الرجل بهما مسرعا ومضى بهما لحال سبيله ..

أغرانى المكسب بالاستمرار فوقفت مع كمال أترقب فى زمرة المنتظرين أن يستخدمنى أحد « العربجية « على الرغم مما كنت اشعر به من تعب .. جاء هؤلاء وتكابوا على الرفاق وسحبوهم جميعا فيما عداى ولم أدر لماذا ؟ .. ألاننى كنت وجها جديدا لم يختبر والايطالى حريص الحرص كله على معاملة من يعرفه ؟! .. طوى السؤال الإجابة وافتقدتها طويلا لما ساءلت نفسى فمكثت واقفا فى مكانى أتأمل حركة العمل فى السوق التى كانت تنساب إنسيابا زئبقيا لاسيما كلما ظهرت إمرأة فى ملابس أنيقة تتمشى مع أحدث صيحات الموضة وهى تدفع عربة يد صغيرة تحمل بعض الصناديق فى همة ونشاط قل أن يتوفرا فى مصرنا إلا للعربجية المتمرسين الشداد الذين ورثوا المهنة أبا عن جد !

غص السوق بمثل هذا المنظر غير المألوف لى فلم أشعر بمرور الوقت ولا بنفسى إلى أن جاء وقت خيل إلي فيه وأنا كالتائه أحلم كأن أحد أصحاب الكاريلات الحمراء يقف على الناحية الأخرى من البوابة ويستدعينى إليه بإشارة من يده ..

نظرت كالأبلة أفكر فيما إذا كان هذا الذى أراه حلما أم علما ! ولولا أنه تصادف فى تلك الآونة مرور الكاريللو التى تحمل الأخوين فاضل فاشارا إلي بأيدهما معا أن انشط إليه فهو يطلبنى للعمل .. إذ ذاك

فهمت وتوجهت إليه عدوا وركبت ظهر الكاريللو وأنا اثب متشبثا بأحد أعمدتها فى اللحظة التى كان الرجل قد بدأ فى المسير بها مندفعا إذ كان على ما يبدو متعجلا وأخذ ينهب بى شوارع السوق نهبا ويسير فى الزحام متفاديا الكاريللات الاخرى والسيارات والمقطورات فى حذق وسرعة من مهارة فائقة وكأنه ولد يلعب بدراجة ! .. وما هو إلا أن توقف ونزل أمام رصة عالية من صناديق العنب أمام أحد المحلات مشيرا فقفزت إليها واخذت احمل الصناديق وارصها بترتيب فوق بعضها فى المكان المناسب بالكاريللو ووجدتنى لشدة دهشتى احذق عملية الرص هذه كما لو كنت قد مارستها وتمرست عليها بحيث لم ألحظ أن الرجل المتعجل قد استعجلنى أن اسرع أكثر أو وجه إلى اشارة أوأمرا يفهم منه انه ينتقد طريقتى فى الرص !

وما أن انتهيت من تلك الجولة حتى أسرع بالكاريللو ووثبت إليها وهى تجرى وفى جهة أخرى توقف وأشار إلى رصة عالية أيضا من صناديق الطماطم ورصة أخرى من صناديق الكمثرى وثالثة من التفاح فقمت بحملها ورصها جميعا فى المكان المناسب كما فعلت قبلا ووثبت إلى الكاريللو وهى تجرى مستميتا بأعمدتها حيث كان قد اندفع بها بمجرد أن شعر بأننى أضع آخر صندوق ..

وأمام عدد من حمالات البصل المصرى الشبكية الحمراء التى

أحفظها فى ذاكرتى عن ظهر قلب توقف أنظر بفخر لإنتاج بلدى وأحمس نفسى لرفع الاكياس ووضعها بنظام فى ارضية الكاريللو بسرعة فائقة أدهشت « العربجى « فحدجنى بنظرة متسائلة عما طفر فى أعطافى على العكس مما خاله في من نصب نتيجة إسراعه وكم العمل .. لم ينتظر إجابة لسؤاله ووثب إلى مقدمة الكاريللو فاسرعت بدورى بالوثوب وانطلق إلى محل آخر ثم توقف وأشار إلى بعض أجولة البطاطس .. وعلى الرغم من أنها هى الأخرى كانت جديرة باعتزازى وشممت فيها رائحة أرض بلدى وانتشيت بها لكنى أمام ثقل أجولتها دعوت الله أن يكون فى عونى ! ..

انحنيت عليها احملها بكل ما فى ذراعى من قوة وبكل ما فى نفسى من عزم وعناد وبكل ما فى بطنى من عضلات أيضا حتى انتهيت منها بعد جهد وبعد أن كان الوهن قد بدأ يدب فى اوصالى حتى كدت أصرخ لاعنا العمل والنقود هاتفا بسقوك الكاريللات وعربجيتها أجمعين ! ..

انتبهت إلى الرجل فرأيت أنه تلك المرة لم يتعجل المسير وأدمت النظر إليه فى سكون ظانا أنه قد استوفى غرضه وأنه ينتظرنى مثل تونينو لينقدنى أجرى لكنه لأسفى وحظى العاثر أشار إلى صف طويل من صناديق التين يصل ارتفاعه إلى حوالى المترين ..

ومع أن أصحابه خوفا عليه من أن يتهرأ وضعوا بكل صندوق شيالة من الفللين الصناعى الهش بأعين وعلى ذلك فالصندوق عبارة عن صف واحد من ثمار التين غير أننى وجدت تلك المهمة أشق من صناديق عنب الفينو لشدة ما حل بى من تعب وأيضا لشدة ما يتطلبه من توخى الحرص والحذر الذى كان على اتباعه .. مددت يدا مرتعشة إلى أعلى صندوق فى الرصة فوقع ما خشيته إذ مال الصندوق إلى جانب وتدحرج آخذا معه عدة صناديق أخرى وسقط التين وتبعثر على الأرض ولما رأى الرجل ذلك صاح باستياء وتلفظ بسيل من الكلمات الايطالية المتلاحقة التى تنم عن غضبه وانحنى على الأرض يجمع معى ما تبعثر وما بعضه تمزق واتسخ دون أن يبدو عليه أنه سيصرفنى لحال سبيلى وبعد أن تم جمع ورص كل الثمار فى اماكنها بالصناديق توفرت على نقلها ورصها فى مكانها المحدد بالكاريللو وأنا أمنى نفسى بنهاية المطاف .. لكن الرجل مارس هوايته مع آخر صندوق وأسرع إلى عربته يجرى قفزت إليها فى آخر لحظة وأنا أقول لنفسى :- أجرى .. أجرى !

وتعلقت بها وأنا اوشك أن أقع وقبعت بين رصات الصناديق استجمع لهاث أنفاسى وشتات أعضائى وفكرى داعيا الله أن يكون الرجل قد استوفى مرامه منى وأن تكون تلك نهاية العمل ولكن خاب فألى ! ..

جنح الرجل بعربته فى أقصى ناحية من الشارع الذى كان يعدو بالعربة فيه .. توقف أمام محل آخر ثم أشار إلى رصة عالية أخرى من ثمار الكاكا الغالية التى يغالى أصحابها فى الحرص على تعبئتها بأشد من التين .. أمرنى بوضع الرصة فى مكان خال بين الصناديق .. تخوفت وأنا أقيس بميزان حساس مقدار ما يجب أن يتوفر فى أعصابى من ثبات وتحوط لئلا يحدث لثمر الكاكا ما سبق للتين فأدى الاهتمام الشديد إلى نقيضه ! .. ارتعشت يدى بمجرد لمسها لأعلى صندوق فى الرصة فسقط ومعه عدد لا يستهان به من الصناديق الأخرى ..

آه .. آه .. كان الله فى عون الرجل فالكاكا فى إيطاليا من الفاكهة الغالية والرقيقة للمس فكيف بى أوقعها أرضا وصرخ الرجل فى وجهى وأنا التمس له كل المعازير خاشيا أن يعفو عن خطئى تلك المرة أيضا ويحتفظ بى للعمل ولكن هذه المرة وقد اثر السلامة فيما يبدو أعقب صرخته باخراج ثلاث وريقات من فئة الميلا ليرة من جيبه وأعطاها لى وهو يشيح بوجهه عنى ويدمدم بكلمات لم أفهمها .. ياالله لو أن أحدا غيره لما أعطائى أجرا لقاء ما افسدت من ثمار الكاكا ومن قبل ثمار التين .. الرجل كان كريما حقا وأنا أشكره وأشكر جميع الإيطاليين الذين هم على شاكلته وهم كثيرين ! .. هذا الشعب يتسم بالطيبة وعراقة الأصل على غير ما يشاع عنهم

بالقياس لباقى الشعوب الأوروبية .. أنا هنا فى سوق الجملة بالمدينة اعمل واكسب ويوسع لى هؤلاء الناس بينهم كى اعمل واتكسب رزقى دون أدنى شعور منهم بأجنبيتى فأنا إنسان ويكفى هذا .. كأننى فى بلدى مصر .. أبعد هذا الكرم كرم لى عليهم نفس الحقوق لقاء ما أؤدى من واجبات وإن قصرت فى عملى لنقص فى الدربة والصحة لا أحاسب على تقصيرى وأنال أجرى كاملا .. وإزاء ذلك .. أعدكم يا شعب إيطاليا العريق وقد أوقعت بعض الصناديق أن أعمل لعدم تكرار ذلك .. الشيالة فن له قواعد بالتأكيد تجعل من طريقة حمل الشىء من مواضع خاصة مألوفة للشيال الخبير ! ومن تركيز الثقل على عضلات معينة بالأذرع والظهر والعنق عملا سهلا .. ولابد أن اتعلم هذا الفن حتى أتقنه فى هذا الماركاتو العظيم الواقع جنوبى تورينو .. دينى يأمرنى إن عملت عملا أن أتقنه .. أنا المسلم ثم أنا المصرى !

obeikandl.com

حقا لا تنشد فى السوق الكسل ولا تطلب الراحة فى العمل فإننى بمجرد أن عدت إلى موقف الكاريللو أمام البار ألتمس مكانا ظليلا اريح فيه أعضاء جسمى .. لاسيما تلك التى تتركز أسفل الظهر وتتصل بالعجز الذى توهمت أنه انخلع ! .. واقف ثمة أمسح عن جبينى العرق المتصبب وأنفخ فى صدرى الهوء البارد .. عسى أن يتطاير بعض ما به من البلل الساخن حتى رأيت رجلا أحمر الوجه يضع على رأسه قبعة صغيرة مكتوب عليها الماركاتو يظهر فجأة على الناحية الأخرى من الشارع ليهتف بى بلهجة أمرة :- هيا هيا معى يا فتى أسرع !

وواصل مسيره ركضا وأثناء ذلك ينظر إلى مستعجلا فألقيت نفسى أقتفى أثرة وكأن فكرة استقطاع الأجر كاملا غير منقوص عن عمل ناقص قد راقتنى وتساءلت لم لم ينتظر مجرد إبداء موافقتى .. ذنبه على جنبه ولينتظر منى كل تقصير واخفاق فاننى على كل حال سأنال أجرى والآن لأتوقف كلية عن كل كلام واجرى لألحق بهذا الايطالى المتسرع فما نحن إلا فى سوق يبدو بلا صاحب !

والحقيقة أن السوق فى مدينة تورينو يعطيك فكرة سريعة عن طبيعة الشعب الايطالى المتفتح للحياة بكل طيباتها ومشاقها وبالذات فيما يتعلق بالطعام والعمل فهذا الشعب يأكل جيدا ويعمل جيدا أيضا

.. ترى أمامك فى كل الأنحاء كل الخيرات حتى لتظن أن الأرض الإيطالية تجود بمختلف صنوف الثمر والخضر ما تعرف مذاقه منها وما لا تعرف بل وفى متناول يدك إن أردت أن تتذوق أو تملأ بطنك .. فقط أن تكون فى ذات الوقت فى حالة عمل على ما تأكل على أنه يجب ألا يفهم من ذلك أن الشعب الإيطالى يرفع شعار « يد تعمل ويد تأكل ! « فهو ليس نهوما ولكنه متفنن ذواق .. تراه بكل حضارته التى تمتزج فيها روح العصر الجادة المتجددة بروح التساهل والتباسط التى تجعل منه جادا حازما وهازلا فكها فى ذات الوقت .. الإيطالى ابن الساعة وابن النكتة أيضا ! .. والصورة الصحيحة له أنه موزع فى حقيقة أمرة بين مدنية غير مستقرة تجذبه من ياقة قميصة لأعلى حتى لتكاد أن تشنقه وبين تلقائية عفوية مسرفة غير مأمونة تجذبه من سرواله لأسفل ! .. وأصدق مثال على ذلك هذا الرجل المخدوع الذى يعدو أمامى مستجيرا بى أن أسرع دون أن يتريث ليعرف حقيقة استعدادى وما إذا كنت الشيال المناسب ! ..

وفى ناحية هادئة نوعا بطرف قصى من السوق استدرجنى لكاميون مكتظ بصناديق عنب « الفينو « الداكن الحمرة لدرجة الاسوداد والأكبر من سابقتها التى خلعت فقرات عمودى الفقرى من مكامنها وافحل ! .. فوضت أمرى إلى الله خالقى وبارئ وصعدت فوق ظهر الكاميون وأنا ارتعش مما أنا مقبل عليه من هلاك محقق ..

كان بالداخل شيال أخر مصرى وكانت مهمتنا توصيل الحمولة إلى ظهر مقطورة ألصقت فى مؤخرة الكاميون حيث وقف شيال ثالث ليأخذ من كل منا ويمشى إلى المقدمة ويرص البضاعة رصا .. بدأ العمل وانحنيت على أقرب صندوق واجهنى وعالجت رفعه بين ذراعى فاستعصى كما لو كان ممتلئا بالحجارة ! .. وطال أمد المحاولة وأنا اعانى الاضطراب والارتباك واختلس النظرات إلى صاحب العمل اختلاسا مخافة أن يلاحظنى فيكشف أمرى مبكرا قبل أن أوغل قليلا فى العمل ويصبح من حقى احتساب أجر ! ..

كان الصندوق فى تلك الآونة على الأرض وفكرت أن أزحلقه فأسرعت بدفعه بكل ما فى ذراعى من قوة وأنا أتوقع إنطلاقه كالقذيقة إلى المؤخرة فيتلقفه الشيال ولكنه وفى منتصف المسافة حرن وتوقف مصمما ألا يتحرك قيد أنمله وكأنه أراد أن يكشفنى فتكدرت ودفعته مرة أخرى وبغيظ ومثابرة حتى استقر فى المؤخرة وتلقاه الشيال بيده وتعمد أن يرفعه لأعلى كما لو كان يرفع صندوقا من الورق يحوى بعض الريش أو القش ! وإبان ذلك يرمقنى بنظرة متداخلة تنطوى على معنى الهزؤ بى والتباهى بقوته .. لم أولى نظرته اهتماما كيلا ألفت الأنظار وعدت أدراجى إلى صندوق ثان وطفقت أسحبه إلى المؤخرة وأنا الهث .. هنا تأكد الجميع أننى محطم القوى مخلوع الظهر فأخذوا ينظرون إلى ويتابعوننى فى طريقتى المبتدعة للتفريغ

والحمل التى لم يكن لهم بها سابق عهد أو معرفة ومع ذلك تركونى اعمل بالطريقة التى تخيرتها إذ ماذا يفعلون ازائى .. لقد خدعوا بى ولا مناص من قبولى على حالى .. وذو الوجه الأحمر وقبعة الماركاتو كله أعين يصوبها نحوى ويركزها طويلا كما لو كان يشاهد أعجوبة من الأعاجيب ولا يستطيع أن يتفوه بكلمة يعبر بها عما يجيش بصدره تجاهى فهو الذى دعانى للعمل مصادرا حريتى فى إبداء الرأى وطفق يجرى بى كما لو كان يهرب بكنز ثمين عثر عليه توا .. وما انتهى تفريغ الحمولة حتى كنت قد انتهيت وافرغت آخر ما بى من حبات العرق ودخل فى روعى أننى مهدد بالجفاف أو ما شابه ذلك من الأمراض والعلل التى تصيب الإنسان الذى بذل جهدا فوق الطاقة .. انتابنى الذعر واسندت رأسى على جانب واستسلمت لنوبة من الارتعاش أخذت تعصف بى وترجفنى ظهرا لبطن وشعرت كأن أرضية الكاميون تهتز تحت اقدامى وتغور بى فجلست ألتمس إنقاذا .. توقعت أن يهب الجميع لنجدتى ولكنى لدهشتى ما أن ملكت نزرا يسيرا من القوة على رفع الرأس والنظر إلى ما حولى حتى رأيت المكان خاليا إلا منى فقد ذهبوا جميعا لحال سبيلهم وتركونى وحدى أجنى ثمرة تظاهرى وادعائى وابتكارى الطرق الحديثة فى الشيالة ! .. أنا ناعم الجلد الذى لم أهن يوما فى حياتى بعمل عضلى يستنزف الطاقة أهان على هذا النحو ويتركنى ذو الوجه الأحمر دون

أن ينقـدى أجـرى ..

قـد فهمـت الآن الحقيقـة .. كـم كنـت أنـا المخـدوع لا هـو ! .. إنـه بالقطع خـبر سرى بـدرى وعـرف كيـف يقتـص منـى ! ولابـد أن زميلـه العربجـى الـذى خلـت انـه كان كريمـا معـى هـو الـذى سـلطه عليـه ليثـأر لـه منـى .. آه قـد عـرف كيـف يثـار الوغـد ! .. أنـا الـذى كنـت أظنـه طيبـا أصيـلا وأظـن كل الإيطاليـين عـلى شـاكلته .. آه ياهـو أدركـونى خلـت دنيـا الغـرور مـن الرحمـه .. تسـاء معاملتـى بعدالـة فى بلـد مهـد القانـون الرومـانى عـلى نحـو مـزرى !

- أنـت .. أنـت هنـاك لمـاذا لم تقـل أنـك حديـث عهـد بالسـوق ؟ .. اتظـن أن الشـيالة شـطارة ؟ .. أنهـا مهنـة يـا بنـى لهـا تقاليـد وفنـون قـد جللتنـا بالعـار اللـه يقرفـك !

ورفعـت راسى إلى المتحـدث كان الشـاب المـصرى الـذى رأيتـه لحظـة صعـودى الكاميـون والـذى مـا إن انتهـى مـن تعنيفـى حتـى صعـد إلي ورفعنـى فى قسـوة غـير مبـال بمـا أشـعر بـه مـن رهـق وتفـكك عظـام ..أوقفنـى كـما تعـود أن يوقـف أجولـة البطاطـس ثـم حملـق فى وجهـى وهـو فى سـورة غضـب منـى أعلـم سـببه واسـتتلى :

- المصريـون هنـا يحـوذون رضى واعجـاب الجميـع فمـن أيـن جئت لتشـوه

صورتنا ! .. قد تحايلت على الرجل حتى قبل أن يعطيك أجرك .. فى المرة القادمة احذر أن تعمل فوق طاقتك .. إن كنت تعبا استرح يا اخى ملعونة هى النقود التى تذلك وتقضى عليك بتلك الطريقة !

قالها ملقيا النقود فى وجهى وتركنى وذهب وهو يرغى ويزيد لنفسه بكلمات وهمهمات غير مفهومة وما إن توارى وتأكدت من ذلك حتى انفجرت فى نوبة من الجهيش والنحيب ..

كنت بالأصح موزع الشعور ممزقا بين الغضب من نفسى والشفقة عليها فى ذات الوقت .. إذ ماذا يلزمنى بقبول هذا العمل طالما اننى غير قادر عليه .. إن الشاب المصرى الذى انصرف معه الحق كل الحق فقد هززت ثقة أصحاب الأعمال الإيطاليين هنا فى الشيالين المصريين وما كان يجدر بى أن اسلك هذا السلوك الشائن .. أمن أجل بضع ميلا ليرات أكسبها أخسر نفسى واحترام من بالسوق جميعا ! ..

وماذا تفيد النقود إن كسب المرءالعالم وخسر نفسه أم اننى كنت اطيع أوامر نابعة من عقلى الباطن الذى يختزن كما لا باس من الكراهة والبغضاء لتلك النفس قصاصا منها لأنها انفقت سالف الاعوام فى الهراء والضياع والاستخفاف بالعقول إلى آخر تلك القائمة من الموبقات التى زهت وتباهت بها تلك النفس من عمرى سنين طوال ! ..

أنى مكدود مكدور ممزق الأواصل ولكنى فى باطنى أشعر بنشوة خفية تتسرب إلى أعماقى وتشعرنى ببعض الراحة فى مذلتك يا نفس ولا أزعم أننى انتصرت فما زال بين وبين الانتصار البين سبحا طويلا فلماذا تمسكى بالمسير على درب التصغير والتحقير !؟ .. أأنا مجنون فى حاجة إلى طبيب يعالج تطرف عواطفى برضاها عما لحق من مهانة من جراء ارهاق البدن والنفس فأى ذنب جنيت .. أية جريرة اقترفت حتى يلازمنى هذا الشعور القاسى الظالم .. رباه أسألك اللطف بى .. أعنى على ما أعانيه فى نفسى .. إنى لا أخاف أى شىء بعدك سبحانك قدر خوفى من نفسى ويمكننى بما وقع لى منها اليوم أن أتنبأ بأنها ستوردنى موارد التهلكة فأجرنى منها وعليها ..

بهذه المناجأة الصامتة لربى دبت حرارة الاخلاص له تشع بواعث الحياة فى دمائى وتمدنى بما يكفى من الإرادة لاسترداد قدر من الحمية والنشاط .. استطعت أن أهبط من الكاميون إلى الأرض .. سرت فى الطريق اجرجر أقدامى إلى حيث موقف الكاريللو أمام البار أنشد رفيقا يعود بى لبنسيون مالاندرينو ..

بدا لى الشارع الذى قطعته قبل ذلك عدوا وفى أعطافى بعض الهمة والقوة من الطول بحيث لا يريد أن ينتهى وأنا خال من أيه همة وفى بدنى خور وقواى بهتان !

بعد كثير عناء وصلت الموقف المنشود وهناك تقابلت مع الرفاق الذين كنت أنشدهم والذين ما إن رأونى حتى تدافعوا إلي كأنهم قد خمنوا ما أنا عليه من وهن يجدر معه أن يمسكوا بى قبل أن أسقط أرضا أمامهم كضحية السوق الكبرى فى وقفة عيد العمال ! وهم يغدقون على عطفهم واهتمامهم متسائلين معا :

- ماذا حدث لك ؟ .. أين كنت ؟ .. هل ربحت أجرا طيبا ؟ .. أنت بخير أليس كذلك ؟ .. لا تخف ولا يتأس كلنا مررنا بنفس التجربة فى أول يوم .. أنت قوى .. بذلت جهدا فوق طاقتك .. أنت بطل وتستحق من مدير السوق كأس الروح العالية ! .. نحن معك تشجع ولا تضعف أو تستسلم .. غدا تكون أكثر قوة ولن يتكرر لك ما حدث اليوم !

والغريب أن كلماتهم تلك سرت فى نفسى مسرى السحر فقومت انحناء ظهرى وقوت ما تمزق من روحى ونفسى وشعرت ببعض القوة تدب فى أعماقى وتنتقل إلى سائر أعضاء جسمى فتنفست الصعداء بعمق وسحبت جسدى من بين أيديهم بلطف فى المواضع التى أمسكو بها خشية أن اقع وتبسمت لاثبت لهم اننى على المرام وقلت :- أنا بخير هيا إلى البنسيون ..

تمتم لطفى :- العمل فعلا أوشك على الانتهاء ولا أمل فى مزيد !

غمغم احمد فاضل :- معك حق هيا بنا نروح .. السوق شطب !

نطق محمد الذى يلتحف بصمت دائم قائلا :- هيا يا شباب !

ولم ينبس كمال ببنت شفة ولا أدرى لماذا وفى الحال توجهنا إلى البوابة خارجين ومضينا فى الميدان الكبير الذى الذى يحتضن فى أحد جوانبه سوق الجملة .. قطعناه لندلف لشارع خلفه تقبع فى بدايته محطة الأوتوبيس الذى يسميه الايطاليون « بولمان « وما هى إلا لحظة حتى جاء البولمان وركبناه فى طريق العودة .. هذا كان يوما عصيبا ..

لكنه كان مجيدا على قدر ما كان به من صعاب.. ثم كانت الأيام التالية من الاسبوع اقل صعوبة لأننى يوما بعد يوم اكتسبت خبرة العمل ولم يتكرر هذا الاخفاق الذى واجهته فى أول يوم .. اكتسبت عضلاق فى ذات الوقت المرونة التى تأتى بالمران بعد شدة التعب الأولى وان كان قد تضاعف شعورى بالاهاق وتراكم تعب الاسبوع كله .. برده ..عرقه .. دموعه .. آلامه وآماله فى نهايته .. احسست كأننى احمل فى اعماقى ثقلا يشدنى قسرا إلى أرض غريبة ..ولو أن احد قال لى فى مصر « خذ ألف جنيه اجرا فى اليوم واعمل شيالا « ما قبلت .. ولكن ها انذا قد قبلت بضعة جنيهات فحسب لقاء العمل كشيال فى سوق تورينو .. فلماذا نقبل نحن المصريون امتهان أعمال خارج مصر نأبى القيام بها فى مصر وبأجر قد يكون مثيله فى مصر أكبر

فقـط نقبـل ؟!

خطـر هـذا السـؤال فى ذهنـى وأنـا واقـف بـين رفـاق البنسـيون فى مؤخـرة البولمـان مسـتندا بمؤخـرتى عـلى حاجـز معـدنى وضـع هنـاك ليتـكىء عليـه الـركاب أثنـاء وقوفهـم ونحـن فى طريـق العـودة .. فكـرت بعمـق بحثـا عن معنـى يقنعنـى باجابـة شـافية وقاطعـة للسـؤال .. لم اجـد مـبررا واحـدا لهـذا التناقـض الغريـب فى شـخصيتنا نحـن المصريـين .. التناقـض الـذى يكلـف الواحـد منـا غاليـا للإبقـاء عليـه فى سـلام حيـث هـو مـن نفسـه وأنفـس الآخريـن سـليما لا يمـس فى الوطـن ! .. مـرة ثانيـة أكـرر والتكـرار كـما يقـول المثـل العامـى يعلـم ال ... ! .. لقـد كان ممكنـا أن أهجـر وظيفتـى التـى لا تـرضى طموحـى ولا تشـبع حاجـات نفـسى واعمـل شـيالا فى مـصر واكسـب أكـثر مـما كسـبت اليـوم فهـل بارحـت الأهـل والديـار وتجشـمت متاعـب السـفر والغربـة لمجـرد أن اعمـل شـيالا هنـا فى بـلاد العجـم ؟!

هكـذا ثانيـة أيضـا أفكـر فى السـؤال بعمـق فـلا أعـثر عـلى إجابـة .. كأننـى أبحـث عـن إبـرة فى كـوم قـش وجـرنى هـذا .. فى معـرض (أو بالأحـرى جـرن) محـاولاتى للبحـث عـن تلـك الإجابـة لسـؤال أغـرب « هـل يفعـل المصريـون ذلـك خـارج مـصر لأنهـم خارجهـا يكونـون فى حـال مـن التجـرد والتحـرر مـن كل أحـكام العـرف وضرورات التقاليـد ؟! «

ساقنى هذا السؤال إلى آخر أشد غرابة « هل تتحكم فينا التقاليد وما تعارف عله المجتمع إلى هذا الحد «وإلى ماهو أنكى منه" أهى التقاليد فى مصر التى تسير دفة حياتنا حسبما تريد هى لا حسبما تتطلب أسباب الحياة وضروراتها ؟! .. و حاورت نفسى قائلا « إذا كانت الحياة تتطور كل يوم إلى ما يجاوز تلك التقاليد والاعراف وينأى عنها فماذا يحدث للمصرى فى بلده إزاء ذلك ؟ ..

إنه إن حافظ على الأعراف وتمسك بها أو بالأحرى تركها تمسكه من تلابيبه إنفصل بذلك عن ركب الحياة ولم يتقدم للأمام خطوة واحدة .. وإن تركها وتحرر منها أنفصل عن الروح الآخذة بخناقه .. روح الأرض الخصبة التى تسرى فى عروقه وخلاياه الحية مسرى الدم (الأرض المنقولة عبر النيل من المنابع !) .. تاركا أرضه الحقيقية للتصحر شرقا وغربا .. بعد أن كانت فى عصور ماقبل النيل المطيرة واحات فيحاء غناء ! .. قد نقل الله المزن بعيدا عنها لتكبر وتمتد حدودها إلى أبعد مكان يصل إليه فمها طلبا للماء ولما كان ذلك شاقا وعسيرا ويقترن بالعدوان على الأمصار الأخرى عوضها سبحاته رحمة واسعة بالنيل فأنزله من الجنة ليحمل كالكوب فائض المياه التى أغرقت الأرض الجديدة للمزن وفى طياتها فريك تلك الأرض من الغرين والطمى الذى ترسب وصنع الوادى والدلتا ! .. المصرى إذن لا يعيش إلا على أرض منقولة فإن لم تنتقل إليه لأى سبب إنتقل إليها

أو بحث بعد أن ضاقت به عن أرض أخرى غريبة ! .. ألا أيها المصرى لماذا تخاصم أرضك وتتركها شرقا وغربا صحراء جرداء مع أنها ثرية وفيها كافة مستلزمات الحياة أنهار لكن مستترة كخزائن الأرض التى أودعها الله فيها وأخفاها عن العيون .. ولكن هذه قضية أخرى تبعدنا عن موضوعنا وما أنا فيه ! ولنعد لسؤالنا .. ماذا يحدث للمصرى فى بلده وأيهما أيسر لديه التمسك بركب الحياة أم التمسك بروح الحياة ؟! .. سؤال صعب .. أصعب منه أن يقف منه موقف الاختيار وهو عاجز عن الإجابة التى تقرر له أى الاثنين يختر وأى طريق يسلك إذ يسلمه ذلك إلى ضياع وغربة بين بنى وطنه وما أمر الغربة فى الوطن إن تشعر انك غريب ووحدك بين أهلك وذويك .. هذا هو الحجيم الدنيوى الذى من أجله انشئت السرايا الصفراء فى العباسية ونسى الحديث عنه من نسب اسمه عندنا للعلاء المعرى ! وما تنصل منه آخر وقال « دا أنتى « عندهم !

إننا اذن نهجر الوطن إلى غربة أقل مرارة من الغربة فى الوطن وهذه إجابة من الصعوبة بمكان فان حب الوطن فرض علينا نحن المصريين ونفتديه بأرواحنا وأعيننا مهما صار لنا طاردا !

قد كان أسهل من قولى هذا أن اعمل شيالا فى الوطن ولا معنى لهذا الحديث كلما ضاقت سبل الحياة عن الغربة المريرة خارج الوطن

والغربة الأمر فى الوطن ! .. نحن الذين نعقد مسيرة ركب الحياة بالقول أن الركب منفصل عن الروح وهما فى الواقع بمثابة العقل والقلب فى الجسم الحى .. وإذا كانت المدنية والحضارة (وهى من العلم) ركب الحياة وعقلها المفكر .. والأعراف والتقاليد (وهى من الدين) روحها وقلبا النابض فكيف نقول بانفصال العقل عن القلب والحياة عن الروح ؟! .. أليس الاثنان وجهان لعملة واحدة ؟ .. أمن الممكن أن تستمر الحياة بدون أحدهما وإذا كانت الإجابة لا .. فما معنى هذا التمزق فى الروح الذى يشطر المرء منا نصفين ؟! .. ولكن أما كان أسهل أن اعمل شيالا فى الوطن ؟! .. ها انذا أعود ثانية إلى السؤال وأنا غارق إلى الرمق فى هذا التيه الذى انسقت إليه سوقا فى محاولة البحث عن إجابة .. ولكن لم يتحتم دوما إلقاء الأسئلة والبحث عن الإجابة .. إن الحقيقة الكبرى أننا خلقنا لنعبد الله وأن يكون العمل أحد محاريب العبادة وسواء أكان هذا المحراب فى مصر أو فى ايطاليا فإن أرض الله واحدة .. نحن البشر دوما فى صلاة عابدة ويستوى الأمر فما يتغير المضمون الخالد بتغير الزائل من شكل المكان أو الزمان أو الإنسان .. والآن أكرر أليس الاسهل أن أعمل شيالا وحسب دونما تفكير .. دونما صوت .. دونما رغبة فى سؤال .. دونما أمل فى إجابة !

وصل البولمان إلى المحطة هبطنا صامتين .. مشينا صامتين .. اشترينا

خبـزا .. دخلنـا البنسـيون فى صمـت .. ألقيـت جسـدى المنهـوك عـلى السريـر فى صمـت .. اسـتغرقنى النعـاس مـن شـدة التعـب مـن عـصر يـوم السـبت المتمـم للأسـبوع الأول .. إلى صبيحـة اليـوم التـالى الأحـد يـوم الراحـة مـن العمـل فى كل أرجـاء إيطاليـا .. حمـدت اللـه لتلـك المناسـبة فـإن يومـا مـن الراحـة بعـد هـذا المجهـود المضنى الـذى أوشـك أن يمرضنى طـوال الاسـبوع لهـو أمـر حيـوى بالنسـبة لى .. وقـد جـاء فى أعقـاب تجربة أول يـوم لى والأيـام التاليـة .. تجربـة أول يـوم تضـع المـرء عـلى منضـدة الامتحـان .. تجـارب الأيـام التاليـة تعنـى انـه يواصـل مسـيرته ..انـه لـن يرسـب ويقـف محلـك سر هـذه الوقفـة التـى تؤخـرة وترمـى بـه فى قسـوة إلى وهـدة الفشـل وبـئر الخـذلان .. قـد جـاء يـوم العطلـة أهـلا بـه وسـهلا فى واد الراحـة أبـان وقـت الامتحـان الـذى لم يكـن قـد انتهـى عـلى الرغـم مـن اننـى افلحـت فى المقاومـة والاسـتمرار لمـدة أسـبوع باكملـه .. ربمـا لحسـن طلعـى ولدعـوات الوالديـن لى ..

وذكـرنى حسـن الطالـع والنـور الـذى يمـلأ الكـون فى الخـارج وأراه يتسـلل مـن خـلال ضلـف بـاب « الفرائـدة « بالوالديـن وأنـا منسـدح عـلى ظهـرى عـلى السريـر .. وبـأن الأوان قـد آن كى اكتـب رسـالة الآن لأبى كى اطمئنـه واطمـئن امـى عـلى وجـه الخصـوص وجميـع أفـراد اسرتى بوجـه عـام عـلى اننـى بخـير وفى أحسـن حـال .. نعـم لامغالطـة فى ذلـك أو تهويـل فأنـا امتلـك غرفـة وسريـرا وكسـبت أمـس خمسـة عـشر ميـلا لـيرة مـن عـرق

جبيبى فوق ما كسبته فى الأيام السابقة وصحيح أن هذا العرق كان غزيرا حتى أوشك أن ينتهى بافراز الدم .. بيد اننى فى الحقيقة كسبت كثيرا وهذه كلها أخبار سارة حبذا لو طارت فى خطاب إلى اهلى ووطنى ..

تحركت من رقدتى أروم الهبوط من فوق السرير وفى الحال شعرت بجميع عضلات جسمى تؤلمنى وتجذبنى ثانية إليه على الرغم منى .. أرجأت أمر الرسالة وأى أمر آخر يعن لى يتطلب مغادرته إلى وقت آخر .. صحا كمال من نومه فتبادلنا سويا وفى وقت واحد تحية الصباح التقليدية وسألنى عن حالى الآن فطمأنته إلى اننى بخير .. خرج من الغرفة قاصدا دورة المياة .. تناهى إلى سمعى صوته وهو يتبادل تحية الصباح مع من عساه قابلهم فى الطرقة فتوالت التحيات وهمهمات الصباح فى الخارج حتى أيقنت أن جميع من بالبنسيون صحا .. ومن ثم سيخرجون معا بحثا عن التسلية والمتعة فى نزهة يوم الأحد فيما عداي .. سأبقى وحيدا حتما إن لم أقم من نومى .. اشعرنى هذا الخاطر بالتوتر فإننى إن مكثت وحيدا فسيحيرنى الفكر وتنوشنى الوساوس وتضللنى ! .. الافضل أن اتحامل على نفسى وأغادر الفراش ما أنا بمقعد أو مريض .. وقد كان وبارحت الفراش متوقعا أن يرجعنى الألم أو تخذلنى القدم غير اننى لعظم دهشتى ألفيت أن الالم هذه المرة وإن كان موجودا وبقوة ولكنه أقل إيلاما من المرة

السالفة .. تشجعت وتناولت المنشفة وبارحت الغرفة إلى دورة المياة شأن كل من فى البنسيون .. بل من فى كل أرض تشترك مع إيطاليا فى الصباح ! .. عدت إلى الحجرة بعد أن قضيت الحاجة واغتسلت .. أعددت لنفسى افطارا بسيطا من الخبز والبيض الذى أشار على كمال أن اسلقه مستعينا بأدوات مطبخ السيدة « لوتشانا « صاحبة البنسيون التى لم تمانع ورحبت بأداء تلك الخدمة لنا .. افطرنا سويا أنا وكمال ثم جاءت الرغبة الصباحية المعتادة فى احتساء الشاى .. كان الشاى والسكر موجودين ولكن لا يوجد « براد أو كنكة « ولا اكواب أو فناجيل ..أشار على كمال ثانية أن نستعين بأدوات صاحبة البنسيون التى لم تمانع ورحبت بأداء تلك الخدمة لنا بصدر رحب ! .. أتى باقى الأخوة فى البنسيون وامتلات الغرفة بهم فانتشر على الفور جو من دفء الصحبة ومرح الشباب .. استشعرت ألفة وحرارة وابترد صدرى ولانت جميع عضلاتى واخذتنى لذلك صحوة جسدية ونشوة روحية وصفا ذهنى وأصبحت فى ذروة من الانتعاش .. احتسينا الشاى جميعا وقررنا أن نتشارك أنا وكمال فى شراء « براد كهربي « لصنع الشاى وسلق البيض ! ثم تذكرنا أن اليوم عطلة باستثناء بعض المطاعم ومحال بيع السجائر واللوازم الشخصية تلك المعروفة فى مصر بمحال بيع الخردوات ويسمونها بإيطاليا « تباكى « ومفردها « تباكايا « فلم نجد بدا من إرجاء أمر الشراء إلى اليوم التالى .. لكننا

لم نرجىء أمر الخروج للنزهة .. من البنسيون خرجنا نتساءل إلى أين العزم !؟ .. اقترح احد الرفاق قائلا :

- إلى نهر البو فهناك حدائق تعمر بالخمائل الجميلة والمماشى المزدانة بأحواض الأزهار ونافورات على هيئة تماثيل وأخرى مثبوتة .. تارة بين أحضان الأشجار وتارة فوق ربى ظليلة ينحدر منها الماء فى درج صناعى من الأحجار أشبه بشلال صغير !

صاح صائح :

- وهناك أيضا المتحف المصرى !

هتف ثالث :

- وهناك قلعة قديمة تعرض فى ابهائها وقاعاتها نماذج للحياة فى القرون الوسطى !

غمغم رابع :

- وعلى مقربة من هذه القلعة مبنى يشبه فى عمارته مبنى جامعة الدول العربية بميدان التحرير ! إلا أنه دوما مغلق وربما يكون أحد قصور الملوك البيمونت !

وأردف الخامس :

obeikandl.com

- وعلى امتداده حديقة خاصة تدخلها برسم دخول وهناك ترى متعة من نوع آخر فى ملهى وكازينو هذه الحديقة التى لا يقدر على مصاريفها إلا الاغنياء !

سألته فى لهجة رتيبة لمجرد الاشتراك فى الحديث :

- وحديقة الحيون أين ؟

أجابنى احمد فاضل :

- هذه تقع فى مكان بعيد .. بعد أن تعبر القنطرة التى تمتد من ميدان كاستيللو ! .. يقابلك كورسو تمشى فيه يسارا فتجد حديقة تمثل كورنيش البو وفى جزء من هذه الحديقة تجد حديقة الحيوان ! .. وإن مضيت فى السير قليلا فسترى على الناحية الأخرى ستاد نادى ليفنتوس الشهير ! قبل أن ينحرف الكورسو يمينا لطريق الاسكندرية !

ولما أطلنا الحديث صاح مجدى :- ما يجمل بنا أن نثرثر على هذا النحو ونحن وقوف فى الشارع أمام البنسيون فتفسد متعتنا هيا بنا نسير ولندع أنفسنا نمشى على هواها بغير اختيار وكل ما يقابلنا فى الطريق ننظر إليه ونتأمله !

بدنا المسير فاجتزنا شارع الأمير توماز و ثم عرجنا إلى اليمين فى كورسو فيتوريو ولفت نظرى هدوءه البادى وقلة الحركة ولاسيما حركة السيارات التى تمشى فيه ولم أكن بحاجة لأن أسال عن سر ذلك

obeikandl.com

لعلمى أن الإيطاليين يبارحون المدينة إلى الضواحى الريفية الخالية فى بكرة الصباح .. وأننا لو كنا قد بكرنا قليلا لرأينا زحام السيارات المتوجهه لخارج تورينو على أشده ..

***

مضينا نمشى الهوينى وهدوء الشارع ومنظر الشجيرات المتراصة فى صفوف على جانبيه وتلك الجزيرة التى تتوسطه وتقسمه إلى نصفين والمبانى التى حافظ أهلها على طابعها القديم يلهم سحر الماضى وعبق التاريخ .. ولسبب ما هيىء إلي أن قبة السماء الزرقاء أقرب لسطح الأرض مما ألفته فى مصر .. ربما لما كنت استشعره آنذاك من سكينة النفس وراحة ضمير وقدرة على اختيار ما افعله وعلى فعل ما اختاره .. وبنات الجنس اللطيف تتراشقن فى ثياب أنيقة تزيدهن فتنة وسحرا وسيطرة على حدقات الأعين ومجامع الافئدة فى هذا الشارع أو على الأصح فى هذا المعرض للحياة الذى يتصل ببعضه اتصالا فحيثما ترجع البصر تطالعك الأشياء على طبيعتها فاتنه نظيفة تآلفت فيها فطرة الطبيعة وصنعة الإنسان ..

- ياللـه .. ماذا حدث لى حتى أرى كل شىء جميلا كل هذا الجمال .. تساءلت فخطر فى ذهنى على الفور قول الشاعر « كن جميلا ترى الوجود جميلا « واسلمنا المسير فى نهاية الكورسو إلى تقاطع شارع

آخـر مـا خطونـا فيـه إلى اليمـين حتـى واجهتنـا مجموعـة ممتـدة مـن القصـور الفخمـة التـى شـيدت عـلى الطـراز الحديـث مظهرهـا لأول وهلـة ينبـىء عـن مـدى ثـراء أصحابهـا ويعطـى فكـرة سريعـة عـن مـدى هـذا الـثراء الـذى يتمتـع بـه الاغنيـاء فى هـذا البلـد .. ونظرنـا عـبر الشـارع إلى اليسـار فوقعـت أبصارنـا عـلى الحديقـة التـى اسـهب صاحبنـا فى وصفهـا التـى تقـع عـلى الضفـة الغربيـة لنهـر « بـو « .. عبرنـا الشـارع .. ألقينـا بأنفسـنا فى طلاقتهـا الشاسـعة .. أخذنـا نجـرى متنفسـين هـواء نقيـا منعشـا كالاطفـال الصغـار .. جلسـنا فى شرفـة ممتـدة مـن الحديقـة إلى داخـل النهـر عـلى مقاعـد خشـبية قويـة مطليـة بلـون الخـضرة الشـائع فى المـكان .. مضينـا نثرثـر فى بعـض شـئوننا .. نتأمـل صفحـة النهـر الـذى ينسـاب المـاء فيـه هادئـا رقراقـا والعصافـير تغـرد فـوق غصـون الأشـجار وتتراشـق هنـا وهنـاك متنقلـة بـين أفيائهـا الحانيـة فى هنـاءة وحبـور لا يدانيـه إلا هنـاءة أنفسـنا بمـا نشـهد مـن مناظـر يؤلـف بينهـا نسـق جميـل يجـذب العـين ويسـتروح النفـس فـلا تملـك إلا امعـان النظـر إليـه تسـتحلب مـا فيـه مـن سـحر خـلاب .. ونهضنـا مـن جلسـتنا وتماشـينا إلى المتحـف المـصرى الـذى كان قائمـا بالقـرب منـا فالفينـاه مشـيدا وسـط رحبـة زهـراء يسـتقبلك فى مدخلـة تمثـال مـصرى يتوسـط « فسـقية صغـيرة « وقـد حمـل فى يـده فـوارة يتسـاقط منهـا المـاء .. نالنـى الـرذاذ فلـم أبـال .. وجدنـا بابـه مفتوحـا وبـلا حـارس دخلنـا وكلنـا فضـول إلى

ما سنراه معروضا من تحف أجدادنا .. توقعنا أن نرى ما يعبر عن حضارتنا العريقة ولكننا لدهشتنا (ولعل مرد ذلك الصورة المطبوعة فى أذهاننا عن المتحف المصرى بالقاهرة) وجدنا أننا أمام عدد من قطع هذه الاثارة الخالدة معروضة بطريقة رائعة تجعلها كثيرة بمعانيها وإيحاءاتها وتذكرنا ماتزخر به المخازن وما تنخره الرطوبة وعوامل التعرية فتساءلنا لم لا نوزع فائض هذه الأثار التى اضطررنا لتخزينها طالما أنها تراث لنا ولكل الإنسانية على جميع دول العالم لعرضها بما يحافظ عليها ويطيل عمرها .. مافائدة خزننا لها محبوسة لا رأيناها ولا سمحنا لغيرنا برؤيتها .. ماذا يغير ذلك من إنتسابها لحضارتنا .. إنها مصرية فى أى مكان تعرض فيه وفى هذا المزيد من المعرفة وارتباط الشعوب بنا فضلا عما يخلعه علينا من عزة وبهاء وفخار !

كان ما رأيناه لا يخرج فى إجماله عن بعض الأوان الفخارية والمقنيات الشخصية غير المترابطة لكنها معروضة بطريقة توحى بأننا أمام محتويات مقبرة كاملة بتماثيل متنوعة أبرز مافيها أنها تبدو وكأنها لصاحب المقبرة الذى يجمع بينها .. ثم نماذج تماثيل لبعض ملوك العصور القديمة وتمثال للإله « رع « وآخر لفلاح يمسك منجلا .. وثالث مقلد للكاتب الشهير بريشته وجلسته الأبدية ! .. ,آخر لرجل وامرأته يقفان جنبا إلى جنب وبينهما طفل صغير لم أستطع تحديد

مـا إذا كانـت هـذه التماثيـل تعـود إلى شـخصيات فرعونيـة شـهيرة أو غـير معروفـة .. فقـد اختلـط هـذا الاعتبـار عنـدى مـع ماكنـت اشـاهده كل مسـاء تقريبـا فى التلفزيـون بموطنـى مـن إعلانـات تنظيـم الأسرة ! .. ولـولا هـذا الحنـان المميـز للشـخوص فى التماثيـل المصريـة القديمـة بـين الرجـل والمـرأة والأبنـاء والمتمثـل فى الأيـد المتشـابكة الأنامـل وفى نظـرات الأعـين المختلسـة فى الغفلـة ! لظننـت أنهـا لأسرة حديثـة فى إعـلان عـن تنظيـم الأسرة فعـلا ! .. وكـما أسـلفت كل هـذه المعروضـات عـلى بسـاطتها تعـرض باسـلوب فنـى يعكـس طبيغـة الـروح المـصرى الهـادىء فى وميـض الخلـود !

خرجنـا مـن المتحـف المـصرى الـذى أرانـا التاريـخ فى أبـدع صـورة هـى مثـال للوحـدة والترابـط والتواصـل والتكامـل الإنسـانى داخـل صناديـق مـن الزجـاج إلى متحـف الطبيعـة البـاذخ فى الحديقـة الغنيـة بالهـواء الطلـق الـذى أرانـا الحـاضر فى حيويـة الحيـاة نقيـا .. صافيـا .. صـادق المظهـر بـلا زيـف أو افتعـال كـما لـو أننـا أمـام متحـف آخـر !

وتسـايرنا فى كافـة أرجائهـا نصعـد ربى مزدانـة بالخمائـل ونبـط درجـات تحـف بهـا تماثيـل تميـل عليهـا حتـى تـكاد أن تلثمهـا زوائـب الأشـجار بـين الظـلال إلى أن بلغنـا تلـك القلعـة الحصينـة التـى شـيدت عـلى ضفـة النهـر وقـد امتـدت منهـا شرفـة فسـيحة وضعـت بهـا مدافـع قديمـة

هرمة ترمق صفحة المياه المنبسطة أمامها بنظرة متجهمة لولا مافيها من تهالك لكنت قد استشعرت فيها الزهو والاستعلاء ! .. ولتخيلت أنها ماتزال تقوم بواجها فى الدفاع عن الحصن الذى كان يبدو متينا قويا كشيخ طاعن فى السن حافظ على شبابه .. فحافظ شبابه على شيخوخته !

وانتقلنا إلى داخل القلعة من فتحة صغيرة عالية فرأينا كثيرا من الدهاليز والطرقات .. شبكة متواصلة وآخذه فى التقاطع والالتفاف « كبيت جحا « حتى اننى وقد دخلت من دهليز وتعمقت السير فيه التف بى أو اسلمنى إلى آخر ومن دهليز إلى دهليز أو سرداب حتى وجدت نفسى أخيرا واقفا بالباب من حيث بدأت ..

كان الظلام كثيفا داخل القلعة وهناك كثير من الأبواب المغلقة ومن تحذيرات الدخول فآثرنا السلامة وخرجنا دون أن نرى شيئا وفى وعينا أن هذا لم يكن منتهى ما يحويه الحصن من أثار وطرائف تاريخية .. جلية الأمر فيما بدا لنا ببساطة أن الحصن كان مغلقا أمام الزوار لبعض ترميمات وتجديدات به فلم يتحفنا حظنا برؤية ما وراء الجدران والأبواب وما تفضى إليه السلالم وكل أولئك كثير !

عدنا للطواف بروضات الحديقة إلى أن واجهنا سياجا التففنا من حوله فأخرجنا منها إلى الشارع ثم إلى ساحة واسعة لا شجر فيها

ولا زهـر .. نظرنـا إلى اليسـار فطالعنـا مبنـى عاليـا ممتـدا عديـد النوافـذ المغلقـة ! .. عليـه جهامـة وجـدة وفى ذات الوقـت وحـدة تلقـى ظـلالا توحـى بأنـه كان لـه شـأن فى الأيـام الخاليـة ذات النجـوم الزاهيـة التـى اندثـرت واحتفـظ التاريـخ بأثرهـا عـلى سـبيل الذكـرى لنفـع ذوى الألبـاب ! .. وثمـة « ونـش عمـلاق « فى جانـب منـه يتجـاوز ارتفاعـه فأدركنـا أنـه هـو الآخـر مغلـق للترميـمات.. مررنـا مـن أمامـه ورؤوسـنا بـكل مـا تحويه مـن اعـين وجـوارح تلتفـت إليـه حتـى اجتزنـا السـاحة الكـبرى التـى يجثـم فى سـكون أمامهـا السـكون كلـه وتعلـوه تلـك المسـحة مـن النبـل والغمـوض .. ذكـرنى منظـره بـأبى الهـول القائـم فـوق تلـك الربـوة عنـد اقـدام الهـرم الأكـبر بالجيـزة وهـو ينظـر إلى بعيـد تلـك النظـرة السـاحرة الممعنـة فى المجهـول ..

- إنما هو مبنى فريدا وحسب فلماذا يذكرنى بهذا الأثر العريق ؟

تسـاءلت متحـيرا ولم ارهـق نفـسى فى إيجـاد إجابـة تربـط بـين مـا أراه حـاضرا وبـين الذكـرى فى مخيلتـى عـن قصـد حتـى لا افسـد متعتـى بالتفكـير فى اللامـرئى واللامجـدى !

وعنـد هـذا الحـد مـن الطـواف لاحـت لأنظارنـا عـلى البعـد مشـارف الحديقـة الخاصـة التـى ورد ذكرهـا عـلى لسـان أحـد الأخـوة .. كان منظرهـا مـن بعيـد يبـدو خاليـا مـن بنـى الإنسـان وإن كان عامرا بالأسـوار

والبوابات المغلقة فاستنتجنا من ذلك أنها لا تطلب إلا فى الصيف وفى ليال هذا الصيف ومنتصف تلك الليالى بالتحديد حين تحدو الرغبة فى اللهو والاستمتاع ويكون جيب الطالب عامرا بالنقود فيسلى نفسه بالبحث عن حلم منتصف ليلة صيف !

وهكذا لم نتعب أقدامنا فى السير إليها واستدرنا عائدين فى خطونا الوئيد المتباطىء نطلب مزيدا من نشوة التطلع والتنسم فى يوم الأحد .. يوم الدعة والترويح الذى بدا فيه أن آل المدينة من رجال ونساء وأطفال قد هجروها كلية غير قانعين بشىء يبعث على المرح والانطلاق فيها .. حتى تلك الحديقة الفيحاء لم تكن بكافية لارواء نفوسهم العطشى إلى التشوف والتجديد فمضوا إلى نواح أخرى خارجها وتركوها لنا نستمتع بها وحدنا إلى حين.. ومنذ حططت الرحال فى إيطاليا عرفت مدى ما يكنه الإيطاليون لها من حب وإعزاز .. وشأن كل محب تأخذه الغيرة الشديدة من اجتراء أى منافس يبغى أن يعلو صوته فوق صوت هذا الحبيب كان شان الايطاليون مع لغتهم الوطنية ..

الإيطاليون مشهورون فى العالم بأنهم يغيرون أسماء الأشياء المستجلبة من الدولة الأجنبية بأسماء وطنية .. ولذلك فى معرض المنافسة التجارية يوصمون دائما بالغش والتزييف .. بينما الحقيقة غير ذلك

تماما فهم لا يقصدون غير أن يتحدث الأجنبى عن نفسه إلى الإيطاليين بلغة إيطاليا .. حتى ماهو أجنبى من أفلام السينما ومسلسلات التلفزيون يقومون بعمل ما يسمى « دوبلاج « لها فيركبون الصوت الإيطالى محل الصوت الأجنبى ..

والواقع أن اللغة الايطالية تستحق هذا وأكثر ! فهى « فتاه الأحلام « إن أردت تشبيها يبرزها عن كافة اللغات الأخرى .. إنها مثل ربوة سوتها يد الطبيعة فى غير تكلف واضفت عليها غلالة رقيقة من نسج الخيال والأحلام وما أولاها بأن تكون بستانا تتناجى فيه القلوب حين يؤلف بينها الحب والهيام ! .. شد ما يطيب لك أن تتمسع إلى اللسان الايطالى وهو ينطق لغته آناء الليل وأطراف النهار .. إنك تتوهم أنه ينطق شعرا منسقا ومؤثثا على وزن دقيق وقافية متجددة كأنها الهواء الطلق لا زيف فيها ولا تصنع ! .. تتسمع فيخيل إليك أن المتكلم يسوق على سجيته معزوفة موسيقية رائعة فتهنأ نفسك بما يقع على صيوان أذنيك من كلمات يؤلف بينها نسق جميل .. وبين الكلمة والأخرى يتكرر حرف يجتذب أذنيك فلا تملك إلا الإصغاء له تستجلى ما فيه من وقع خلاب !

ولعل ذلك راجع إن شئت تعليلا وكما يقول كتاب « التحفة الايطالية فى تعلم الايطالية بغير معلم « والذى كنت دائم المطالعة فيه هذه

الأيام .. إلى أن كل الكلمات الإيطالية أصلا تنتهى بأحد حروف خمسة ساكنة هى :

- A أَ وتنطق مفتوحة كالألف فى طار .

- E أيه وتنطق مائلة بين الفتحة والكسرة كالياء فى غيط .

- I إِ وتنطق مكسورة كالياء فى كثير .

- O أُوتنطق مضمومة ومفخمة كالواو فى روح .

- U أُوه وتنطق كالواو فى أُسوُد .

والآن ماذا تتوقع من لغة كل كلماتها تنتهى " بالآه ! " .. إن كبار المطربين (سيما فى بلادنا) إن أرادوا إلهاب شعور السامعين فإنهم يلجأون إلى " الآه " لإنهاء مقطع غنائى أو يجعلون منها مقطعا غنائيا قائما بذاته .. وفى الزمن الماضى المجيد سمعنا عمن كانت الآه والعين والليل هى كل إنشاده فى سهرته طوال الليل ! .. فكيف حقا بلغة كل كلماتها تنتهى بهذه الآه !

لعمرى ما أجمل هذه اللغة .. إنها تجعل الأصوات جميعها تتهدج فى رقة وحنو كما لم أن أصحابها عن بكرة أبيهم فى خميلة حب !

جالت تلك الأفكار فى مخيلتى وأنا جالس مع رفاق البنسيون فى غرفة احمد ومحمد فاضل موزع الاهتمام بين الفرجة على التلفزيون وبين

كتابة خطابى الأول لأسرتى الذى والحق يقال تأخرت طويلا فى كتابته لأطمئنهم على ما انتهت إليه أحوالى بأوربا .. وما أدراهم ما أوربا .. إنها بأحسن فروض التوجس دنيا أخرى أو مولد غير مألوف لا أول له ولا آخر .. ولابد أننى (بمخاطرة السفر دون الرفيق الذى رسموه مرشدا مثاليا وصمام أمان) بالأقل أهيم على وجهى فى الزحام كالأطرش فى الزفة إن صادفنى توفيقا ! .. إن لم أكن كالمحكوم عليه مجردا من كل شىء وكل وسيلة تبقينى على قيد الحياة !

وما انتهيت حتى طويت الرسالة ووضعتها فى مظروف كتبت عليه عنوانى باللغة الإيطالية وفى نيتى أن أرسله على جناح البريد المستعجل بعد عودتى من العمل بالسوق فى اليوم التالى ..

كنا فى أخريات نهار هذا اليوم تتوالى أمام أنظارنا ونحن فى ذروة الراحة والاسترخاء مشاهد شتى للحياة الإيطالية الزاخرة بالحيوية والنشاط فى مختلف نواحى تلك الحياة .. فمن برنامج رياضى يعرض حصاد الأسبوع من نتائج تبارى أندية كرة القدم فى جميع المدن الإيطالية الكبرى .. إلى آخر غنائى راقص يعرض كرنفالا للشباب فى شوارع مدينة ذائعة الصيت يمثل جميع أطيافها الثقافية والمهنية بنمازج كرتونية أو خشبية مصغرة متباينة التصاميم والألوان تضاهى الأزياء التاريخية أو الشعبية الزاهية الموشاة للمشاركين الذين تخفى

الكثيرون منهم داخل نمازج ضاحكة لحيوانات خرافية أو مألوفة أو لطيور أو لشخوص إنسانية وفى جميع الأحوال يجب أن تكون محبوبة كلها ومعروفة فى القصص الشعبى وحواديث الأطفال .. أو تعرض فرحا شعبيا فى باحة من باحات قرية فيحاء أمام ساحل تحدوه الأساطير .. وقد تراءت لنا فى هذه وتلك جوقة موسيقية فى لبوسها الوطنى المزركش وهى تعزف مقطوعات فولكلورية يتمثل فى ألحانها الطابع الشديد الخصوصية للثقافة والتقاليد الشعبية العريقة وفى ذات الوقت الخيال الذى يميز تناغم وتواصل الأجيال بدبيب أقدام الراقصين وخفة راقصات غاية فى الجمال !

وإننا إذ نتفرج على هذه اللوحات الحية البديعة والمهرجانات البهيجة متفتحى الأعين منشرحى الصدور تهفو أنفسنا إلى القفز من مراتعنا إلى داخل الجهاز لنشارك الشباب فرحه ومرحه وولعه بالحياة يتابع التلفزيون طوافه فيعرض لنا وقتا آخر من حياة آل القرية كاشفا لنا ما هنالك من خبايا الوجه الآخر للحياة .. ولا تكاد العين المصورة تتخطى على هون عتبة إحدى الدور حتى تلقى من يرحب بها من أهلها .. ووقع فى روعى أننا نرى أهل إيطاليا الأصلاء .. زراع ما سلف من الأيام وقد ناموا (نومة أهل الكهف) فى العهود السحيقة ثم فجأة دبت فى جسومهم الروح فتنفس بهم الزمن وأعادهم إلى الحياة فى يومنا هذا .. والعين المصورة تتابعهم وهم يجوسون بنا

الـدار فـنرى حظـيرة تعـج بالماعـز والأبقـار (والخنازيـر بصفـة خاصـة) .. وفى باحـة واسـعة فى قلـب الـدار رأينـا الفـرن المتوهـج بالـدفء والعـمار وقـد أولاه آل الـدار (لأهميتـه بالنسـبة إليهـم) عنايـة فائقـة فنصبـوه فى صحـن الـدار غـير المسـقوف بجانـب الفسـقية تحـف بـه فى دائـرة متكاملـة حوائـط وحجـرات البيـت وشرفاتـه وشـبابيكه الداخليـة ..

اسـتغربنا كثـيرا أن تكـون هـذه الصـورة القديمـة هـى الصـورة المثاليـة وفى الـدار مـن أدوات المدنيـة الحديثـة مـا يغلبهـا ويهيـل عليهـا الغبـار وأسـباب الاندثـار لكننـا سرعـان مـا زايلنـا الاسـتغراب والعجـب لمـا تذكرنـا أن الطبيعـة الإيطاليـة تسـتهويها أدوات ونظـم حيـاة وطـرز أبنيـة الأجيـال السـالفة وأنهـم يحافظـون عليهـا كعيـون ومنابـع تتدفـق منهـا ميـاه الحيـاة الحقيقيـة الحاليـة .. وكيـف أنـه غـير بعيـد مـن الصحـن قـرب المدخـل رأينـا مسـتودعا ازدحمـت بـه أدوات خدمـة الأرض مـن محاريـث وفئـوس ومناجـل وقطاعـات وآلات حصـاد يدويـة وفى مسـتودع ثـان بجانبـه أدوات أخـرى آليـة مركوبـة تعمـل بالوقـود أو بالكهربـاء .. منهـا جـرار مـزود بجميـع أدوات خدمـة الأرض كالمحاريث والقصابيـات وأدوات البـذر والتسـطير والشـتل .. ومنهـا موتـور لـرش المبيـدات والمخصبـات أو حصـادات مقرونـة بـآلات دراس وتذريـة وفصـل الحبـوب عـن القـش كل فى جانـب ! .. إنهـا الميكنـة الزراعيـة بقديمهـا وحديثهـا رأيناه ونحـن جلـوس عـلى الأسرة أو المقاعـد فى تلـك الـدار التـى تجمـع بـين الأصلـة

والحداثـة !

ثـم أننـا رأينـا كذلـك حظائـر الأنعـام مـما يخـص الحمـير والجيـاد إلى جـوار الماشـية والخنازيـر والدجـاج بمختلـف ألوانـه التـى تمثـل أنواعـه .. الأبيـض والأسـود والأحمـر وأخـرى لبوكسـات الأرانـب وماهـو عـلى هيئـة عيـون فى بنايـة غـلى السـطح أقـرب شـبها بـبرج الحـمام .. ورأينـا فى غرفـة منفصلـة بعيـدة ومعزولـة مطحنـا لجـرش الاذرة وطحنـه والقمـح وفـة مـكان قـصى أيضـا أكـثر عزلـة ومـزود بأشـجار مزهـرة رأينـا منحـلا مـن عديـد مـن الخلايـا المبثوثـة فى تبـة صناعيـة يسـهل تفكيكهـا وتحريـك الخلايـا وخدمتهـا ! .. رأينـا كل مـا تقـوم بـه الحيـاة وكأن أهـل الـدار قـد اكتفـوا بأنفسـهم ذاتيـا عـن سـائر البـشر !

وتنتقـل بنـا عـين التصويـر إلى منظـر عـام لباقـى دور القريـة وقـد اصطفـت عـلى مسـافة مـن بعضهـا لا تنفـى الحاجـة لالتـماس أسـباب الجـيرة يفصـل الـدار عـن الأخـرى حديقـة صغـيرة عامـرة بأشـجار التفـاح والعنـب والتـين والزيتـون واللبـلاب وتطـل عـلى شـوارع نظيفـة مرصوفـة ببـلاط مـن حجـر البـازات الأسـود !

و اروع مـن منظـر مبـانى القريـة ومسـاكنها منظـر تلـك المسـاحات الشاسـعة مـن الأرض حولهـا التـى يفترشـها بسـاط مسـتديم الخـضرة مترامـى الأطـراف لا يحـده نظـر .. تتناثـر عليـه هنـا وهنـاك بضـع أكـواخ

صغيرة بنيت هناك لخدمة آل القرية أثناء عملهم بالحقول بالنهار .. وإذا ما اضطرتهم ظروف العمل للمبيت بها ليلا وبين جداول الماء تتناثر الوعول وقطعان الماشية وهى تمرح فى طليق الهواء تحدوها زقزقة العصافير وتغريد البلابل وهديل الحمام !

استهونتى تلك القرية فتحرقت شوقا إليها وفكرت للحظة فى مغادرة تلك المدينة إليها لأحيا بين أهلها بعيدا عن حياة أهل الحضر الصارمة المرهقة لذات النفس والبدن والجيب أيضا !

ويمضى التلفزيون فى جولاته وصولاته فنعود من حيثا بدأنا إلى الرياضة أو الأخبار .. أخبار العالم فى المحطة المركزية لإيطاليا .. أو أخبار تورينو فى المحطة المحلية .. أو غيرها من محطات المدن الكبرى وعواصم المقاطعات ونحن مضطجعون على الأسرة أو متكئون بأذرعنا على ظهور المقاعد أو على بعضنا ونحن جلوس نملأ أعيننا من كافة مشاهد الحياة .. ومن صورها الحية الناطقة وقد ثارت فينا مشاعر وأحاسيس فإذا الواحد منا قد اغنتم خبرة سنوات طوال ومتعة حيوات عراض فى بضع ساعات من يوم أحد بهيج ..

ويـأتى أوان النـوم فنتفـرق إلى حجراتنـا وقـد تواعدنـا عـلى اللقـاء فى الرابعـة مـن صبـاح اليـوم التـالى حيـث نأخـذ سـبيلنا إلى سـوق الجملـة الكبـير الـذى أصبحـت أعمـل لنظامـه فى العمـل وصرامتـه وإرهاقـه ألـف حسـاب فقـررت انتقـاء العمـل المناسـب لى بمـا ذلـك أنـواع الصناديـق التـى احملهـا وأنـواع " عربجيـة الكاريلـلات " أيضـا !

لكنـى عندمـا فكـرت بأننـى لسـت إلا مجـرد شـيال لا يتـاح أن ينتقـى نوعيـة الصناديـق التـى يشريهـا أو يأمـر بإنزالهـا أو تحميلهـا صاحـب العمـل .. إن كان مالـكا لمحـل جملـة بالسـوق أو مقـاولا للشـيالين أو صاحـب كاريللـو سـاورنى القلـق والخـوف مـن هـذا العمـل الإجبـارى الشـاق الـذى يتحتـم عـلى أن اقـوم بـه كل يـوم وإلا مـت جوعـا ..

احتـوانى هـذا القلـق بـل امضنـى بمختلـف الأفـكار السـود فنمـت أرقـا مسـهدا اتقلـب طـوال الليـل عـلى فـراشى .. إلى أن جـاءت اللحظـة الحاسـمة ودق جـرس المنبـة دقاتـه العاليـة المتواليـة التـى نفـذت مـن صميـم اذنى إلى عقـر رأسى فملأ هـذه الأذن صخبـا وهـذه الـرأس انتباهـا ويقظـة وتركيـزا .. وتسـلل إلى اعصـابى الخـدر النابـع مـن شـعور باطنـى أليـم بالرعـب والحـيرة وسـقوط الأمـور التـى لا مهـرب منهـا فى الأيـد العاجـزة عـن أى حيلـة .. وشـعرت بهـذا الرعـب يقفـز قفـزة رهيبـة

مفاجئة إلى تجويف بطنى فتقلصت وتلوت أحشائى وتوهمت اننى على وشك القيىء فانتفضت من الفراش قاصدا ذلك الحوض فى دورة المياة .. وهناك وضعت وجهى ولكنى لم أتقيا غير الهواء وعبث الأوهام المخاوف التى تلاعبت بى تلاعب القط بالفأر قبل أن يهجم عليه ويفترسه !

وسالنى احد الرفاق لدى خروجى من المرحاض قائلا :

- مالك ؟

أجبت وأنا أدارى حقيقة ما اشعر به عنه باغراق وجهى بالماء متظاهرا بأننى أغتسل :

- لا لا شىء إنما فى الجو هنا خارج الغرفة برودة قارسة !

ويبدو أن الماكر قد عجم اعماقى فألم بحقيقة ما اشعر به إذ قال مبتسما :

- والبرودة فى الخارج أشد قرصا !

وتكفل الغيظ الذى اشعل حرارته فى عروقى ببعث هذا العزم المفقود وتلك الإرادة المحطمة .. رفعت وجهى عن الحوض ,, اوشكت أن اصرخ فى وجهه " أقصد الوصف لا الفعل ! " معبرا عن ضيقى وكمدى وتبرمى .. لكنى امتلكت زمامى فى اللحظة الأخيرة وبصعوبة

obeikandi.com

ابتلعت صرختى .. خرجت من الحمام فى سرعة وأنا لا انظر إليه ولا ألوى على شىء .. أطلق الخبيث ضحكة طويلة ذات اذيال فى أعقابى .. اشتد غيظى وموجدتى مستجمعا بحرارة كل ما فى بطنى من عناد وهمة .. استشعرت الدفء والحيوية والنشاط .. ارتديت ثيابى فى سرعة حتى كنت أول الذين استعدوا للخروج .. جلست على فراشى أنتظر من يدعونا جميعا لذلك وأنا أتبلغ ببضع لقيمات لتغيير " الريق " وإقامة بعض الاملود ..

ومضت الدقائق كأنها هنيهات ودعا هذا الداع مناديا :

- جماعة .. ياللا ياجماعة !

بلا كلمة مشجعة من أحد منا أكثر تحملا وصلابة كان خروجنا .. لفحنا من برودة الفجر المفتوح على السلم إحساسات دغدغت أعصاب وجوهنا وأطرافنا لنهبط منه إلى البوابة الخارجية فالشارع على عجل .. تلقفنا فى الحال البرد الشديد بين أذرعه المتجمدة القاسية .. ضمنا إلى صدره الثلجى ضمة العنقاء الزرقاء لصغارها الأحباء قبل أن تقضمهم قضما بأسنانها لحما وعظاما وتبتلعهم فى بطنها حماية وحبا !

انحرفنا إلى اليمين بعد البريسو مباشرة واعيننا جميعا تتعلق بذلك النور الذى يتبسم لنا من ثغر الممر فى نهاية الشارع بسمة محب

مجبول على محبة مثال الجندى المجهول .. اجتزناه قفزا وعدوا لندفئ أنفسنا ومازلنا نقفز ونعدو فى عرض الشارعين الخلفيين وعرض حالنا ليرفق بنا الجو إلى أن بلغنا محطة الترام لحظة وصوله فوثبنا نلتمس الدفء فى باطنه .. ليحل قفز الكلام على الألسن والشفاه محل القفز فى البرد الذى لاحقنا بسفح الرياح فى زجاج النوافذ والصفير ليفهمنا أنه مهما نفدنا بجلودنا منه فعما قليل نهبط ونجده بانتظارنا على الرصيف !

وقد نفذ وعيده لما هبطنا ونحن نرتعد إشفاقا وفرقا ! .. هذا المتحجر القلب ! .. ومازلنا نرتعد بين حبائله ونحن نهطع فى الشارع الذى أفضى للميدان الكبير ثم إلى بوابة السوق الرئيسية ومنها لصفوف الكاميونات بساحة التنزيل حيث وقفنا فى زمرة الواقفين فى إنتظار إشارة " تونينو " لنصعد لشمس العمل التى تشرق فى خلايا أجسامنا ونستدفىء بمجرد بذل الجهد .. كنا نتربص لمجىء دورنا ونحن كمن يقف على جمر النار أو يمشى " محلك سر " فى مكان وقوفه من البرد الذى كان يشع رطوبة غير مرئية تنخر منعكسة عن أرضية الساحة الأسفلتية الصلدة فى كفوف أقدامنا ومؤخراتنا بما فيها من لحم وعظام ! .. فضلا عما كنا نفقده من دفء بالتفس وإخراج الزفير محملا بالأبخرة الحارة فى خلاء المكان ! .. ولم تفلح محاولات البعض من الشيالين الذين لجأوا لبعض ألواح متكسرة من أخشاب

الصناديـق فأوقدوهـا إلتماسـا لبعـض الـدفء مـما يخـرج مـن ألسـنة اللهـب .. ورحـت أتأمـل الفـارق الكبـير قـى حالـة الطقـس وأقـول لنفـسى وغـيرى :- شـتان مـا بـين بكـرة صبـاح أمـس الخريفـى وبكـرة صبـاح اليـوم الشـتوى .. لقـد حـل بـرد الشـتاء بغتـة دون سـابق إنـذار ! عـلى أننـى يجـب أن أعـترف أن طالعـى كان حسـنا فقـد وقـع عـلى الاختيـار وأمـرنى المقـاول بالصعـود لكاميـون أشـار إليـه بطـرف أنملـه الحبيـب الـذى يسـتحق التقبيـل ! .. وصعدتـه واثبـا كالقـرد ! فطالعتنـى تـوا صناديـق لعنـب الأكل والتـين والطماطـم الخفيفـة الـوزن .. فرحـت وانخرطـت فى معـترك العمـل أعمـل وأثنـاء ذلـك ألتهـم بضـع حبـات مـن العنـب أو ثمـرة تـين أو طماطـم وكلى رضى وولـع بهـذا العمـل الـذى يتيـح للعامـل أن يفطـر أحـلى إفطـار وبـلا شىء يدفعـه ! .. وهـذه الأخـيرة وحدهـا تغـذى وتمـلأ كل الجيـوب وتلهـم الـدفء فى هـذا الـبرد الـذى لا يرحـم ضعيفـا أو فقـيرا أو مغتربـا !

ومـا انتهـت نوبـة العمـل الأولى كالعـادة فى السـابعة تمامـا وتناولـت الأجـر حتـى قوجئـت بالمقـاول يسـتبقينى لدهشـتى للعمـل لديـه نوبة أخـرى ..

كان فى هـذا دليـل واضـح عـلى أننـى أجـدت العمـل وتميـزت هـذا الصبـاح .. ولابـد أن ذلـك جـاء بنـاء تزكيـة مـن أحـد تابعيـه الذيـن يلاحظـون العمـل عـن كثـب .. وقفـت فى صـف الشـيالين المحترفـين أنتظـر امـرا آخـر

للعمل وجاء أحد أتباع تونينو وكان رجلا متقدما فى السن قليلا دو ملامح تنم عن الطيبة والجد فى الوقت ذاته وأمرنا بأن نتبعه .. تبعناه فى صمت .. قطعنا معه عرض السوق إلى الناحية الأخرى حيث رأينا ثلاثة كاميونات كبيرة تمتلىء من مؤخرتها إلى مقدمتها ومن أسفلها إلى أعلاها بصناديق عنب الفينو الأسود !

أسقط فى يدى وأنا أقول لنفسى " قد بذلت جهدى حتى برز عملى والتماعى القائم عل قوة دفع وافدة من خفة وزن الصناديق الخفيفة ! لتكون تلك الثقيلة التى تقطم الظهر مكافأتى وجائزة تميزى ! .. ماذا أفعل ؟ .. أأعتذر معترفا بقدر نفسى فيرحمنى الله ولا يرحمنى عبده تونينو ! فأخسر ثقته وأسقط من اعتباره فيتجاهلنى حين أقف أمامه فى الأيام القادمة .. أم أكابر خادعا نفسى وكأنها لعبة على حساب طاقتى البدنية المحدودة فيصيبنى ما أصابنى فى اليوم الأول من تعب إستنفذ مخزون العرق للدم !

وأملت نفسى بأننى صرت من خبرة الشيالة على تمكن يخفف وزن المشال ! .. وأن ما حدث لن يتكرر ثم أنه لاخيار لى وعلى أن آنهض بتبعات تميزى .. الثقة ثمنها غال ولن يتسنى لى دفع ثمنها ثانية فإما أن أقف فى صف الشيالين المختارين أو أسجل فى قائمة المنوعين الصعاليك .. أو من يشركهم المقاول فى العمل اضطرارا حين يضغط حجم العمل وقلة المعروض من العمال ..

وتماديا فى فى طمأنة نفسى إستعنت بآراء علماء النفس والتنمية البشرية التى توصى باستدعاء الطاقات والدوافع النفسية الكامنة الإيجابية التى تتجاوز الطاقة الجسمانية العضلية المحدودة وكيف أننى امتلك الكثير منها وهى كامنة فلم لا استنهضها من سباتها واستغل مكنون ما بها من طاقة إلى أقصى حد ممكن .. أنا لا خيار لى! .. لا خيار لى .. لأعمل .. لأعمل !

وصعدت إلى الكاميون كما يصعد المقاتل المغوار ظهر المحن مضحيا بروحه وحياته رافعا علم بلاده .. ولا أدرى لم تذكرت فى تلك اللحظة ما كنت قد سمعته عن بساله الجنود فى حرب أكتوبر رمضان المجيدة .. وبالتحديد من كانوا ذخيرة لما سمى آنذاك اللحم يطارد الحديد ! .. حيث كان الجندى منهم يواجه الدبابة بصدرة الملىء بالمتفجرات فتدهمه الدبابة وينفجر معها .. أو يطاردها بمدفعه ويصيبها فى مقتل أو يعتليها مسقطا فى كوتها إلى داخلها قنبلة تنفجر بعد لحظات من وثبة بعيدا عنها .. أو قبل ابتعاده فتنفجر وينفجر هو الآخر وتتطاير أشلاؤه بددا .. قد كان من المسلم به فى العرف العسكرى أن وظيفة الدبابة هى مطاردة المشاة ولكن تغيرت المسلمات والأعراف فى تلك الحرب المجيدة فالمشاة هم الذين كانوا يطاردون الدبابات ويقلبون المفاهيم رأسا على عقب ..

لا أدرى لم جال هذا بخاطرى فانكببت على صناديق عنب الفينو أرفعها بعزم هؤلاء الجنود الذين نالوا إعجاب شعوب الأرض قاطبة .. وأنا الآن هنا فى هذا المكان مثلهم .. فكيف يكون المثل أقل اقتدارا من الأمثولة .. ومازلت بالصناديق أرفعها وأحملها مستلهما ذاق وبسالة أبطال حرب أكتوبر إلى من يتناولها منى .. وصندوقا بعد صندوق ورصة بعد أخرى انتهى الكاميون .. وقفزت منه إلى الكاميون المجاور متقدما جميع الشيالين وأنا أحثهم على السرعة كى ننتهى وفى الحقيقة ما كنت أعنى إنجاز العمل بسرعة بقدر ما أعنى " قبل أن ينتهى ويأقل نجم هذا العزم الذى أنرته لنفسى من الدوافع النفسية الباطنة " .. وفوجئت بالكاميون الثانى يفرغ وكأنه سحر ساحر ما وقع .. وبعين الطريقة انتقلت بهم إلى الكاميون الثالث فأنهينا عليه أيضا!

والغريب اننى جئت عند آخر صندوق ووضعت سلاحى مفسحا الفرصة لثغرة ينفذ منها ضعف الهمة والخور وكأن هذا العزم المكتسب قد خاننى وهرب منى فلم استطع تحريكه من مكانه وانتصبت فى وقفتى ألهث وأتصبب عرقا وسألنى أحد الشيالين الإيطاليين الذين كنت قد بدأت بعض الشىء بعض لغتهم ما بى فنظرت إليه دون أن انطق حينئذ وكان فتى طيبا وكريما جاء إلى وتناول الصندوق بدلا منى وهو يهمهم بكلمات لم افهمها تماما

ولكنى خمنت اننى حزت إعجاب الجميع إلى آخر صندوق .. وان من حقى ألا أبالى.. نزلت من مكانى وأنا أقدم رجلا واؤخر أخرى ..

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة .. وإذن فقد عملنا هنا أكثر من ثلاث ساعات واتجهت إلى حيث يقف المقاول وحين مددت يدى اتناول أجرى منه نظر إلى نظرة تنبعث منها انوار الرضى والاعجاب وسالنى عن اسمى فاخبرته بالاسم المصرى .. وكان فيما يبدو اسما من الصعب على اللسان الايطالى نطقة فنطق مرددا اسما آخر وهو يتساءل : - ميمو ؟!

فاجبته وقد ثار فى نفسى الاعجاب بهذا الاسم المجيد مقررا أن اسمى نفسى به من الآن طالما هو مستنبط من اسمى وطالما أن اللسان الايطالى ينطقه بسهولة .. قلت : - اجل ميمو !

ونقدنى اجرى سبع ميلا ليرى إيطالية كاملة فضلا عن الخمسة الأخرى التى نلتها فى نوبة العمل الأولى وابتعدت عنه فى سرعة لادارى فرحتى فسمعته ينادى على بأعلى صوت قائلا : - أنت .. ميمو .. موعدنا بكرة الغد لا تنس !

فتوقفت وأومأت له برأسى مشيرا بيدى أن نعم .. وفى الحال كنت قد مضيت بعيدا وأنا ألهث مخترقا جموع الكاريلات والجرارات التى تجر المقاطير إلى حيث موقف الكاريللو بجوار البار ..

وهناك تقابلت مع كمال واحمد فاضل حيث كانا قد انتهيا لتوهما من نوبة عمل وفى انتظار الاخرى وسألتهما عن باقى الأخوة محمد فاضل ولطفى فأخبرنى بأن الأول يعمل مع الإطالى المتشبه برعاة البقر الامريكان والآخر يعمل مع عربجى آخر ثم ما لبث أن جاء أحد العربجية إلينا يدعو أحدا منا لمرافقته للعمل وكان يدعو وهو ينظر إلى كما لو كان قد وقع اختياره علي لمعاونته .. طواعية تنازلت عنه لكمال إلذى صعد معه وهو يحدجنى بنظرة لا أدرى لم أحسست بها تحمل معنى التململ وعدم الرضى وربما الحسد !

وقفت مع احمد وأنا اتابع بناظرى ابتعاد الكاريللو بكمال واثناء ذلك قلت بلهجة من الفخر :

- قد عملت هذا الصباح عملا طيبا ..

جاوبنى احمد فاضل قائلا :

- لاحظت ذلك حال وقع اختيار تونينو عليك من دوننا .. مبروك النجاح والثقة.. نظرت إليه وأنا ارسم ابتسامة قائلا :

- شكرا ثم اننى كسبت أيضا اسما جديدا !

سألنى بفضول واهتمام :

- وهو ؟

أخبرته بلهجة لا تقل زهوا :

- ميمو ..

- ميمو ؟!

نطقها صاحبى بنبرة متسائلة أعقبها بالقهقهة متضاحكا فى حبور وجذل واستتلى :

- ميمو .. ياله من اسم جميل يليق بك !

كأنما اشفقت على نفسى أن تكون قى ثنايا لهجته سخرية مستترة أسرعت بالقول :

- تونينو هو الذى اطلقه علي ..

قال مواصلا الضحك :

- مرحى بك وبحضرته ! .. من الآن سأطلق عليك فاكينو طالما انك حزت إعجاب مقاول الشيالين إلى تلك الدرجة.. أنت عند الإيطاليين ميمو وعندنا نحن المصريون فاكينو .. ولامانع من فاكينو ميمو !

- فاكينو ؟!

لفظتها مستثارا فأجابنى :

- نعم فاكينو .. أتعرف معناها ؟

أجبته بغير احتفال دون أن اظهر بادرة الحنق التى اعترتنى واثناء

obeikandl.com

ذلـك اهـز كتفـي باسـتخفاف :

- نعـم اعـرف .. فاكينـو يعنـى شـيال بالإيطاليـة .. ليكـن فاكينـو فاكينـو فقـط أعيـش !

وطفرت من عينى دمعة وأنا اضيف لنفسى :

- وانجـح فى تحقيـق ذاتى هنـا .. الأمـر الـذى اخفقـت فى تحقيقـة هنـاك بـين أمثالـك فى مـصر !

وفى تلـك الآونـة جـاء اثنـان مـن العربجيـة فركـب أحمـد فاضـل الكاريللـو مـع احدهـما وركبـت أنـا الآخـر مـع الثـانى وأنـا أكفكـف تلـك الدمعـة الخائنـة مـن عينـى .. ودون أن اولى التعـب الـذى كنـت قـد شـعرت بـه أدنى اهتـمام .. حقـا قـد عرفـت الطريقـة التـى اعمـل بهـا ففـى مكنـون الأعـماق كنـز مـن مصـادر القـوى هائـل ! .. أعـرف الآن كيـف اغـترف منـه مـا يعيننـى عـلى مـا أنـا فيـه مـن تعـب وارهـاق .. أنـا ميمـو الفاكينـو المـصرى !

***

كسـبت كثـيرا مـن النقـود فى هـذا اليـوم .. شـهد لى الجميـع بحسـن وسرعـة أداء العمـل ولهـذا فإننـى يمكننـى القـول بـكل الثقـة اننى كسـبت أكـثر مـما كنـت اتوقـع ويتوقـع جميـع الرفـاق المصريـين الذيـن تداولـت

السـنتهم أخبـار النجاحـات المفاجئـة التـى حققتهـا ..

وفى هـذا اليـوم أيضـا أرسـلت خطـابى الأول إلى أسرتى عـلى جنـاح البريـد المسـتعجل وفى فجـر اليـوم التـالى وصلـت سـاحة التعتيـق بالسـوق متأخرا حـوالى عـشر دقائـق بعـد السـاعة الرابعـة والنصـف بحكـم الميعـاد الـذى يصـل فيـه الـترام إلى المحطـة التـى نركـب منهـا وهـو أول ميعـاد .. ورغـم التأخـير فـإن المقـاول ذو الشـعر البنـى الطويـل تلقـانى كـما يقولـون عـلى مشـمى وأدخلنـى فى زمـرة عمالـه المثبتـين الذيـن يعتمـد عليهـم ويسـمح لهـم بالدخـول للعمـل أولا ..

كان هـذا معنـاه فى عـرف الرفـاق اننـى سـأعمل وقتـا اطـول مـن الجميـع وسـأنال الأجـر الكبـير الـذى ينالـه الشـيالين المحترفـين ولذلـك لاحقـونى بصفيرهـم وصياحهـم وهـم ينـادون عـلى قائلـين بأعـلى طبقـة صـوت فى حناجرهـم :

- فاكينـو .. فاكينـو! .. حظـك يـا عـم .. يـا عـم حظـك ! .. حظـك يـا عـم ميمـو الفاكينـو !

وأنـا فى عجـب مـن أمـرى وأمرهـم .. مـاذا حـدث؟ .. هـل بـزر اسـمى بالسـوق وأصبحـت أحـد نجومـه الكبـار عـلى حـين غـرة مـن الجميـع ونفـسى ؟! .. أقسـم أن هـذه مسـئولية أضخـم مـن إمكانـاتى الظاهـرة !

.. وإن تكن بالتاكيد أقل من الدفينة ! .. قد صار لى اسما ومن الآن فصاعدا سأعمل جهدى .. غاية جهدى .. سأبحث عن مصادر جديدة للطاقة البشرية المجهولة التى لا حدود لها لأرفعن مستواى واحفظن لهذا الاسم بريقه ! .. نعم النجومية مسئولية ! والنجم يجب ألا يقف عند حد المحافظة على مستو ثابت من حسن الأداء ! .. الثبات على المستو ى يعطى الآخرين فرصة لوزنه كما ونوعا وتقدير درجته رقما قياسيا يسهل الوصول إليه وتجاوزه ! .. وبذلك يبدو الثبات تراجعا ونزولا عن المستوى ! .. نعم .. نعم .. لابد أن أكسر كل يوم رقمى القياسى ! .. وما اريده الآن .. الآن وفى كل وقت هو دعواتك يا امى !

بدأت العمل وأنا أبسمل وأحوقل وأقر سورتا الفاتحة ويس فى سريرتى .. لعل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى ثم هتفت بصوت عال : - يا بركة دعاء الوالدين .. دعواتك .. دعواتك يا امى !

ولأننى صرت من مشاهير الشيالين العتاه فإنه كان على أن أفتح العمل ! .. وفتح العمل يعنى الوثب على مؤخرة الكاميون وركوبها على نتوءات وحواف الضلف المغلقة .. ثم رفع عارضة حديدية يستلزم أمر رفعها والشيال معلق فى الهواء خفة معينة فى ذات الوقت .. الأمر الذى وجدته سهلا لدهشتى وأنا استعين بالله ثم بدعوات الوالدين لاسيما أمى .. وتدلت العارضة الحديدية على جانب من الكاميون

وهـى تخبـط هـذا الجانـب عـدة مـرات مـن شـدة ثقلهـا وتحـدث لذلـك صلصلـة لفتـت أنظـار الجميـع إلي .. كانـت الحركـة التاليـة فتـح أبـواب الكاميـون عـلى مصراعيهـا ورفعهـا مـن مكانهـا وإنزالهـا عـلى الأرض .. الأمر الـذى أديتـه فى سرعـة وإتقـان عـلى الرغـم مـن أنها كانـت بالنسـبة لى أول مـرة كـما لـو أن الاسـتجارة بالمعـين ودعـوات الوالديـن قـد أتـت مفعولهـا وتولـت أمـر القيـام بـكل شىء عنـى ورفعـت فيـما يبـدو هـذه العارضـة الحديديـة الثقيلـة وهـذه الأبـواب مـن مكانهـا بمـا نشرتـه فى صـدرى وقلبـى مـن نـور .. وبمـا بعثتـه فى عضـلاتى وكل خليـة حيـة مـن خلايـا جسـدى مـن قـوة وخفـة عندئـذ بـرزت صفـوف الصناديـق المتراصـة .. دفعـت يـدى أجـذب أعـلى صنـدوق فى أول رصـة بيـد بينـما أتعلـق فى جانـب مـن الكاميـون باليـد الأخـرى فانجـذب لي الصنـدوق طائعـا .. رفعتـه فى الهـواء بتلـك اليـد وسـلمته إلى الشـيال الإيطـالى الـذى كان يقف بجـوارى عـلى الأرض .. تلقفـه هـذا منـى ثـم ناولـه فى سرعـة لأخـر وقبـل أن ينظـر إلى أعـلى منتظـرا الصنـدوق الثـانى كنـت قـد عاجلتـه بـه ففعـل بـه مـا سـبق أن فعلـه بـالأول .. عاجلتـه بالثالـث والرابـع والخامـس وحـين بلغـت الصنـدوق العـاشر كان الصنـدوق منخفضـا عـلى الأرضيـة بحيـث لا أسـتطيع أن انحنـى واحملـه بطـول جسـدى وأنـا معلـق فى الهـواء كالبهلـوان فى سـيرك ..

يبـدو أن العـرف غـير المكتـوب بـين الشـيالين كان يجعـل مـن صميـم مهـام الشـيال الواقـف عـلى الأرض أن يمـد يـده ويلتقـط آخـر صنـدوق فى الرصـة الأولى وبالفعـل فعـل وفى الحـال إتسـع الموضـع الـذى خـلا لوقـوفى ووالیـت العمـل فى تعتيـق باقـى الرصـات وبنفـس السرعـة والحماسـة والقـوة حتـى أخليـت ثلاثـة صفـوف كاملـة فاتسـع المـكان لأكـثر مـن واحـد وصعـد الإيطـالى وحـل فى مكانـه آخـر وهكـذا تـوالى العمـل فى دورتـه العاديـة واشـتد وقعـه .. وكلـما أخلينـا صفـا صعـد واحـد وحـل أخـر عـلى الأرض محلـه إلى أن أنزلنـا حمولـة الكاميـون ..

وللغرابـة سرنى بينـى وبـين نفـسى أن أكتشـف بأننـى لم اعـرف فحـوى الصناديـق لشـدة انكبـابى عـلى العمـل بجديـة وسرعـة وقـوة إلا قـرب الانتهـاء مـن إخـلاء الكاميـون ! ..

والأغـرب ان اكتشـف أن كل حمولتـه كانـت مـن عنـب الفينـو ! .. قبلـت يـدى ظهـرا لبطـن حمـدا للـه لأننـى لم أرهـا ! .. ولأننـا كنـا نعمـل فى الظلمـة حيـث كان الليـل لم يـزل مخيـما وإلا لـكان أدائى قـد تـم تصويـره بكلمـة غـير واردة فى قامـوس عمـل الشـياليين المختاريـن أمثـالى !

ثـم انتقلنـا إلى الكاميـون الثـانى وبدأنـا العمـل فى الثالـث وحـين اقتربـت السـاعة مـن الخامسـة والنصـف شـاهدت رفـاق البنسـيون يدخلـون سـاحة العمـل فى هـذا الوقـت فقـط .. ومـا رأونى حتـى تصايحـوا مـرة

ثانيـة بالنـداء عـلى قائلـين :

- فاكينو .. فاكينو !

لوحـت لهـم بيـدى فى حركـة رصينـة تنـم عـن مبلـغ ارتياحـى لتلـك الكنيـة التـى لمـزونى بهـا تتويجـا لنجاحـى فى اعتـلاء ذروة العمـل والتـى اعتبرتهـا كذلـك تنفيسـا عـما يشـعرون مـن غبطـة (ولا أقـول لفظـا أقـوى) تجاهـى .. ثـم أننـى وجـدت أن مـن واجبـى أن أصارحهـم بـسر تلـك القـوة الوافـدة ليعلـم كل منهـم أنهـا تـسرى فى كل أعضـاء جسـده مـسرى الـدم فى العـروق فينهـل منهـا وينجـح مثـلى ! .. وكيـف أننـى اسـتخرت اللـه ثـم بـأبى وأمـى وصناديـد حـرب أكتوبـر .. وأمـر آخـر هـو اننـى أصبحـت لا ألتفـت لمحتويـات الصناديـق إلا إذا فكـرت أن آكل منهـا شـيئا .. ولم أعـد أخـاف صناديـق عنـب الفينـو ومـا هـو أكـثر ثقـلا منهـا وزنـا كأجولـة البطاطـس ! ..

صرت أتحـدى وأتصـدر وأتصـدى .. كانـت معركـة مـع نفـسى عرفـت كيـف أكسـبها عـلى نحـو يبهـر الجميـع ..

ومـا جـاءت السـاعة السـابعة حتـى صرف تونينـو كالعـادة بقيـة العـمال غـير المثبتـين لديـه وتركنـى مـع باقـى العـمال أواصـل تعتيـق مـا بقـى مـن عمـل وبنفـس الطريقـة التـى حيـانى بهـا رفـاق البنسـيون وهـم يدخلـون سـاحة العمـل حيـانى الرفـاق وهـم يخرجـون أثنـاء مرورهـم

عـلى هاتفـين :

- فاكينـو .. أجـل ياعـم حظـك يـا عـم ! .. صرت فاكينـو حقـا ! .. سـتبقى أنـت فى عمـل المقـاول أمـا نحـن الصعاليـك فذاهبـون إلى موقـف الكاريللو .. حظـك يـا عـم سـينفحك تونينـو عشريـن ميـلا لـيرة اليـوم !

وأنـا الـوح لهـم بيـدى بحركـة كلهـا رزانـة واقتـدار بينـما اعمـل باليـد الاخـرى واختفـى الرفـاق فانشـغلت بالعمـل الـذى امتـد عـدة سـاعات أخـرى إلى الظهـر .. حينئـذ جـاء تونينـو ووقـف وسـط زمـرة أتباعـه عـلى مقربـة مـن الكاميـون الـذى كنـا نعمـل بـه آنـذاك فأدركـت مـن ذلـك أنـه الكاميـون الأخـير .. وأنـه ينتظـر فراغنـا منـه حتـى ينقدنـا أجرنـا ..

كانـت مجموعتنـا المميـزة تربـو عـلى العـشرة ولم يكـن بيننـا مـن المصريـين غـيرى وغـير المـصرى الـذى سـبق أن عنفنـى بشـدة قائـلا أننـى جللـت الجميـع بالعـار فى أول يـوم تعارفـت إليـه فـإذا اسـمه منـير .. ومنـذ اللحظـة التـى حظيـت فيهـا بـرضى تونينـو صرت صديقـا لـه فأخـذ يتقـرب إلي ويجعـل نفسـه بالقـرب منـى دومـا ونحـن نعمـل .. كـم مـن مـرة عـرض عـلى أن أغـادر البنسـيون الـذى اقيـم بـه واقيـم معـه بالشـقة التـى اسـتأجرها بالقـرب مـن السـوق حتـى اصـل إلى العمـل يوميـا مبكـرا واسـتمر فى المحافظـة عـلى هـذا النجـاح .. لكننـى كنـت فى كل مـرة اراوغه معتـذرا بأعـذار واهيـة لم تكـن تقنعـه .. فى الحقيقـة كنـت أرى أنـه مـن

قبيل الجحود ونكران الجميل أن افترق عن الرفاق الذين ساعدونى حتى وقفت على رجلي .. وحتى اشتدت صلابة الأرض التى أقف عليها بهذا النجاح فلم احقق له طلبه وغايته منى ..

أعطانى تونينو بالفعل عشرين ميلا ليرة أجرا عن العمل حوالى سبع ساعات ونصف مذكرا إياى اننى تأخرت قليلا فى هذا اليوم وأن على أن اراعى الحضور فى الرابعة والنصف تماما .. تدخل بيننا الرفيق منير مشكورا لما لاحظ أن المقاول يرغب فى مناقشتى وأننى لن أتمكن بمحصولى الضئيل من اللغة توضيح ظروف سكنى فى مكان بعيد وأننى أصل راكبا أول ميعاد وصول لترام .. حينئذ هز تونينو رأسه قائلا بلهجة العارف بكل شيء :- يستطيع أن يركب البولمان فانه يبدأ العمل قبل ميعاد وصول الترام بساعة !

كنت قد فهمت معنى ما قاله فأسرعت أقول اننى سأركب البولمان وسأصل فى الميعاد بلغة إيطالية مفككة وركيكة حقا لكنها على أى الأحوال أرضته فربت على كتفى عاطفا ونفحنى ورقتين أخريين من فئة الميلا ليرة ليعبر لي عن ذروة رضاه عنى.. ابتعدت ورفيقى من المكان ونحن نتبادل حديثا كله ود وإخاء .. كنت احمل بيدى كيسا من البلاستيك وضعت فيه بعض الفاكهة والخضروات لأستعين بها على إعداد طعام الغذاء مع الرفاق .. بلغنا موقف الكاريللو

حيث تعودت أن ألقى رفاقى .. لكنى لم أر أحدا منهم .. كنت لم ألف العودة للبنسيون بمفردى ولذلك لم اهتم قبلا بمعرفة اى أرقام البولمان تذهب إلى حيث محل اقامتى فقد كنت اعتمد عليهم حتى فى تلك المهمة الصغيرة ..

كان منير لم يزل سائرا بجوارى ونحن نبارح السوق انتهزت الفرصة وسألته عن رقم البولمان الذى يمر على محطة البورتا نوفا فأخبرنى ببساطة أن جميع الأوتوبيسات المتجهة عكس الاتجاه الذى يقع به الماركاتو تمر على البورتا نوفا .. لذلك ودعته على أمل اللقاء فى الرابعة والنصف من فجر الغد وركبت أول بولمان واجهنى بالمحطة ويسير فى الاتجاه المطلوب .. لم يكن بالبولمان كمسارى ولم تكن معى تذكرة أسبوعية مخفضة من تلك التى يستطيع اى إنسان إبتياعها من اى " تبكايا " فوضعت عملة معدنية من فئة المائة ليرة فى صندوق قطع التذاكر الذى يقع فى مؤخرة البولمان حيث باب الصعود .. فبرزت لى التذكرة من فتحة أسفل الورقة التى وضعت بها العملة وتناولتها بيدى ووقفت كالعادة مستندا على تلك الدعامة الحديدية .. لم اهتم مع باقى الركاب الجلوس لاننى كنت أعلم أن المقاعد وهى قليلة خصصت فقط للمرضى والأطفال وكبار السن .. قد كنت شابا يافعا وشيال ذائع الصيت فكيف بى أجلس على مقعد مخصص لمريض أو طفل أو لشيخ طاعن فى السن ؟

وفى البنسيون تكاثر على الرفاق بعد عودتى بمفردى يسالوننى " سر هذه الصحوة الغريبة التى انتابتك على حين غرة " .. أجبتهم فى مباهاة بتلك الكلمة المأثورة الشديدة الإيجاز التى اشتهر بها احد فلاسفة اليونان القدامى " اعرف نفسك " .. وصوبت انظارى إليهم اتفرسهم بنظرتى واحدا بعد الآخر لأقف على وقع قولى من نفوسهم وهل لقى تفهما وقبولا فإذا بامارات الحيرة والفضول وعلامات استفهام أكبر ترتسم فى أعينهم المحدقة فلم املك إزاء ذلك إلا أن اضيف موضحا بابتسامة :- اقصد اعرف إمكانات نفسك ..

ويبدو أن هذا التوضيح لم يزد الأمر فى نظرهم إلا إبهاما وتعقيدا فضحكت فى أعماقى ضحكة كبيرة عملت ما وسعنى من جهد كيلا تطفر على السطح لإداراكى أن التضاحك فى مواجهة تساؤل لإنسان كل هدفه أن يفهم لن يفرز غير التهكم والاستعلاء .. وهو أمر بالغ الضرر بالنسبة لى لأنهم جماعة متفاهمة تربط بعضهم أواصر الأخوة الحميمة ينتمون كلهم للإسكندرية وأنا الوحيد المختلف عنهم ولا أقول الغريب بينهم بلا سند سوي حسن أدبى ومعاشرتى وتظرفى ومن الذكاء ألا أبدو أمامهم بطلا أو متميزا!

إذاً يبدو الكلام عن أبطال حرب أكتوبر من قبيل التظاهر بالعظمة والشموس ..

ويبدو الحديث عن بركة دعاء الوالدين لاسيما دعوات الست الوالدة وهى تقلب وجهها الصبوح فى السماء بعد صلاة الفجر من قبيل التعميم والتجريد فهم أولاد بلد .. وأولاد البلد الذين على شاكلتهم يلجاون دوما لتبرير نجاحاتهم بتلك المقولة عن تلك البركة من قبيل التظاهر والتفاخر برضاهم التام عنهم لأنهم أبناء بررة !

ولهذا يحسن أن أقول لهم اتقاء لكل هذه الأسباب مجتمعة " أننى فى أول يوم لم اكن فى لياقة جيدة ولم اكن مدربا على فنون الشيالة ! .. فضلا عن أننى كنت اختلق المصاعب التى تضعضع عزمى وتصدنى مثل النظر لحجم ووزن الصناديق قبل الإقبال على حملها وتهيب حمل الثقيل منها " .. أسهبت فى شرح ذلك وأنهيت الأمر بقولى :

- آمل أن يكون الله قد وفقنى فى إجابة تساؤلكم فأنا اكن لكم جميعا من كل قلبى كل حب واحترام !

ومس قولى هذا وترا حساسا فى أفئدتهم فأسرفوا جميعا على نحو أدهشنى فى مدحى والثناء علي والتعبير عن مشاعرهم الرقيقة تجاهى ! وعن مباركتهم لنجاحى المبكر والمفاجئ!

إلا واحد.. نظرت إليه فرأيت وجهه ممتقعا يسهم فى اللامنظور نحوى بنظرات مركزة وعميقة بطريقة لا تطئمن ولا تريح فعرانى

القلـق والاضطـراب لمعنـى تلـك النظـرات والشـحوب فى وجهـه وقـد كان حريـا بـه أن يكـون فى طليعـة الفرحـين المهنئـين " اليـس مـا أنـا فيـه مـن خـير يرجـع الفضـل الأول فيـه إليـه ؟ .. اليـس هـو الـذى وافـق عـن شـهامة عـلى مرافقتـى لـه منتشـلا إيـاى مـن الضيـاع فى بـلاد إمـا أن يكـون لـك فيهـا مـأوى وعمـل تتكسـب منـه قـوت يومـك وإمـا أن تصـير شـحاذا مطـاردا مـن البوليـس .. وإن كنـت ذا كرامـة تمـوت جوعـا وتـشردا ..

أنـا لا أحمـل لـك إلا كل تجلـة وحـب وإعـزاز يـا كـمال فلـماذا شـحوبك مـن نجاحـى ؟

أهـى كبريـاء معلـم وأنانيتـه إزاء تفـوق تلميـذه عليـه ؟ .. لطفـا .. أيـن القـول المأثـور الخالـد لأحـد أبنـاء أمنـا (أم الدنيـا) كاد المعلـم أن يكـون رسـولا ! .. أنـا الـذى رفضـت عـرض ذلـك الرفيـق المخلـص منـير الإقامـة معـه لأكـون عـلى مقربـة مـن السـوق فيتحقـق لي بالمواظبـة إرضـاء تونينـو إمتنانـا لا ينتهـى أمـده بصنيعـك وعرفانـا إلى آخـر محطـة فى العمـر بجميلـك !

أجفلـت إشـفاقا عـلى نفـسى مـن مطالعـة محيـا ونظـرات هـذا الكـمال الناقـص .. هيـىء لى (كـما لـو كان حلـما) أن لسـانه قـد بـدأ يلـوك كلـمات يبـدى بهـا مباركتـه لنجاحـى أو شىء مـن هـذا القبيـل .. وعـلى الرغـم مـن أن عقـلى هتـف بى " ريـاء وكـذب .. احـذر " فـإن قلبـى مـا

صدق أن يتلقف فى شغافه تلك الكلمات العزيزة فقمت إليه أشكره وأضمه إلى صدرى لأبعد عنه بدفء عواطفى شر تلك الغيرة الرعناء التى طالعنى بها وجهه المسكين تارة .. وتارة ابعده عنى وادقق النظر متوددا واهزه كما لو انه شجيرة نخرة يسبح فيها الدود ! فأعطانى بدنا جامدا جافا وباردا فتباعدت عنه مخزيا وانسحبت من غرفة الاخوين فاضل حيث كنا قد التقينا منكس الرأس أنعى خيبة املى فيه وما اغلقت الباب دونى حتى ارتفع بالحجرة بغتة لغط الأخوة ففهمت أنهم قد دخلوا جميعا مع هذا الأخ مناقشة حادة يستنكفون شعوره الذى لم يعرف كيف يداريه !

ومنذ تلك الآونة صرت أخشاه وفى ذات الوقت وبالرغم منى لم اقو على مجاهدة شعورى الدائم بالعرفان له وصحوة أخلاقى لصالحه بما يبدد تلك الخشية ويمحو هذا الحذر من كيانى كله فأصبح امامه كالقطة الأليفة أو الحمل الوديع مستعدا لقبول اى غبن أو حيف وكانها ضريبة دامغة لا مفر لى من دفعها له ولا مندوحة عن قبولها منه !

كان حسن التدبير يقتضينى الانفصال عن رفاق البنسيون بعد أن اشتد عودى ووقفت من الغربة على أرض صلبة وليتنى فعلت .. حاولت ذلك إلا اننى لم استطع .. وحافظت محافظة تامة وغيبة

عـلى ركـوب الـترام معهـم فجـر كل يـوم فجنيـت بوفـائى وصفـاء عواطفـى الكثـير مـن الثـمار المـرة ابتعلتهـا فى جـوفى لحـما وعصـيرا وبـذورا !

أول هـذه الثـمار كان فى بكـرة يـوم مـن الأيـام التاليـة حيـث كـف تونينـو عـن لفـت نظـرى وفتـح فمـى عنـوة وعـصر فيـه قطـرة مـرة بقبضـة يـده بـتركى اقـف أمامـة طويـلا لأكـون آخـر الشـيالين المختاريـن !

وفى اليـوم التـالى صـب فى فمـى قطـرة أكـبر فهمشـنى ومنعنـى مـن العمل مـع صفـوة الشـيالين .. وفى اليـوم الثالـث تجاهلنـى كليـة ودفـع بالثمـرة كلهـا فى فمـى ووضعنـى فى صـف الشـيالين الصعاليـك الذيـن يلجـا إليهـم مضطـرا وتحـت ضغـط العمـل ..

لم يكـن العمـل ضاغطـا فى هـذا اليـوم فلـم يسـتخدمنى وادار لى ظهرالمجن تاركننـى فى الـبرد اعـانى مـن فـوق ومـن تحـت ارفـع قدمـا واخفـض أخـرى بتلـك العلقـة الشـديدة الـبرودة مـن الجـو ومنـه قبـلا وأيضـا مـن الأعـين التـى أمطرتنـى بنظـرات الشـماتة ! كالتلميـذ الخائـب الـذى نـال عقابـه الـرادع مـن معلمـه الحـازم !

ارتفـع عـواء النحيـب بـل العويـل فى أعماقـى ومـع جلـد الكبريـاء تحجـرت الدمـوع فى مآقـى عينـى واحمـرت .. كنـت أدرك العـلاج الناجـع لكننـى لم اجـرؤ عـلى تعاطيـه وانقطعـت عـن السـوق أيامـا لـذت فيهـا بفـراش

خيبة الأمل راكبا جمل السرير ! ومع هذا لم اجسر على النزول عنه وتمسكت بركوبه !

وفى تحليلى لهذا الموقف الهزلى يمكننى أن أسوق على استحياء سببا آخر لكل هذا الترف والترفع بل الهراء والعبث الذى انحدرت إليه أحوالى بإرادتى .. هو أن الشتاء كان قد اشتد فتطور من برد مصحوب برذاذ مطر إلى قر تحول فيه الرذاذ إلى ندف من الجليد تشبه هبو القطن ينفضه منجد تخفى فى أطباق الغيوم التى خاصمت الشمس وناصبتها العداء ! .. فيا للسماء ما عاد يقدر على العمل فى النهار الرمادى المتجمد إلا الصناديد والافذاذ الذين ألفوا مجابهة مافى الطبيعة من قسوة بأفئدة ليس فيها تحجر أو خواء وأنفس لا تقوى إلا بالعمل المجرد فى العراء .. وأنا متى كنت صنديدا فذا ؟!

دعونا من حديث التطهر واستلهام النفس القوية .. ودعوا أبطال حرب أكتوبر فى سلام ! فإنهم وإن كانوا قد قاتلوا فى العراء غير أن قافلة تقدمهم وانتصاراتهم لم تعترضها الثلوج التى دحرت جيوش نابليون ومن بعده هتلر فى متاهات ثلوج روسيا ..

دعونا أيضا من تسبيح الكروان فى السحر ودعوات الأم لأبنائها وهى تقلب وجهها فى السماء مع آذان الفجر فكثيرا ما تغطى عباءة الغيوم السوداء وجه السماء الدنيا ..

ولكـن إلام اليـأس فى الحديـث والـكل يعلـم أن ثلـوج روسـيا لم تكـم فى منعـة وقـوة التـل الـترابى لخـط " بارليـف " ذاك الـذى بشـهادة الـروس أنفسـهم كان يلزمـه قنبلـة ذريـة لفتـح ثغـرة فيـه ! .. ولم هـذا النكـران لـك يـا سـماء الدنيـا وأبوابـك العتيـدة مفتوحـة دومـا لـكل ذى حاجـة يقلـب وجهـه لاجئـا ؟!

أيصل اليأس والقنوط بى إلى هذا الحد ؟

أن الوفاء والعرفان ذاته جزء لا يتجزا من ذات تلك السماء ..

ومن الله أكبر نبعت هذه البطولة النادرة لهؤلاء الجنود ..

كيـف يسـلمنى عرفـانى ووفـائى إلى هـذا القنـوط المطبـق استسـلاما للثلـوج؟!

لابـد أن هنـاك سـبب ثالـث خفـى .. سـبب آخـر غـير الوفـاء والخـوف مـن الـبرد والثلـج ..

أهى أحكام الغربة على الغريب ؟

تلـك التـى تلقـى فى روعـه الجـبن مـن حـشرة أوهـى البيـوت .. والرعـب مـن أقـل التفاتـه أو نظـرة أو وخـزة مـن أهـون المخلوقـات شـأنا ..

إن اللـه (سـبحانه) أشـار لتلـك الحقيقـة فـأوصى الإنسـان بعابـر السـبيل وجعلـه فى ترتيـب الأهميـة بعـد المسـكين مبـاشرة

ولكـن عـن اى مصـدر استشـعر مـرارة الغربـة ؟ .. أمـن الإيطاليـين ؟ .. ومـاذا فعـل الإيطاليـين بى بـل مـاذا فعلـوا بـأى اجنبـى ألقتـه أقـداره فى أراضيهـم وبـين اكفهـم ؟ .. إنى لم اسـمع عـن أحـد الأجانـب تجـاوز مـدة اقامتـه المحـددة لـه فى جـواز السـفر فقامـت الشرطـة الإيطاليـة بترحيلـة لهـذا السـبب فقـط .. إنهـم شـعب مولـع بالحيـاة يعيشـها تـاركا غـيره يعيـش ولـو شـاطره مباهـج هـذا العيـش غربـاء دون إشـعارهم بغربتهـم طالمـا هـم أنفسـهم لا يشـعرون بهـا ! .. وأنـه عليهـم طالمـا لم يكونـوا مـن أبنـاء البلـد أن يعملـوا ليأكلـوا أو يسـتمتعوا أو حتـى ينامـوا باقـل منهـم كـما تفعـل بعـض الشـعوب التـى أثراهـا اللـه بأشـقاء لهـم أو جـيران مـن الشـعوب التـى أفقرهـا ولاة أمورهـا ! .. أنـا لا اغـالى إذا قلـت أننـى استشـعر الـروح المـصرى الأصيـل تجـول وتصـول فى أعـماق كل إيطـالى فهـم أهـل عـشرة ويحبـون النكتـه والطعـام والمـاء والخـضرة والوجـه الحسـن مثلنـا نحـن أبنـاء أم الدنيـا !

مـرة أخـرى أتسـاءل.. الغربـة مـن أى مصـدر؟.. مـن بنـى جلـدتى رفـاق البنسـيون الذيـن لا يربطنـى بهـم إلا شـعورى المـرضى بالعرفـان بالجميـل فكيـف أشـعر بعـذا الربـاط الوثيـق اننـى غريـب عنهـم ؟! .. أيكـون ذلـك لأن هـذا الكـمال الناقـص زعـزع مـن قـوة تلـك الربطـة وهـو (عقدتهـا) وأقـوى الجميـع تأثـيرا بحكـم مـا قدمـه لى فبـدأت استشـعر الغربـة بمقـدار مـا فككـه بيـده مـن ربـاط !؟

مشاعرى تلك جميعها غريبة غاية الغرابة فهل يكون بينى وبين نفسى من الغربة والتناقض أكثر مما بينى وبين الآخرين ؟!

أجل غربة داخلية من نوع ما هى السبب وراء ما أكابده من ابتئاس وضياع !

إننى حقا لم افهم نفسى تلك الأيام الباردة .. لم أفهمها على الإطلاق .. يوشك كل شىء أن ينهار من أساسه على أم رأسى .. قد بدأت افكر فى اننى فشلت الفشل الذيع واستمرارى مرهون بمقدار بعدى عن أسباب الفشل والأسباب للأسى والأسف موجودة بقوة وقهر فى داخلى وفى الجو والصحاب !

فماذا أفعل كى ازيح عنى هذا الهاتف الزاعق بأن احمل حقيبتى واحجز على أول طيارة تقلع من مطار تورينو مباشرة إلى مطار القاهرة!

ما بى صبر على البقاء والاستمرار يوما آخر اقضية فى السفر بالقطارات إلى مطار ميلانو أو ميناء قينسيا على وجاهة هذا الأمر بالنسبة للاقتصاد فى التكاليف فثمن التذكرة وان كنت قد نجحت فى تدبيره من مدخرات العمل بالسوق مع تونينو .. لكن تكاليف التذكرة من تورينو تتجاوز المبلغ الذى ادخرته كثيرا فماذا أفعل كى انتشل نفسى؟

أأمد يدى إلى رفاق البنسيون وادعوهم بحكم آصرة الانتماء إلى وطن واحد أن يتبرعوا بفارق ثمن التذكرة بين مطار تورينو ومطار ميلانو أو روما لمجرد ألا اعانى الفشل والضياع يوما آخر ؟ ..

اننى أريد أن أرى نفسى فى غضون أربع ساعات وقد انتقلت من ايطاليا إلى وطنى فأروى هذا الحنين إلى الأهل أيضا وكلما قلت هذه الساعات كلما قرب أوان راحتى مما أعانيه ..

و " بالله يا صحاب اعطونى عشرة ميلا ليرات فإن معى مائتين وعشرة والتذكرة من تورينو بمائتين وعشرين ميلا ليرة ! "

- يا فاكينو ! .. لم يا فاكينو تسافر ؟!

تصايح الصحاب فقلت :

- البرد والقر والثلج فى القلوب كما فى الجو والأرض ولم أعد فاكينو !

- ماذا ؟

- نهر غاضت مياه الوفاق مع جوالنفس وجو الجو فيه !

- ماذا ؟

- من مسالك غربة وعرة .. من ضياء شمس غابت .. من حنين متأجج ! .. من سماء لم أعد حاشا لله أرى أبوابها مفتوحة !

- إنك مجنون ولا ريب ..

- مجنون مجنون فقط أسافر بعيدا عنكم !

obeikandi.com

فجأة فى مساء نفس اليوم ساد الصمت هنيهة على أثر الزوبعة التى اقلقت بها راحة بنى وطنى بالبنسيون وجاءت تلك الهنيهة بمثابة الهدنة الصغيرة لاسترداد ما تفرق من أنفاس وما انفلت من أعصاب بيد أن الصمت تمزق بغتة إذ صاح صوت مجلجل :- عادل التيت وصل .. التيت وصل!

تدافع الجميع مهرولين من الغرفة صوب الباب الخارجى للبنسيون للقاء التيت العزيز الذى وصل لتوه من الوطن الحبيب ليفاجىء الجميع بأنه لم يصل وحده وانما وصل ومعه شقيقان لكمال كامل .. عرفت فيما بعد احدهما اسمه مجدى وهو له نفس ملامح كمال إلا أن لون وجهه يميل إلى الاسمرار قليلا وقوامه أكثر امتلاء وسمنة والاخر اسمه نبيل وهو الشقيق التوأم لكمال..

ولما لم اكن فى حال لى تسمح لى بمغادرة (سجن) السرير فاننى لم انشط للقائهم مع الآخرين والحقيقة أن وقع خبر وصول شقيقين لكمال مع ما يبطنه تجاهى من مشاعر مبهمة غير ودية كان مدعاة لتفجير كل المشاعر غير السعيدة فى نفسى .. غير اننى كنت قد ازمعت الرحيل ولذلك لم اشعر بشىء من مشاعر السعادة أو الشقاء فوق اننى كنت اقبع وحيدا داخل هذا السجن الداخلى لنفسى

وهـذا فى حـد ذاتـه حـال بينـى وبـين الاهتـمام بـأى أمـر آخـر خـارج تلـك النفـس.. وحـين أتى وقـت دخـل فيـه الوافـدون إلى غرفتـى مـع باقـى الرفـاق تقدمـوا نحـو لمصافحتـى والتعـرف إلى فمـددت يـدا خاليـة مـن اى شـعور وحييتهـم بصـوت أثقلـه العـذاب وأنـا اتحـاشى النظـر فى أعينهـم .

ويبـدو أنهـم قـد اعتقـدوا اننـى ارسـم عليهـم أمـور " التيـت ! " إذ سـمعت احمـد فاضـل يقهقـه موجهـا حديثـه لعـادل وهـو يـضرب عـلى يـده بمـرح : - اطمـئن لا يوجـد هنـا تيـت آخـر غـيرك !

وصمـت لحظـة ثـم أضـاف بنفـس اللهجـة قاصـدا إيـاى : - هـذا ليـس تيتا ولكنـه فاكينـو عبقـرى ! .. ومـا تـراه الآن عليـه مـن جنـون العبقريـة ليـس إلا .. سـكت دون سـبب فتسـاءل عـادل :- مالـه ؟

فانـبرى احمـد يـشرح لـه ودخـل الاثنـان فى حديـث هـادىء طويـل بينـما تبـادل الأخـوة كامـل حديثـا خاصـا عـن أحـوال الأسرة فى حـى كيلوباتـرا بالإسـكندرية عـلى حـين جلـس محمـد فاضـل الـذى لا يتحـدث ابـدا فى مواجهتـى ينظـر إلى دون أن ينطـق بكلمـة كأنـه لا يعـرف الإيطاليـة والعربيـة أيضـا !

وكان لطفـى (بحكـم كونـه سـكندريا مثلهـم) يتداخـل بـين وقـت وآخر فى الحديـث الدائـر هنـا أو هنـاك بكلمـة أو تسـاؤل أو إشـارة وفـق مجريـات

الحديث أما الأخوان مجدى واحمد طالبا كلية الهندسة فانهما كانا فى عملهما بالخارج .. وانقضى بعض الوقت على هذا الوضع هدنة أخرى من الراحة ثم رأيت عادل التيت ينهض من جلسته ويدنو منى قائلا بتودد يخفى ميلا طبيعيا للسيطرة :

- قد فهمت مشكلتك .. تستطيع منذ الآن أن تعتمد على وتعتبرنى المسئول الأول عنك هنا !

كان قوله مفاجئا لى وللجميع وكان فيه البرهان الواضح السافر على اننى يجب أن أكون تابعا لأحد ما هنا .. توفزت لذلك فوق ما كنت فيه من بهوت .. وراعنى أن اكتشف أنه إذا باقى الرفاق قد استقبلوا قوله باستكانة وترقب دونما ابداء رأى فإن كمالا لدهشتى وحيرتى صاح محتجا كأنما يدافع عن حق ثابت له يوشك أن يسلب منه : - عادل !

وكان فى طريقة نطقه وندائه نبرة تنبيه وانذار لعادل كى يتوخى الحرص فيما يقول أو يفعل ويقف عند حده وفى الحال انقلبت سحنة التيت واستدار إليه وهتف فى شبه تحد بعين الطريقة:- كمال!

وتساءلت فى أعماقى " هب لو أن كمالا وحده بلا هذين الشقيقين الذين حضرا على حين فجأة .. أكان يجرؤ على مواجهة عادل تلك

المواجهة ؟ " .. وكما يقولون تكهرب الجو وانذر بحدوث احتكاك غير مأمون العواقب بين زعيمين أحدهما لا أعرفه والآخر نبتت له من بين شعرات ذقنه الجرداء زعامة كانت بذورها كامنة تثير بغموضها فضولى وتوفزى طوال ما تصرم من وقت غربتى ! .. أما الآن فقد بات واضحا أننى مستضعف بحاجة لمن يسوسه ويكشر لكل طامع عن أنيابه ! .. ويبدو أن التيت كان يمتلك بدوره سلطة صاحب الفضل والجميل على الأخوة كامل إذ أسرع الشقيق التوأم وهتف محذرا :- كمال !

أو معتذرا ليقفل توأمه باب الحديث فى هذا الموضوع النكد ويسكت متجرعا كأس الأيام التى يداولها الله سبحانه بين الناس .. حينئذ دمدم هذا متراجعا : - ليكن نرجىء هذا الكلام لوقت آخر !

- وقت آخر ؟!

أخيرا نطقت وأنا أدفع عنى الأغطية وأكاد أصرخ :- ماذا تظنوننى ؟! .. وما تلك الوصاية التى يبغى كل من هب ودب فرضها علي .. أنا طول عمرى مستقل وأترفع عن الإنضمام للجماعات والأحزاب ! .. نعم أنا لست تابعا لأحد .. أنا حر ! .. أسافر .. ابقى .. أعمل .. أنام .. أصحو ليس لأحد أى حق فى الوصاية علي .. لست طفلا أنا اكبر سنا منكم أجمعين .. دعونى وشأنى .. دعونى يرحمكم الله !

كان يجب أن أقول يلعنكم الله واتمادى فى سورتى وفقدان توازنى عاملا فى الكمال الناقص والتيت غير العادل الضرب والتبريح .. غير اننى لم أكن على تلك الدرجة من الشجاعة لمواجهة صفاقتهما وتجاوزهما الحدود معى ولو فعلت أيا كانت النتائج لتغير مجرى الأمور ولربما جلست على كرسى الزعامة .. لكننى جبنت مخافة الهزيمة هامسا لنفسى الكثرة تغلب الشجاعة إن توفرت ! .. قد وقعت فى حبائل " عصابة " تشكلت على مهل واستحياء ثم أسفرت عن وجهها القبيح بحضور تيت ونبيل ومجدى وانتهى كل شىء .. أجل يتحتم علي خلع عباءة النبل والوفاء وكل ما يمثل أخلاق القرية التى دوما يذكرنا بها السادات ! .. أنا القروى الأحمق ! .. لأنصرن نفسى وأغادر تلك الرفقة السيئة إلى غير رجعة أو أغادر إيطاليا كلها غير مأسوف علي !

استدارات اعين الجميع دهشا وذهولا من اجترائى على الصراخ فى وجوههم بتلك الطريقة ففغر عادل فاه وانقدح الشرر من عينى كمال وبان على نواجزه انه يتحفز للهجوم علي .. أجل وماذا يمنعه.. قد أصبح الآن صاحب زعامة وعزوة .. قويا بأخويه ..

وشاءت رحمة الله بى أن نسمع فى تلك الآونه نقرا خفيفا ومهذبا على باب الغرفة ثم انفتح الباب على هون فأحدث صريرا مثيرا للاعصاب التى كانت مشدودة على وسعها ولم يكن ينقصنا هذا

الصريـر الـذى جـاء كخلفيـة موسـيقية تصويريـة للحـدث الماسـاوى الـذى أعيـش فيـه !

واطـل القـادم مـن البـاب بوجهـه قبـل أن يدخـل فـإذا هـو صديقـى الـوفى السـمح منـير جـاء فى وقتـه فاهتـز فـؤادى طربـا ! وهببـت مـن الفـراش قافـزا فـوق رؤوس الجميـع .. قفـزة جسـورة لـو أن الآخريـن أدركـوا مبلـغ مـا فيهـا مـن قـوة ومـران لا أدرى مـن أيـن توفـرا لى فى تلـك اللحظـة لأخذتهـم دواعـى الحيطـة مـن قـوتى ومـراسى ! .. ولفكـروا ألـف مـرة قبـل الدخـول معـى فى صراع !

ومـا اظـن إلا أنهـا أتـت عـلى غـير قصـد منـى بالأثـر المطلـوب اسـتحداثه فى نفوسـهم إذ تراجـع كـمال إلى الـوراء معتقـدا أن الحركـة التاليـة هـى نفـاذى بقـوة اندفـاع رأسى فى بطنـه وقـد عـلا وجهـه الاصفرار والشـحوب!

وكان التيـت جالسـا عـلى راحتـه جلسـة التعاظـم والشـموخ مضطجعـا للـوراء ومتكئـا عـلى مرفقيـه ومسـندا ظهـره عـلى عارضـة السريـر وواضعـا سـاقا عـلى سـاق ونعـل حذائـه فى وجهـى مبـاشرة ! فانتفـض فى جلسـته ووثـب إلى الناحيـة البعيـدة مـن السريـر .. وأغرتنـى تلـك الحركـة المضطربـة منهـما بأمـر فحدثـت نفـسى قائـلا وهـا قـد أتى رفيـق يشـد أذرى فلـم لا أعملهـا معهـما منتهـزا تلـك الفرصـة السـانحة التـى ملكـت فيهـا عـلى حـين غـرة زمـام المبـادأة منهـما ؟! ..

ولكننى عدت وفكرت فى أن هذا قد يؤذى صديقى منير من قريب أو بعيد وقد جاء فيما يبدو يسأل عنى بعد تلك الأيام التى انقطعت فيها عن السوق واكتفيت بما أثرته فى نفسيهما من ذعر عن غير عمد فهدأت نفسى قليلا وطابت بل وامتلأت تلك النفس بشعور من الثقة أرضانى وأتاح لى بعض القدرة على المرح والابتسام وأنا استقبل صديقى مرحبا :- منير تفضل آهلا وسهلا .. قد أوحشتنى والله يا أخى العزيز !

ودخل منير بخطو ثابت مجيبا تحيتى بمصافحة أقرانى فردا فردا ثم جلس بجوارى على حافة السرير وهو يرمقهم بنظرة تشى بأنه حدس بحسه المرهف اننى متورط فى مشكلة ما معهم ..

- ماذا حدث .. لماذا انقطعت عن الماركاتو ؟ .. أتعرف .. تونيو يسأل عنك !

وابهجنى هذا الخبر ايما إبهاج .. تساءلت :- صحيح ؟!

أجاب بهدوء مواصلا خبره المفرح وقد بدأت نظرته تحمل الكثير من اللوم ردا على ما كتب فى الأعماق عن حالة الجو اليوم ! : - طبعا وهو الذى شجعنى لزيارتك!

اتسعت بهجتى أكثر حتى ملأت قلبى كله بالنور الذى شعرت أنه

أشـع مـن عينـي وحـواشى فمـى ومـا اظـن إلا أنـه لم يجـد مـن وجهـى المـكان الـكافى لـه فانطلـق مـن كل خلايـاى وأنـا أحـاول بـكل طاقتـى الإمسـاك بهالاتـه كيـلا يكـون انطلاقـه أشـد أو إلى مـا حـد فأتحـول إلى شـمس صغـيرة تتوهـج حريقـا لتـضىء كـون أنفـس ظليمـة ! .. وإبـان ذلـك تسـاءلت ثانيـة وكأننـى لا اصـدق :- صحيـح هـو الـذى شـجعك ؟!

اسـتأنف صديقـى المخلـص نظرتـه بنفـس المعـان وبتركيـز أكـبر قائـلا بنفـس اللسـان : - طبعـا وهـل أنـت هـين الشـأن عنـده ! .. إن مقامـك كبـير يـا اخ لكنـك للأسـف لا تـكاد تشـعر بـه لشـدة تواضعـك وطيبتـك التـى يفهمهـا البعـض خطـأ !

سرت كلماتـه فى نفـسى مـسرى الـدواء الشـافى فحضنتـه وأنـا أشـكره وأردد ردا عـلى مـا عـلا الوجـوه الكالحـة مـن فضـول ووجـوم :- نعـم أحضنـك فـما أبـدع العـلاج بالأحضـان !

قـد فهمـوا المغـزى ! وتبـادل معهـم فى الخفـاء وبغـير تصريـح لغـة لا يفهمهـا غـيره وغيرهـم أكـثر جـلاء وتعلـل الأخـوان فاضـل بأمـر مـا وانسـحبا وكأنهـما قـد توقعـا حـدوث شىء لا مصلحـة لهـما فيـه .. أمـا لطفـى الـذى وإن كان يعتـبر بحكـم آصرة انتمائـه للإسـكندرية مـن نفـس العصبـة لكـن بالقطـع آل الاسـكندرية كلهـم ليسـوا عـلى شـاكلة هـؤلاء ! .. ويمكننـى الحكـم بأنهـم فى مجموعهـم كرمـاء أسـخياء أخويـاء يأبـون

الضيم والظلم شأنهم فى ذلك شأن باقى سكان الأقاليم الأخرى سيما وإن استشعروا أن نقطة الضعف أو الخور فى إرادة خصومهم ترجع لخنوع تام لشعور فياض بالعرفان بالجميل مثل الذى أسرنى به ليوم القيامة هذا الكمال الناقص ! .. لكن أحدا لم يكن يفهم هذا غير رفيق العمل فى السوق الوفى الملم بجانب لا بأس به مما كنت قد قصصته عليه من أحوالى المرتبكة وحيرتى وأنا امخر عباب البحر على ظهر السفين .. وأن لكمال الفضل كله فى انقاذى مما كنت فيه ..ولكى أإلى هذا الحد يكون استغلال شعور الوفاء الخالص ؟ .. أأستحق هذه المعاملة وأوضع فى مصاف الأطفال وذوى الغفلة والعقول الذاهبة التى تستحق فرض الحجر أو الوصاية عليها لمجرد أننى أولى هذا العرفان بالجميل كل عنايتى من قبيل التسليم كأنه قضاء وقدر! .. والله هذا أمر غريب لا يقبل به إنسان فى أى زمن وأى مكان!

وأغرب منه احتفاظى بالنبالة لمن لا أهل لها ولا استحقاق غير المعاملة بنذالة!

وهكذا انسحب لطفى من الحجرة أيضا متعللا بأنه تذكر أن عليه أن يجرى مكالمة هاتفية مع صاحب المطعم الذى يطمع فى العمل لديه .. وبتلك الطريقة خلت الغرفة إلا من الأخوة كامل والأخ عادل فى ناحية .. وأنا وصديقى فى الناحية الثانية بحيث يمكن باستبعاد

التوأمين لأنهما كانا رهيفين تطيرهما نفخة هواء ! التطامن إلى أن الكفة شبه متعادلة وتميل ناحية الأربعة قليلا لأن " النواه تسند الزئر " على حد القول الشائع .. ثم أن منيرا (ما شاء الله) كان قوى البنيان متينه قد أكسبة طول العمل ومشقته بالسوق عضلات مفتولة وقوة ساعد يعمل لها ألف حساب .. والتيت كان قصيرا نحيل البدن بيد أن هذا لم يمنع أن يشى مظهره بقوته وفتائه فنحوله اقتصر على قلة من رخو اللحم والدهن وكثرة من العصب والعضل! .. فضلا عن اننى تساءلت بغتة :- لماذا أضع التيت فى تلك الكفة معهم ؟ ..

ودار داخلى حوار يقيمه فحدثت نفسى بأن الشاب لم يقل سوى أنه يعرض علي بحكم إقامته الطويلة بإيطاليا المعاونة .. ويصل بعرضه إلى درجة أننى أستطيع أن اعتمد عليه واعتبره مسئولا عنى ! .. فلم لا يكون عرضه هذا لوجه الخير وأنه يبغى مساعدتى بلا غرض .. أليس محتملا أن يكون ذا نخوة وشهامة على غير ما اعتقدت .. قد يكون إنى لم اختبره بعد ! .. ولذلك يجب أن أحسن النية فيه واثق به وهو حقه لا أغمطه إلى أن يبدى العكس ! .. كما أن التناقض الحقيقى ينحصر بينى وبين كمال فحسب وهو لا يعدو أن يكون مجرد تناوش وتلويح ببوادر زعامة لم تنضج إستحقاقاتها ولم تصل بعد لمرحلة الصدام .. فلم أفترض أن الشقيقين الآخرين تروق لهما

لعبة القط والفأر معه وأنا لم أكد أتعارف إليهما وهما أيضا .. وكيف يبدأ التعارف بمعركة ؟ .. إذاً إذاً فالأمور كلها بيدى وعلي أن أدفعها فى الطريق الصحيح .. طريق السلامة وبسرعة قبل أن تتعقد وتوغل فى طريق الندامة بلا عودة ..

- تعال يا عادل اجلس بجانبى .. وأنت يا مجدى ويا نبيل لماذا تقفان هكذا .. تعاليا واجلسا انتما أيضا فلابد أن تعب السفر قد حل بكما .. تعالوا جميعا يا اخوان ما ينبغى أن تبدأ معرفتنا بتلك الطريقة .. قد وقع سوء فهم بينى وبين شقيقكما ولا يجب أن نترك الأمر يتحول من سوء فهم إلى سوء تفاهم ! .. نحن جميعا أخوة وابناء وطن واحد ونواجه عين الظروف فى الغربة وإن لم نعاون بعضنا ونكون معا على الخير والشر فلن ننجح فى غربتنا .. بل لن تقوم لنا قائمة .. وأنت يا أخ كمال ..كان الثلاثة الآخرين قد تنفسوا الصعداء وجلسوا وبانت عليهم أمارات الارتياح مما أقول فقمت إلى كمال وجذبته من يده أدعوه للجلوس ومواصلا حديثى :

- لماذا أنت صامت شاحب الوجه هكذا ؟! .. يا أخى فكها لن ننال من الدنيا ما يستحق كدرك .. نعم .. تبيت على نار تصبح رماد ! .. هل غلطت فى البخارى ! .. لا يا أخى لا ليس لتلك الدرجة .. ثم لا تنس أن تتذكر أنك صاحب فضل علي واننى مهما فعلت لك فلن

أوفيك حقك من الجميل الذى يطوق عنقى ! .. وأنا الآخر لكى لا انسى .. أرجوك ألا تتمادى فى شد حبل الجميل بكل قوتك وإلا كما لا يخفى عليك .. فأنت ذكى ونبيه .. اختنقت من قوة شدك !

وبان على وجه كمال أنه يريد أن يقول شيئا فلم أعطه الفرصة وأردفت :- لا .. لا تقل شيئا .. أنت لم تفعل ما يستحق الذكر حتى تعتذر !

وبان عليه مرة أخرى وبإصرار هذه المرة أنه يروم أن يتكلم فعلا صوتى حتى ألجمته واستتليت لأفحمه : - قلت لا تقل شيئا فأنا أعلم طيب معدنك كمسيحى مصرى أصيل!

واستدرت وأنا أدرك أن تكون كلماتى قد دغدغت بل وأطاحت عقل كمال من شدة التباه والزهو ! إلى منير أحدثه بدوره قائلا :

- وانت أيها الرفيق المخلص لا يأخذنك بى أى قلق علي فأنا بين إخوة محبين فى أطيب حال فقط هجعت قليلا من شدة البرد وستجدنى إن شاء الله بالسوق فى بكره الغد إكراما لخطوتك العزيزة ولمقامك الأعز !

أسرع منير يسأل كأنما يذكرنى :- فى الرابعة والنصف على الأكثر

أجبته بثقة :- سأركب البولمان !

كأنـه لم يكـن مطمئنـا إلى صدقـى كـرر السـؤال ولكـن بصيغـة أخـرى :- ولـن تركـب معهـم الـترام البطـىء كالسـلحفاة !

أجبتـه وأنـا اضغـط عـلى يـده متطلعـا إلى الآخريـن بنـوع مـن الثقـة والسـيطرة وكأن مقاليـد الأمـور جميعـا فى يـدى وأننـى الـذى اختـار للجميـع :- بـإذن اللـه نحـن عـلى قلـب رجـل واحـد وسـنركب البولمـان جميعـا !

عندئـذ انفجـر كـمال عـلى حـي غـرة قائـلا بغيـظ :- تكلـم عـن نفسـك فقـط !

فهتـف بـه عـادل وشـقيقاه لمـا سـمعوا لهجتـه التـى لا موجـب لمـا وراءهـا مـن كمـد قائلـين فى صـوت واحـد :- مـاذا جـرى لـك يـا كـمال ؟ .. كـف عـن تلـك المهزلـة .. مـاذا تريـد منـه ؟ .. الرجـل لم يخطـىء فى حقـك عـلى العكـس يتكلـم كلامـا جميـلا وعاقـلا وانـت مـصر عـلى انـكارك لـه .. قـل لنـا مـاذا عسـاه يصنـع لـك لـكى تـرضى ؟!

اسرعـت اسـتحثة عـلى الـكلام منتهـزا الفرصـة لأزيـده عزلـة :- نعـم قـل .. قـل .. أنفـث مـافى قلبـك ! .. أنـا تحـت أمـرك .. ولأنـه كان يعلـم انـه مـن العيـب كل العيـب أن يتفـوه الإنسـان بكلـمات الحقـد السـام والحسـد المدمـر علنـا ودونمـا خجـل أو مواربـة .. لم يجـد مـا يقولـه أو يفعلـه غـير

أن رفع رأسه الصغير فى استعلاء وكبر وقال موجها حديثه لأخوية دون أن ينظر إلي أو إلى أحد :- هيا يا نبيل وانت يا مجدى نفض الحقائب لنر ماذا أحضرتما لنا من بيتنا فى اسكندرية !

صاح عادل نافذ الصبر : - ليس قبل أن تجيب السؤال !

ولما لم يتحرك شقيقاه لأنهما كانا فيما يبدو فى حيرة مثل الجميع يتشوقان لسماع إجابة صرخ فى وجهيهما بعصبية

- قلت لكما قوما أنتما الاثنين ألا تسمعان كلامى !

وتحرك الشقيقان على مضض فأسرعت أقول وأنا اهدف إلى تكثيف شعوره بالغيظ والعزلة أكثر لإيلامه : - لو أنك فقط أجبت السؤال !

فالتفت إلى التفاته كانت من السرعة والحدة بحيث توهمت أنه بتلك الحركة خالع عنقه لا محالة ! وقال وهو يرغى ناثرا اللعاب من شفتيه على وجهى لشدة غضبه وإيغار صدره :- ولو أنك كففت عن التظاهر بالعقل والحكمة ! .. أنت عاقل حكيم أنت ؟ .. إنك يا بنى كدت تطير عقولنا وتذهب بما بقى من رضانا وقناعتنا بنصيبنا فى غربتنا وانت تقرر الرحيل وبالطائرة من تورينو سائلا إيانا أن نحسن عليك بحكم شعور المواطنة ما يكمل ثمة التذكرة ! .. ماذا حدث لك أنت ؟ .. هل تستطيع أن تجيب ؟ .. إنك .. إنك حقا فلاح

obeikandl.com

غريب الأطوار كما سبق ووصفتك ! .. أجل فلاح .. فلاح لا يعرف فضل أسياده .. فلاح ناكر للجميل !

- وماذا فعل لك لترضى ! .. كيف لم يعرف فضلك عليه يا سيده وتاج راسه ! .. كيف أنكر جميلك ؟!

هتف منير محتدا بلهجة ساخرة فلم يجد كمال ما يقوله أو يفعله ثانية غير أن أمسك بأخويه وأخذ يجذبهما للخروج جذبا من الحجرة قاصدا الحجرة الكبيرة التى يقيم بها طالبا كلية الهندسة ولطفى والتى تركا بها حقائبهما فهى تسع عشرة أسرة والمشغول منها ثلاثة فقط .. أما عادل فكان قد وضع حقائبة فى غرفة الأخوين فاضل حيث السرير الثالث المحجوز له .. فكرت بسرعة أنه سيكون من الصعب علي الإقامة بعد الآن فى تلك الغرفة مع كمال وخاصة اننى كنت افهم ما بين التوائم من ارتباط ووجدتها فرصة كى اضيف إلى مكاسبى مكسبا أخر سيقدره الجميع لى وبالذات نبيل فأسرعت قائلا وأنا استوقف ثلاثتهم :- لحظة واحدة من فضلكم أين انتم ذاهبون ؟ .. هذه حجرتكم ابقوا انتم فيها واحضروا حقائب نبيل إليها .. أنا أعرف أن التوائم يحبون الإقامة معا ولذلك سأخرج أنا.. ولم أضع وقتا وتحولت إلى حاجياتى وبدأت أجمعها واضعها فى حقيبتى أو اكومها فوق بعضها فوق الحقيبة حسبما اتفق .. إذ أننى سأنتقل إلى غرفة

مجاورة فقط ولن أسافر .. وإمعانا فى حبك المناورة وحذق الأمور التى لم أكن أرمى منها إلا إلى تضييق الخناق أكثر وأكثر على كمال.. فعلت ذلك بحمية دون أن انظر إلى احد لأتملى نظرة استحسان أو بسمة إكبار .. وما تم لى الأمر واصبح من المحال ألا انظر إليهم اعتدلت بأنفاس متسارعة واجلت النظر فيهم ..

كانوا جميعا وقوف فى اماكنهم لا يتحركون قيد انملة وكأننى قد ربطتهم إلى قيود غير مرئية بتصرفى هذا .. لم أبد اهتماما وخرجت حاملا متاعى من الحجرة تاركنهم فى اماكنهم مشدوهين ..لحق بى صديقى منير وتمتم بصوت هامس :- هذه فرصة نخرج سويا من البنسيون وتقيم معى .. قلت له وأنا اواصل المسير دافعا باب الغرفة المقصودة وبصوت خفيض :- لا تخف علي ! .. قد رأيت بنفسك أننى أعرف تماما كيف أحمى نفسى .. وأنا لن اسمح لشخص تافه مثل هذا أن يخرجنى من البنسيون .. إننى أنا الذى سأطارده بعرفانى بالجميل لا هو !

وهز منير راسه باستغراب ممزوج ببعض الاسف وهم يتمتم :- إن بوسعك أن تكفى نفسك مئونة كل ذلك .. أنت غريب وأنا لم اكن اعرف انك بهذا الدهاء، فضحكت سعيدا ومنتشيا بهذا الانتصار الذى حققته منتهزا كل السانحات من الفرص قائلا :

- وسنتقابل غدا فى الرابعة والنصف فجرا ..

سألنى برفق بعد لحظة من صمت :

- هل أنت واثق إلى هذا الحد أنهم سيركبون معك البولمان ؟

أجبته :

- قد زعزع كمال ثقتى لكنك على الأقل سترانى !

تمتم وهو يمد لى يده :

- أدعو الله أن تنجح ولو مع نفسك !

فهززت يده بحرارة وقلت :

- سأنجح بإذن الله وسأعرف كيف أمسك بعقلى زمام هؤلاء الأولاد !

وتركنى وذهب فجلست على حافة السرير الجديد أتسمع إلى وقع حذائه بالطرقة .. ثم بعد صوت فتح الباب وصفقه خلفه بعد أن خرج إلى سماع وقعه على الدرج إلى أن خفت صوت الدبيب وانتهى فأدركت انه انطلق فى الشارع .. وانطويت على نفسى أسائلها معنى ما حدث فى الأيام الماضية وما انتهيت إليه من انتصار رائع .. ولم أجد بدا من التسليم بأن هذا الكمال لم يجانب الصواب فى إعلانه عن غرابة أطوارى وأننى مجرد فلاح والصورة الذهنية المحمولة عن الفلاح منذ القدم أنه أجير فى أرضه وأنه لا سيادة له عليها فهو إما سيده إقطاعى أو الدولة .. ولعل هذا كان سبب طمعه في وعدم

obeikandl.com

تحرزه فى معاملتى أو تأدبة فى تلك المعاملة التى لا تليق بأبناء الوطن الواحد فى الغربة .. ودفعنى التفكير دفعا طوال النهار إلى ولوج آفاق بعيدة فى أنه ربما ينظر إلي كمسيحى فى إيطاليا نظرتنا نحن المسلمون للمسيحيين فى السعودية ! .. ثم استبعدت ذلك الضرب من الفكر حتى لا يكون حجر عثرة فى طريقى وأنا أحاول التأقلم والتعايش مع واقعى الجديد .. فضلا عما أومن به من ضرورة الفصل فى قضية الانتماء بين ما للبلدان وما للأديان من تأثير .. فالخلاف بين المذاهب فى الدين المسيحى أبعد مسافة مما بين الأوطان وناهيك عن الأديان ! .. بمعنى أنه يجعل الفارق فى التعايش بين أصحابها وبين أصحاب الديانات الأخرى كالإسلام غير ذى موضوع ! .. وثمة مثل يمكن ضربه فى المحافل عند الحاجة لتبادل الحوار بين النبهان هو أن المسلمين الأوائل عند فتحهم مصر كانوا أرفق وأكثر عدلا بآلها النصارى من الرومان الذين كانوا على نفس الدين ودفعهم خلافهم العقدى للتنكيل بهم وتشريد مطرانهم فى القفار والوديان .. فأعاده عمر بن العاص لكنيسته وأمنه وكرمه بلا حسبان !

***

على الرغم من أن النهار كان مشحونا بأسباب القلق والاضطراب غير أننى نمت الليلة مبكرا هانئا قرير العين واستيقظت فى الوقت

المناسب قبل الفجر وأنا أغط غطيطا شديدا أحسست به انني استقطع جسدى كله من احلى ساعات النوم .. وبارحت الغرفة إلى دورة المياه .. آه لكم كان الطقس باردا خارج الغرفة ! .. ولكم اشتدت وطأه البرد القارس وأنا استحث خطاى بعد أن غادرت البريسو أيضا..

كانت رخات الثلج تتساقط وتتكاثف فوق كل شيء حتى غطت وجه شارع الأمير توماس وأسطح السيارات المنتظرة وواجهات وأسطح البيوت وما من حى يسعى فى الضباب والصقيع غيرى وغير نفر قليل من الناس كنت أراهم يقطعون تلك الساحة فى نهاية الشارع إلى محطة البولمان على الناحية الأخرى من كورسو فيتوريو ..

وما دنوت منهم حتى سمعت أزيز أنفاسهم التى راحت تتصاعد من افواههم كأنها سحب من الدخان ورأيتهم يخبطون صدورهم بأكفهم ويضربون أحجار الطوار الذى اتسخ بياض الثلج عليه عند الحافة بأقدامهم طلبا للدفء .. وانهالت بللورات الثلج على رأسى ووجهى وأكتافى وبللتنى فلم أبال .. اقشعر جسدى كله واستشعرت البرد يخرم جلد حذائى غير المبطن إلى أكف قدمي كأننى أمشى حافيا على أديم الأسفلت الذى تجلد وصار له نعومة وزلق الزجاج ليسرى بعد نفاذه من اللحم عبر العظام ملتقيا مع ما تصاعد من الأرض إلى مؤخرتى ليواصل صعوده من عظم الحرقفة والعجز إلى

سلسلة فقرات الظهر فالعنق فالجمجمة .. هذا طريق ! .. أو مخترقا أمعائى وحوايا بطنى وصدرى ليعقر خلايا مخى مشعا كالجنون من قشرته إلى فروة رأسى هذا طريق آخر !

وجاء البولمان فى الرابعة إلا عشر دقائق ساعة استيقاظ الرفاق فى البنسيون من النوم .. ركبته أو بالأحرى لذت به وأنا افكر فى منظر الدهش الذى سيعلو وجوههم ومنظر امتقاع وجه صاحب الجميل غير الجميل ! حين يكتشف معهم اننى بارحت البنسيون منفصلا عنهم .. فأدفأتنى حرارة مكيف البولمان وحرارة السرور لما راج فى ذهنى من خواطر الانتصار ! وقلت لنفسى بحبور " لم لا .. قد جاء الوقت الذى ينفصل فيه الوليد عن أمه والربيب عن مربيه والمريد أو الطالب عن مريده أومعلمه .. باحثا لنفسه عن مكان خاص به يمتلكه هو .. يميزه عن غيره فى حافلة الحياة ! .. وما أنا بأول ولا آخر الأتباع المستقلين أو المنشقين ! "

تبسمت فى هناءة وما أظن إلا أن وجهى قد احتر وتورد من الخارج والداخل لهذا الخاطر وغيره .. ومكث على توردة يتدفق حيوية ونشاطا بالرغم من أن الطبيعة كانت تتربص عن كثب وتحيك غلائلها الجليدية على أوسع نطاق طوال النهار .. هذا التورد الذى ما كان ليتفوق عليه غير تورد وجه منير الرفيق المخلص حين وقع

بـصره عـلي وهـو واقـف بالبوابـة الرئيسـية يسـتعجل حضـورى .. مـا وصلـت إليـه حتـى تلقـانى متهلـلا كمـن عـثر بكنـز ثمـين وأمسـك بيـدى وسـار بى إلى سـاحة التنزيـل هنـاك حيـث اكتشـفت أن تونينـو لم يصـل بعـد .. اسـتبشرت خـيرا بتلـك البـادرة ولسـان حـالى يـردد وسـيظل يـردد إلى أن يصـل سـعادته " هاأنـذا أصـل إلى سـاحة الـشرف قبلـك يـا حـضرة المقـاول ! "

احتسـينا فنجالـين مـن القهـوة الإيطاليـة (الكابـو تشـينو) التـى كان يـدور بهـا عـلى مـن وصـل مـن الشـيالين سـاق يحمـل بيـده أبريقـا وباليـد الأخـرى " صينيـة "عليهـا بعـض الفناجيـل فاستشـعرنا المزيـد مـن الحميـة والتماسـك .. وناهيـك عـن أوهـام الـدفء المفتعـل !

ومـا هـو إلا أن جـاء المقـاول ورشـقنى لأول وهلـة بنظـرة تأمـل مشـوبة بفضـول يقـول " عفاريتهـم متـى تطلـع ! " ثـم حيـا الجميـع بهـزة رصينـة مـن رأسـه فحيينـاه بأحسـن منهـا بأصـوات مسـموعة وعامـرة ! وتنـاول بـدوره فنجـالا مـن القهـوة وبـدأ يرشـف مركـزا باصرتيـه عـلى مـا تقعـان عليـه دون اختيـار مـما ألقـى فى روع الجميـع أنـه يفكـر بعمـق !

ثـم مالبـث أن جـاء رهـط مـن الشـيالين الإيطاليـين الأقويـاء الذيـن لم أرهـم قبـلا وارتسـمت فى عينـى علامـة اسـتفهام عـما عسـاه حـدث فى غيـابى .. قـد كانـت الأغلبيـة السـاحقة للمصريـين والآن تتهـدد ! .. قـرأ

رفيقى المخلص تساؤلى وسمعته يردد :

- لا تقلق سرعان ما يسأمون أو يهربون إلى الحانات من برد يناير وقر فبراير ! .. ديسمبر الذى يشهد فى نهاية أسبوعه الثالث المولد الرسمى للشتاء لم يبدأ بعد !

هالنى أن اكتشف من قوله أن بيننا وبين الشتاء وقت تساءلت بجزع :

- كل هذا الثلج والبرد والشتاء لم يشرفنا بحضوره ؟!

قال مبتسما بسمة العارف :

- مناخ تورينو رطب شبه مدارى وأقرب للمناخ القارى لقربها من جبال الألب !.. الشتاء شديد البرودة لكن لا تقلق البدن المصرى يتحمله بعون الله !

نظرت أمامى لأشغل نفسى عما اكتنفنى من مخاوف فرأيت الشيالين من بنى جلدة المقاول وقد تناثروا حواليه يتبادلون معه أحاديث هادئة مهذبة تشى بما يشعرونه تجاهه من تجلة واحترام ..

وما هو إلا أن امرنا جميعا بالدخول للعمل فدخلنا ونحن نهرول فى الأرجاء بزهو وعزم كفريق وطنى نزل الملعب ! لحظة سماع صفارة

obeikandl.com

الحكم فأخذ أفراده يتقافزون صحة وتفاؤلا ليرهبوا خصما شرسا عنيدا .. وتم توزيع الأدوار فجاء نصيبى الوقوف على ظهر مقطورة لأتولى عملية الرص والتستيف تلك التى ما كان يقوم عليها إلا كل شيال خبير ! .. أمرنى صاحب البضاعة بأن أجعل كل رصة عشرة صناديق وفهمت معنى ما قاله بالإيطالية فى يسر لأننى كنت فى ذورة الانتعاش البدنى والروحى .. أخذت اعمل بفرح ومرح واثب فى مكانى وأنا اتحفز لاستقبال الصناديق وحملها وتأمين مكان استقرارها فى الرصات بإتقان من تدرب وعرك هذا العمل سنون طوال على الرغم وربما بسبب أننى كنت اعمل فى العراء متعرضا للبرد والجليد المتساقط الذى يلزم للتغلب عليه الحركة النشطة الدائبة ..

وجاء تونينو الطيب ويبدو انه لمح اننى ارتدى ثيابا خفيفة لا تناسب ظروف الطقس .. شاهدته من طرف خفى وأنا أواصل العمل فى حمية وحماس أكثر لأنال إعجابه واستحسانه ينادى أحد أتباعه ويسر فى اذنه كلاما هامسا هز له التابع رأسه فى تفهم وهو يشاركه النظر إلى قبل أن يبتعد ويختفى .. بقى الرجل ملتفتا نحوى يشملنى بنظرة عاطفة وهو يواصل هز الرأس كما لو كان يهزها ألما فى تلك الآونة الأخيرة .. وعاد تابعه يحمل شيئا بين يديه ترقبت مختلسا النظر فرأيته وقد تناول هذا الشىء منه يقترب به نحوى أثناء انشغالى بالعمل الذى أغرقنى وبلل جميع ملابسى فى منطقة

الصدر والظهر بما فاق البلل الذى نالنى من ندف الثلج التى كانت تذوب بمجرد ملامسة قفاى منزلقة إلى ظهرى أو وجهى وجيدى منزلقة إلى صدرى وفوجئت به ينادى علي قائلا :

- هيه .. أنت يا ميمو .. خذ هذا يدفئك !

وطوح بهذا الشيء فى الهواء تجاهى فتلقفته بيدى وعلى صدرى فإذا به سترة جلدية غالية من هذا النوع المبطن بالصوف الثقيل .. فرحت بها أيما فرح وشكرت الرجل وأنا اكاد ابكى من شدة هذا الفرح ومن شدة انفعالى برقة إحساسه وشعوره .. على غير الصورة التى كنت أضعها فى ذهنى عن مقاولى الأنفار لاسيما هؤلاء الذين ينخرطون فيما يسمى طائفة " عمال التراحيل " فى ريف مصر حيث مازالت بعض الأعمال الشاقة مثل تطهير الترع والمصارف الخصوصية والكثير من أعمال خدمة الأرض الزراعية تتم يدويا ..

ومازلت ألهج بالشكر للرجل حتى ضج بى وابتعد ليتيح لى فرصة العمل حيث تكاثرت علي الصناديق فى فترة إنشغالى به .. وما لاحظت ذلك حتى تحولت إليها وبعد أن كنت أحمل فى المرة صندوقين أو ثلاث حملت فى تلك المرة رصة كاملة منها تبلغ عشرة صناديق دفعة واحدة ورصصتها فى مكانها وتحولت إلى غيرها سائلا المزيد وفى لحظات تداركت ما تراكم واتاح لى رفاق العمل هدنة

لارتداء " البول اوفر ! " على عجل فنظرت إليهم ممتنا ولم يفتنى أن أتخيل رؤيتى لأمارات الحسد تنقدح من بعض الأعين !

لكن ذلك لم يدم فى نفسى أكثر من وقت النظرة لأن الهدية ومعناها تكفلت بتدفئة وتعمير دواخلى بأكثر من خوارجى فشعرت بعد ارتداء السترة انها كانت تنقصى فعلا فلم يعد الثلج يذوب على قفاى الساخن ولم يعد يتسرب ماؤه إلى الداخل مفتفيا هذا الحظ الغائر فى منتصف الظهر ومنزلقا إلى ما بعده !

كما أننى شعرت بنوع من الامتلاء الجسدى منحنى إحساسا واهما بأننى اغلظ واسمن واثخن فتزايد تبعا لذلك نشاطى فى العمل وشعورى بالخفة والقوة فيما أعمل ..

انتقلت بعد أن امتلأت المقطورة إلى مقطورة ثانية فارغة وضعت بجوارها .. ملأتها ففرغت حمولة كاميون ونصف كاميون أخر وأنا وحدى أقوم بمهمة الرص ملاحقا عمل حوالى عشرة شيالين يعملون على الكاميون فى وقت واحد ..

كان هذا مثار فخر واعتزاز لى ولشخص آخر نبيل يحبنى هو منير الذى كان لا يفتأ ينتهز فرصة اقترابه منى أو ظهوره فى مقدمة الكاميون الذى يعمل به لينادى على باسمى الإيطالى الذى حرص

على مناداتى به كثيرا أمام الإيطاليين ليعرفونه ويحفظونه واثناء ذلك يقول : - الشدة يا بو حميد !

فيغمرنى الحماس وأجدنى أرد عليه بتلقائية مرحة وأنا منكب على عملى : - الشدة بالله ..

وأنشغل لدرجة الغياب حتى لا أدع ثغرة فى نفسى أو بدنى يتسلل منها نصب أو خدر أو طائف من وهن إلى أن يأتى الوقت المأمول لتشهيل العمل الذى يحدده تونينو وفق ما يرى أو بإشارة من نائبه الكهل الذى يرنو إليه جميع الشيالين سواء من سبق فرحا بالمدد أو من ينتظر ويسوءه كثرة العدد ! .. وتندلع فى أول الساحة على حين غرة جلبة أصوات محبوبة كأن أصحابها خرجوا من حبس بأدب .. أعرفها ولا أنظر لعلمى السبب ! .. لا ليس قلة احتفال منى بل خشية الخروج من غرق العرق الذى لا يعرف الهدنة او التمهل فإذا ما رفع غارق مثلى هامته لالتقاط الأنفاس مرق ! .. إلا على ما أذكر مرة واحدة توافق فيها أوان دخول " السكلية " كما ألفنا تسمية هذا الرهط اللاحق من العمال على سبيل المزاح الذى مبعثه الأسى ! .. عين اللحظة التى أودعت فيها آخر صندوق على ظهر مقطورة .. فاتيح لى فرصة فراغ قصيرة لم أكن لأجرؤ فيها على عدل ظهرى لأتفرس وجوه الملتحقين لو استشعرت أنهم غرباء ولكن لأنهم كانوا من رفاق البنسيون طاب لى أن أثب وثبة الليث أو بالأحرى القط

البرى على الفريسة ! التى تمثلت فى المقطورة الخامسة بالنسبة لي.. وأن أتعمد أن اواجههم بعينى لحظة ظهورهم أمامى وأنا أصيح صيحة طرزان الشهيرة فى الغابة ليؤكد سيطرته ووجوده القطبى ! تعويضا داخليا منى عن لحظات قطع تيار الطاقة الذى يتبدد إن تردد ! .. فى البداية ظهر الأخوان فاضل فحييتهما وأنا أردف النظرة الساطعة والصيحة المدوية برفع كلتا يدي لأعلى علامة على الصمود والنصر ! ..

على مضض ردا تحيتى وهما يبسمان لى فى بهوت ! واردف احمد قائلا وعيناه تتقدان مع كل حرف يتفوه كأنه لا يعى :

- عينى عليك باردة يا فاكينو !

فلاحقه شقيقه قائلا بلهجة ساخرة منغمة تقطر كمدا :

- بل قل ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع !

تجاهلتهما وظهر لطفى برفقة مجدى شقيق كمال فى تلك الآونة فسنحت فرصة الإمعان فى التجاهل بتحية آخر من حضر ولا أدرى لم رفعت قبضة يدى فى عزم إبان ذلك لهما ولكل الرفاق بل لجميع من فى الساحة من مصريين وإيطاليين وأكاد أقول لكل ذى عينين من البشر يروغ فيهما نور المثل العالمى القائل من جد وجد لأن رفعة

يـدى إمتـدت لأعـلى كأننـى أشـهد السـماء ! .. لم أتوقـع والحالـة هـذه أن يـرد تحيتـى فى التـو أحـد وفعـلا مـر عـلي الرفيقـان وهـما ينظـران إلي وقـد أخذتهـما المفاجـأة ونـال مـن نظراتهـما الذهـول لدرجـة انـه فـات عليهـما رد تحيتـى .. برهـة قصـيرة ثـم مـا لبثـا أن تـداركا الأمـر وتبسـما لى وردا التحيـة فى بهـوت أيضـا !..

ثـم ظهـر بعدهـما كـمال ومـا وقـع بـصره عـلي فى وقفتـى تلـك فـوق المقطـورة تياهـا أختـال حتـى تخاصمـت عينـاه فى الحـال وتنازعتهـما زئبقيـة إحـولال ! فنـال " البلوفـر الجديـد " الـذى أرتديـه جـل اهتمامـه ولم يحـدق إلا فيـه وسـال لعابـه وكلامـه فلـم يـدر بأيهـما يبـدأ وغلبتـه شـهوة البلـع فانزلقـت كتيبـة كلامـه كلهـا لجوفـه وبعـد أن اسـتوفى البلـع حقـه طفـرت المؤخـرة وسـمعته يـردد بضعـف :- بـول .. أوفـر .. شـمو .. زيـت !

ثـم عاودتـه نوبـة البلـع فأصيـب بمـا يشـبه الفـواق وخيـل إلي أنـه عـلى وشـك أن يلفـظ ذاتـه وقـد التصقـت نظرتـه بالنسـيج الجلـدى الـذى كان يلتمـع ببلـل المـاء ويضفـى عـلي وأنـا اثنـى الذراعـين واحنـى الظهـر أو افردهـما تحـت أضـواء تلـك اللمبـة الشـاحبة وسـط طبقـات الضبـاب ونـدف الثلـج التـى كانـت تنهـال عـلى كل شىء فـلا تفلتـه إلا وقـد غـص بريقـا منظـرا يخيـف الأطفـال ! .. وبغتـة حـث خطـاه مسرعـا كيـلا

يتورط معى فى نظرة متبادلة أو تحية ينشد الاختفاء بين الكاميونات فاصطدم بشىء وندت عنه صرخة ألم مكتومة ثم توارى وهو يعرج الأمر الذى ملأنى غبطة وألما فى ذات الوقت .. الغبطة لأنه قدم الدليل على اننى صحيح ولا يصح غير الصحيح ! والألم لأننى استشعرت الرثاء له والعطف عليه إذ ماذا يجنى من غيرته وموجدته غير عمى البصيرة وعدم التحرز للأشياء التى تحيط به مما يجعله يصطدم بها ويتوجع كما حدث الآن وهززت رأسى أسفا وواصلت العمل بشعور أخر وهمة أخرى وأنا أغنى :

- وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا ..

وسمعنى أحد العمال (لم أكترث له لأتبين إن كنت أعرفه أو لا أعرفه) فسألنى :- ماذا تبغى أن تثبت؟

أجبته وأنا أثابر على عملى ممعنا فى عدم النظر ناحيته مستسلما لرغبة عارمة فى التفيهق والتشدق :

- لا أدرى يا صاح أى كلمة أستعمل لوصف فكرتى ! .. إستلهام ؟ .. إستنفار ؟ .. آه .. إستنهاض ! هذه كلمة بسيطة ومعبرة واؤكد لك تحدث مع المغترب معجزة عندما يستنهض قواه الجوانية ! التى طال فى الوطن تنويمها وإلقاء الأغطية عليها ولا أقول إهالة التراب !

- كيف ومن يفعل ذلك ؟

أجبته وقد عيل صبرى من سؤاله الساذج :

- لا هـذا موضـوع يطـول شرحـه ولا يخفـى عـلى أحـد ! .. وللإختصـار يمكـن القـول بـأن المواطـن الـذى تقزمـه مصاعـب الحيـاة الناجمـة عـن ترمـم الهالـوك عـلى الأوطـان الفـول ! .. يهاجـر ويصـير همـه وشـاغله فى المهجـر أن ينجـح ويثبـت وجـوده فتنطلـق ملكاتـه ويتفـوق .. ومـازال يثبـت وجـوده فى مجـال تخصصـه مرحلـة بعـد مرحلـة حتـى يصـير عملاقـا !

- وأنت ؟!

- ماذا ؟

- قـد تعلمـت تعليـما عاليـا واغتربـت .. مرحـى .. هـا هـا ... أراك صرت عملاقـا فى تخصـص الشـيالة ؟!

اسـتفزنى القـول واضطـررت للتوقـف هنيهـة كى أرى مـن المتحـدث إلي ؟ .. لدهشـتى لم أعـثر لـه عـلى أثر .. كنـت وحدى عـلى المقطـورة والصوت كان لصيقـا بى .. شـككت فى آخـر عامـل اصطـف بمؤخـرة الكاميـون ليناولنـى الصناديـق التـى أقـوم برصهـا .. بادلنـى نظـرتى بنظـرة متسـائلة حـيرى دفعتنـى لاسـتبعاده فضـلا عـن أنـه يقـف عـلى مبعـدة .. وعجبـت قـد

obeikandl.com

كان هناك شخص أشعر بحرارة تنفسه وهو يكلمنى فى أذنى .. كيف تسنى له أن يختفى فى لمح البصر .. أوجوده كان حقيقة أم أننى كنت أحادث نفسى ؟! .. وطاردنى السؤال طوال ما تبقى من وقت العمل حتى لم أشعر إلا وصوت إيطالى أجش نعرفه جيدا يعلن مناديا على رأس الساحة :- أولاد .. تعالوا !

فأدركنا أن العمل قد انتهى مع " تونينو " هذا الصباح .. وإذا كنت قد اعتدت فيما مضى من سنى حياتى أن أقرأ أو أسمع من يقول كان الوقت ضحى .. فإنه هنا يتوجب تحديد الساعة وانها كانت العاشرة والنصف عندما هطعنا صوب صاحب الصوت ووقفنا قبالته صفا لينقدنا أجرنا وهو ينظر لكف يده التى تحمل رزمة النقود ولا ينظر إلينا ! ..

كان منظره يذكرنى شكلا بشخصية البخيل فى الروايات التى دارت أحداثها فى أو قرب موطنه وموطنى قديما وحديثا .. كما كنت مدعوا بشدة لهذا السبب للضحك فى حضرته فثمة تناقض بين شكله ومضمونه فما هو ببخيل ! وما أشد معاناتى وأنا أحبس أنفاسى كيلا ينفلت زمامى وأضحك فى مواجهته فأتعرض لعواقب خروجه عن عاداته وتقاليعه ! وأقع فى وهدة قلة الأدب ! .. لكن حمدا لله أن وفقنى فى امتلاك زمامى كل مرة ولم يكشف سترى أمام من ينتظر

وقوع الطير من شاهق ! .. ولعله بدوره لم يخل من بعض الفضل فى نجاتى وامساكى لأنه كان من عادته أيضا أن يتحف القلة الأثيرة لديه من الشيالين بنظرة كلها نظر وكنت أنا طبعا منهم !

وهكذا فى هذا الصباح المتأخر تمت المحاسبة بسلام وتوجهت بصحبة منير إلى موقف " الكاريللو " وأنا لا اقصد استكمال يوم العمل مع احد العربية قدر ما اقصد الاستراحة بعض الوقت فى دفء البار بعيدا عن زمهرير البرد وتناول مشروب ساخن مع صديقى الوفى ..

شربنا فنجالين كبيرين من القهوة الممزوجة باللبن تلك التى تشتهر فى ايطاليا باسم " كابوتشينو " وجلسنا قليلا نستريح ثمة ثم خرجنا بعد أن شكر منير دعوتى لنقف على أحوال رفاق البنسيون ..

التقينا بهم جميعا واقفين مع العربجى الشهير بثياب رعاة البقر الأميركيين وما رآنى ورفيقى حتى وجه إلينا مبادرا إيانا وهو يستعرض براعته وحبه لتعلم الكلمات العربية من بعض الأخوة المصريين وفق ما كان يستطيع نطقه منها استعدادا لرحلة كان يزمع القيام بها لمصر لمشاهدة آثار الفراعنة القدماء قائلا :

- أنا جيتو مبسوط منكم لأنكم ولاد شداد .. أهلا وسهلا سلامو عليكو !

obeikandl.com

فتضاحكنا من طريقته ولكنته وحياه صديقى المرح قائلا بنفس طريقته :

- احنا جينا مبسوطين منك لأنك إيطالى أميركانى عربى سمك لبن تمر هندى ! .. أهلا بيك والسلام عليك !

تضاحك الجميع فسأل مرددا :

- أليك السلام ! .. اسمعوا يا ولاد .. السلام دى من السلاميه ؟

بتخفيف نطق الياء والخاء ! وكان يقصد بها نوعا من اللحم المفروم المتبل على هيئة أصابع مشدودة على خيط كان يحلوا له أن يرفع عنقوده لأعلى وينظر إليه فى لذة وهو يدليه فى فمه ليلتهمه إصبعا بعد آخر وهو يماثل المسمى فى مصر " سجق " بيد أن هذا من لحم الخنزير المدكوك فى أمعائه !

ضحكنا طويلا منه حتى ادمعت اعيننا وكانت بيد المضحك " كاميرا " فأسرع والتقط لنا صورة ونحنن نضحك ثم وقف بيننا واعطى الكاميرا لزميل إيطالى له فقام بتصويرنا معه وبعد أن انتهينا من ذلك تبادل مع الأخوين فاضل بضع كلمات جادة ومع احمد بالذات لأن الآخر لم يكن يجيد من الايطالية إلا " يوم أو مساء أو ليلة سعيدة ! " وفى الحال ركب الاثنان معه الكاريللو وابتعد بهما

للعمل وهو يلوح لنا محييا ووقفنا منير وأنا مع باقى الرفاق لطفى مجدى وكمال كامل أما عن نبيل فقد علمت من حديث الثلاثة معا انه لم يصح من نومة وفضل الراحة فى الفراش عندما رأى تغير الطقس وبرودته وثلجه .. أما عادل التيت فلم يكن مستواه العالى يناسب العمل المتواضع بالماركاتو اطلاقا !

جاء عربجى ثان التقط لطفى ثم ثالث فالتقط " كيمو " أبو الكمال ! وبقى مجدى بيننا فوجدت من الكياسة والسياسة أن اتبادل معه الحديث أى حديث تحية له واذكاء لروح الصداقة بيننا ..

توجهت له بالخطى حتى صرت أقرب إليه منه ! وبدأ حديثنا متأثرا بدرجة حرارة الجو القريبة من الصفر ! ورويدا دبت فيه أريحية واشتعل بحرارة حب الثرثرة فى الجو البارد الذى لا تشرق له شمس ..

بدت واجهات المحلات بالسوق قاتمة كما بدت صناديق الفاكهة والخضر أكثر قتامة وظهر تباينها مع صحائف الثلج البيضاء على الأسطح وأسقف السيارات والثلج المتسخ على الأرض الذى بمرور السيارات على رواسبه السفلى تشكلت خطوطا متوازية أو متقاطعة بنية وصفراء مما تيسر من الغبار ودخان الحارقات ! ونحن نتكلم ونتأمل حركة السوق التى تتعالى وتيرتها فى الشتاء لزيادة الطلب على ينبوع الدفء فى كل من الحركة والغذاء !

وجاء احد العربجية يدعونى للعمل باسمى المنتحل مناديا : - ميمو .. ميمو !

ورغم أن هذا العربجى كان يعتبرنى احد المقربين إليه للعمل معه فإننى آثرت أن أعرض علية الأخ مجدى كامل من قبيل التحية له فى أول يوم ينزل فيه للعمل بالسوق مجربا حظه ونصيبه .. ولأن الإدلهمام فى الطقس يجب أن يخالفه ما وقر بالقلب والنفس ليتكون حسن الطالع ويكون التنازل الجميل من طبيعة الناس لارساء حجر الاساس لصداقات تقوم فيما بينهم ..

- لا تعجب أنا أومن بأن الإيثار أقصر الطرق للعروة الوثقى التى يجب أن تربط أبناء الوطن الواحد وإن اختلفت أديانهم لا أبناء الدين الواحد فحسب !

قلتها له صريحة دون مواربة علة ينشط لإزالة ما أخفقت فى ازالته من نفس شقيقه وفوجئت به يتمتم بصوت لم يسمعه غيرى :

- هذا جميل بشرط أن يظل الوطن وطن والدين دين !

قالها فى عجلة وهو يتأهب لتلقى موافقة العربجى على إحلاله محلى وفى عينيه تساؤل وشبه عتاب وركب معه وهو يبتسم لى ابتسامة مشرقة أستطيع أن اؤكد الآن أنها كانت تصبح أكثر ضياء

واشـعاعا مـن ضـوء الشـمس لـو كانـت قـد طلعـت !

اثنـى عـلى منـير ثنـاء حسـنا لهـذا التـصرف الـذى انكـرت فيـه ذاتى وهـو يهمهـم قائـلا بعـد ذهابـه :

- أنـت بالفعـل أعمـق وأعمـق مـما كنـت أظـن .. لسـت أنـت مـن يخـشى عليـك .. إنى اكتشـفت كل يـوم فيـك شـيئا جديـدا واسـتطيع أن اؤكـد انـه شىء جميـل ويبعـث عـلى الاطمئنـان والثقـة !

قلت له متظاهرا بالتواضع بعد لحظة من صمت :

- لا تعجـب قـد فعلـت ذلـك تحيـة لـه خالصـة وتحيـة لرجـل آخـر ظهـر ! ..

سالنى بفضول :

- من .. من هو الرجل الذى ظهر ؟

قلت وأنا أتلذذ بمحاورته :

- رجل جميل !

- ماذا ؟

- مسلم بحق !

- ماذا تقول ؟

- يعرف معنى وقيمة العروة الوثقى التى لا انفصام لها !

oreikanali.com

- ماذا حدث لك ما عهدتك متعمقا إلى هذا الحد ؟ .. يا أخى قل وخلصنى أين ظهر الرجل الذى جعلك هكذا ؟

أجبته فى هدوء وتركيز وعيناى تشردان بعيدا وبكلمة واحدة :- بداخلى !

فتبسم وربت على كتفى من فوق البول افر الجلدى وقال وهو يشاركنى النظر بعيدا فى نفس الاتجاه بصوت عميق النبرات :- أنا اشعر بك جيدا .. نحن الشباب جميعا ندخل الشرانق فى بلدنا ونقبع بها على الرغم من اكتمال النمو وحتمية خروج الطور الكامل طبقا لقوانين الخليقة .. إلى أن يخرجنا الأهل فى الوطن بواسطة أو رشوة .. أو نغترب لنتفتح هنا فى أسواق الغربة ! ..

وسكت بغتة وشهق وزفر بعمق كأنه يطرد أنفاسا فاسدة ثم مد أنامله وأدار محياى إليه واستعار نظرة باسمة مستنيرة وغمغم مضيفا وهو يرفع ذراعيه وينشرهما حواليه كأنه يستعرض المكان بإعجاب :

- تالله أن الحياة هنا لجميلة على قدر ما فيها من متاعب وآلام ..

قلت بنفس النظرة واللهجة مكملا :- وهذا اليوم أجمل يوم رغم ما فيه من برد وثلج وضباب .. واخلدنا إلى الصمت برهة ثم دقت الساعة الكبرى بالسوق الحادية عشر فتبادلنا نظرة تفاهمنا بها على

انه كفانا ما كسبناه من عمل اليوم لدى تونينو ومضينا من خلال البوابة الرئيسية خارج السوق ونحن نحاذر فى سيرنا ونترسم مواقع اقدامنا لئلا تنزلق بين اخاديد الثلج التى احالها ثقل السيارات والكاميونات من التكاثف الهش إلى الاندماج الصلب الأملس الزلق فى المواضع المنخفضة من هذه الأخاديد .. واانفرط عقد صحبتنا فى نهاية الساحة حيث واصل رفيقى مسيره فى الشارع الممتد إلى محل سكنه ولأنعطف بدورى يسارا إلى حيث محطة البولمان مستسلما لما صرت وحدى لسؤال يزعق فى برج عقلى :

- ماذا عساه يعنى بقوله مجدى ؟!

وأرفع عيني للسماء متجها بهما شرقا وجنوبا شطر وطنى وأهيم بوجدانى مترنما وداعيا بمقطع من غنوة مغن سكندرى يقول :

- يارب بلدى وحبايبى والمجتمع والناس !

إلى أن أصل للمقطع الذى يقول :

- إجعلنى حبة تفرع وتبقى ملايين سنابل !

فيعاودنى السؤال ملحا وأجدنى أردد بعذاب :

- ماذا كان يعنى ؟ .. كلامه له غرض ! .. الدين دين والوطن وطن ..

obeikandl.com

الوطـن ديـن والديـن وطـن ! .. ليـس هنـاك مـا

يدعوللقلـق .. فى الأفـق لا تلـوح نـذر حـدث جلـل وشـيك يضـع الديـن والوطـن عـلى المحـك ! .. الديـن للـه والوطـن للجميـع

لأكـف عـن هـذا الفكـر حتـى لا تتبـادل الفـاء والـكاف الأماكـن ويثـب فى عقـلى كفـر !

وضحكـت مـن نفـسى ! ووقفـت ثمـة أنتظـر وصـول " البولمـان " وأتأمـل وجـه هـذا اليـوم الـذى تناوبـت عـلي فيـه أطـوار ومشـاعر جمـة وغريبـة ..

openkandl.com

obeikandl.com

كان يوما كغيره من الأيام الذى تستقر فيه الرؤية طوال النهار على ضوء قمرى فضى هادىء شفيف (لا يصدر عن القمر !) ينبلج عقب الفجر ويمكن معه تبين الخيط الأبيض من الأسود فحسب ! .. لم يكن هناك اشراق ولم أر شمس أوروبا أبدا فالشتاء جاثم منذ وطأت بقدمى ثرى هذا البلد العريق ! .. وإن كان ثمة وجود لإشراق فهو فى داخل أنفسنا التى كانت أجمل ما فى الكون فى هذا اليوم .. والمصابيح داخل المكاتب والمحال التجارية تذكرنا بأنها على أية حال تتوهج من النوافذ وخلف الواجهات فتبدو مضاءة كبقع حمراء تعلو جبين الهواء الميال للإنقلاب قاتما نافذ اللفحات والضباب ينهال على كل فرجة يمرق منها وكل ثقب ينفذ فيه .. وقد بلغ غايته فى الخارج حيث كنت اقف منتظرا حتى بدت المبانى المواجهة على الناحية الاخرى من الشارع وبرغم الاضواء التى كانت تنفذ منها وكأنها اشباح تلبس فوق هاماتها قلنسوات سود من سحب كابية جاثمة .. وقلت لنفسى " إن الطبيعة تربض عن كثب فعلا وإنها تحيك مكائدها على أوسع نطاق لا ريب ! "

وجاء البولمان على مهل فارتقيته من الباب الخلفى المخصص للصعود ومضى يشق طريقه واديم الثلج يتكسر تحت عجلاته

ويصفع فى صوت غاضب ما بين تلك العجلات منافسا هذا الصفع الأخر لضربات الثلج الهابط من السماء على جوانبه وعلى زجاج النوافذ حولنا .

بلغ البولمان محطتى ونزلت هنا فى حرص وتؤدة شديدين على غير عادتى حيث كنت اقفز هناك من المسماه " مستعجلة " فى الأيام الخوالى من الثلج ! .. بلغت البنسيون لأجد مفاجأة سارة تقدمها لى السيدة مالاندرينو صاحبة البنسيون أو " ماما لوتشانا " كما كان يحلو لزوجها على الرغم من أنها لم تنجب أن يناديها ! .. إذ بمجرد أن رأتنى اقطع من الطرقة الموصلة لغرفة إقامتى الجديدة هذا الجزء الذى تمتد منه فى مواجهتها فسحة صغيرة تعزل جناح اقامتها مع زوجها عن باقى الحجرات حتى نادتنى كأنها كانت تنتظر أوبتى لتسلمنى الخطاب الأول من أبى بل أول خطاب يصلنى من الأهل منذ وصلت إيطاليا .. التقطته من يدها بفرح غامر وما أظن إلا أن وجهى تهلل إشراقا ليشيع الضياء فيما حولى ويخرج من النوافذ ليعلن لإيطاليا كلها عن شروق شمس تعوضها شمس النهار .. مع الاعتذار الجميل لآلها عن تجاوزى حدود اللياقة فيما بلغته فرحتى من شدة وازدهار جعلتنى احتضنه كالباقة فى صدرى وأنا أجرى بأجمل ورود لسريرى .. متعجلا الجلوس على حافته لأفضه وأقرأ أجمل خط واحب كلام لأب يعبر عن كيف وقع خطابى الأول لي الذى

أرسلته بردا وسلاما على قلب أمى التى لم تكن تنام الليل من شدة قلقها وهلعها علي وكيف أنها اخذت تحملق فى العنوان الذى كتبته باللغة الإيطالية على المظروف من الخارج وداخل الخطاب ليكتبوا لى عليه غير مصدقة اننى فى مأوى وأنه أصبح لى فى بلاد العجم عنوان !

قرأت أو بالأحرى التهمت الرسالة ونهلت من خيراتها التى لا تنفذ لأنها أتت من حيث خزائن الأرض ! .. سألت نفسى والحالة هذه من الثراء لماذا ارتحلت .. كدت أخرج من الغرفة لأزعق " أبناء جلدتى لم ترتحلون لتعملوا فى المهجر مالم تعملوا مثقال ذرة منه فى مسقط الرأس ومجمع الأهل والمعشر ؟! .. أم هو سوء الاستخدام للثروات والموارد أو ما يسميه العارفون سوء السياسات .. أم أنها أعمال السلب والنهب التى تجرف خزائن أم الدنيا ويتكالب عليها النَوَر من أبنائها و قطعان المستعمر قديمه وحديثه ! والتى لم تتوقف منذ غاب فجر الضمير ولم تطلع شمسه ! .. الرومان استعمرونا وغيرهم كان آخرهم الإنجليز .. كنا سلة الغذاء لهم ولكل شعوب العالم القديم الذين برح بهم قيظ العطش (ولا أقول أسال لعابهم) نهرها العذب وتبرها وتينها وزيتونها وفومها وبصلها وعدسها وقثائها ونخلها فى العلالى بلحه دوا ! فماذا حدث لنا حتى نرتحل طلبا للقمة العيش لدى أحفادهم فى إيطاليا وكل بقاع الأرض ؟! " .. ركبنى الهم مما خطر فى بالى فوضعت الرسالة تحت وسادتى ثم أخرجتها ثانية لتلاوتها ..

قرأتها عدة مرات وفى كل مرة تدمع عيناى فأضعها ويسلمنى ما خلته الشبع من قراءتها إلى جوع إليها فأعاود قراءتها كانت شغلى الشاغل فى هذا اليوم فهاهى قطعة من أحاسيس وأفئدة أحب الناس إلي تسافر عبر البحار وتحط رحالها أخيرا بين يدى .. وكلما تقابلت مع رفيق نظرت إليه ضاحكا وحين يسالنى لماذا أضحك أخبره أن خطابا قد وصلنى من أهلى فيرمقنى بنوع طفيف من الاستغراب أو يشاطرنى الضحك تضامنا معى .. قد كانت العواطف النبيلة تنثال رقيقة عذبة من الأنفس فى هذا اليوم حقا وما كان ذلك فى الجو .. كنت جميلا فرأيت الوجود (ماضيه وحاضره) رغم ما فيه من جهامة وعتامة جميلا !

وجاء اليوم التالى فتكررت أحداث اليوم السابق ولم يكن هناك جديد على المستوى الخاص أو الشخصى ولكنه كان هناك جديدا على المستوى العام أو الدولى هو استشهاد الكاتب والاديب المصرى المعروف يوسف السباعى فى جزيرة قبرص .. واختلف رفقاء البنسيون المصريون فى حقيقة الباعث الفلسطينى على قتله .. وإذ اختلفت الآراء قلت رأيى " أنه كان يوجد ثمة دافع لطائفة من الفلسطينيين وراء اغتياله وهو لا يختلف كثيرا عن البواعث التى تدفع العرب لكى يقتلوا بعضهم بعضا والعدو فى مأمن منهم ! " واستشهدت بقول تاريخى مشهور قاله احد رؤساء أمريكا فى محاولة للاقتراب الحميم

مـن القضيـة فقـال انـه وجـد أن مـا بـين العـرب مـن تناقـض أقـوى مـن التناقـض الـذى بينهـم وبـين إسرائيـل !

وتوالـت الأيـام عـلى نفـس المنـوال ثـم جـاء حـدث عـام دولى فـكان بمثابـة الزلـزال التـى تحـدث عنـه العـالم أجمـع أو عـلى حـد وصـف أحـد المعلقـين السياسـيين الدوليـين " صدمـة كهربيـة أخـرى فى سلسـلة سياسـة الصدمـات الكهربيـة التـى ينتهجهـا الزعيـم المـصرى انـور السـادات " .. واعنـى بهـذا حـدث زيـارة السـادات لإسرائيـل الـذى كان مثـارا لتعليقـات متباينـة سـواء بيننـا نحـن المصريـين الذيـن لم نصـدق أعيينـا مـن هـول المفاجـأة ونحـن نـرى السـادات ينـزل فى مطـار بـن جوريـون بتـل أبيـب مـن الطائـرة ليصافـح زعـماء إسرائيـل جميعـا .. هـؤلاء الزعـماء الذيـن فيـما يبـدو لم يكونـوا يصدقـون أنفسـهم وأعينهـم وهـم يرونـه يهبـط سـلم الطائـرة إليهـم .. إذ كانـوا ينظـرون إليـه وإلى بعضهـم البعـض فـلا يملكـون أنفسـهم مـن الشـد عـلى أيـدى بعضهـم البعـض فى قـوة وتكـرار كـما لـو كانـوا يؤكـدون لأنفسـهم أن مـا يرونـه ليـس حلـما أو خيـالا وإنمـا هـو حقيقـة واقعـة .. وكـما تفاوتـت آراء الأخـوة فى البنسـيون فى تقييمهـم لهـذا الحـدث فمـن قائـل أن السـادات " قـد أذل رؤوسـنا ولطخنـا بالعـار والمهانـة " ومـن قائـل " أن هـذه نهايتنـا واننـا قـد سـلمنا بهزيمتنـا أمـام إسرائيـل للأبـد ومـن قائـل " أن السـادات معـذور فالاقتصـاد المـصرى منهـار والعـرب يتخلـون عنـه ومكاسـب حـرب أكتوبـر توشـك أن تنهـار

أيضا " .. أما أكثر ما جذبنى من تعليقات فهو الذى ارتسم على شفتى مجدى من بسمة صامتة لكنها تقول كثيرا خصنى بها كأنه يكشف الغطاء عما كان يعنيه من قوله " الدين دين والوطن وطن .. " !

واختلفت آراء الإيطاليين الذين كنت اسمعهم فى السوق يلغطون ويلوكون الحديث أيضا بين مؤيد ومعارض ..

وقد سألنى شيال إيطالى شاب يبدو أنه كان ينتمى للحزب الشيوعي رأيى فأجبته قائلا :

- إن السادات فاجأهم بالزيارة فى عقر دارهم لما أطالوا أمد التفاوض على مكان ومستوى وكيفية وشكل الجلوس إلى مائدة المفاوضات وهل هى مستديرة أو على شكل حرف " يو " !

قاطعنى ضاحكا ومكملا :

- ليبطل حججهم ويكشفهم أمام العالم ويرغمهم على الجلوس إليها أيا كان شكلها !

شاركته ضحكته واسترسلت بدورى متما رأيى وفى الواقع رأيه أيضا:- التى كانوا يدعون فى الظاهر أنهم دعاة الجلوس إليها .. بينما فى الباطن والخفاء كانوا يعملون لعدم الجلوس على تلك المائدة

العزيـزة بـكل قواهـم !

لم أعـبر لـه عـن كل ذلـك بلغتـه طبعـا ولكـن بلغتـى التـى كان عـلى معرفـة بهـا فقـد كنـت أعلـم أنـه كان يدرسـها عـلى يـد مـدرس مـصرى جـوال ! لنيتـه الالتحـاق بعمـل فى شركـة إيطاليـة مـن شركات التنقيـب عـن البـترول بمـصر أو بإحـدى دول الخليـج .. ولمـا سـألته هـل غالبيـة الشـعب الإيطـالى مـن رأيـك ؟ فوجئـت بشـيال إيطـالى آخـر أحمـر الوجـه يبـدو أنـه كان ينصـت إلينـا وتكهـن مـن سـماعه إسـم السـادات أننـا نتحـدث عـن موضـوع السـاعة فى إيطاليـا وكل ربـوع العـالم فتداخـل بيننـا قائـلا بكمـد ظاهـر :

- السادات " كورنوتو ! " ..

وكرر بإصرار :

- سادات كورنوتو !

ثـم ولى ذاهبـا وهـو ينظـر إلى بتحـد كأننـى أحـد خصومـه ! فاعـترانى الفضـول وسـألت محـدثى معنـى الكلمـة .. تـردد برهـة كأنـه يفكـر فيـما إذا كان مـن اللياقـة أن ينطـق المعنـى ثـم حـزم أمـره وتبسـم مجيبـا بكلمـة واحـدة شـعرت بهـا تسـحقنى :

- مغفل !

obeikandl.com

وإذا كنت قد أبنت عن رأيى للإيطاليين بالسوق فإننى التزمت الصمت عن ذلك كلية بالبنسيون .. كنت أتأمل دون أن

أشارك فى المناقشات الساخنة التى كانت تدور رحاها بين أقرانى لأنها كانت كلها هجوم على السادات .. رأى واحد منصف للرجل كان لأحمد فاضل لخصه بقوله :

- السادات سابق لزمانه ! .. نحن لن نفهم سياسته الآن !

وحضنى رأيه المختلف للخروج مما ألزمت به لسانى فسألته :

- وما تلك السياسة ؟

أجاب بعمق عهدته فيه فقد كان أكثرنا نضجا واطلاعا :

- إنها سياسة الاستمرار فى الحرب بالسلم !

وعلق كمال قائلا وهو يغمزنى بطرف عينه :

- ولكنها سياسة الأقوياء لا الضعفاء الذين يتظاهرون بالقوة !

وأردف أحمد موضحا فى أعقابه :

- فضلا عن أن إسرائيل تجيد تلك اللعبة ولن تكف عن حرب خفية تدمر بها قوانا وتماسكنا واقتصادنا وصحتنا وتعليمنا وسياحتنا ! ..

وثرواتنا النباتية والحيوانية والداجنة وأمننا القومى بالداخل وعلى الحدود حتى لو عقدنا معها معاهدة سلام !

وساد صمت أخاذ عقب مقالة أحمد فاضل الذى أولانى وجهه وعينيه منتظرا فيما يبدو رأيى فليس يكفى أن أطيل الصمت ثم أفاجىء الجميع بسؤال ولما أسمع إجابة أعود فألتحف ثانية بالصمت وكأننى أضمر مكرا ! .. وتناهى إلى سمعى صوت أحدهم يهمس بتلك المعانى وتحولت جميع الأنظار إلي تطالبنى برأيى فاضطررت على مضض إلى القول بأننى من رأى أحمد فاضل عندئذ تساءل لطفى فى عصبية لم أعهدها فيه قبلا معى :

- من اجل ماذا ؟

قلت دفعة واحدة :

- من أجل استرداد سيناء !

فهتف بغضب :- هل استرداد سيناء كان مشكلة فى يوم من الأيام ؟! .. عبد الناصر كان فى امكانه أن يستردها وهو فى ذروة اليأس بعد النكسة لو أراد أن يستجيب للسلام الذى عرضته اسرائيل يومها وهو جالس على مكتبه !

صدق مجدى على كلام لطفى قائلا :- ودون حرب !

نظر إلي كمال شذرا وشاركه توأمه نبيل النظرة أما عادل التيت فقد راح يردد فى لا وعى : - السادات الحق بنا العار .. السادات أضاع نصر أكتوبر ! .. المنهزم هو الذى يسعى لدار المنتصر ممسكا حمامة السلام !

ورويدا رويدا خفت حدة المفاجأة وابتردت حرارة المناقشات وقلت الصور التى كنا نشاهدها ونحرص كل الحرص على مشاهدتها لهذا الحدث فى التليفزيون الإيطالى ..

بدأنا ننشغل فقط بأمور حياتنا اليومية وكيف نتواءم ونجعل التناسب طرديا لا عكسيا بين طاقة الاحتمال وبين الفاقد من جسومنا نتيجة العمل العضلى وبرودة الطقس الذى فى مجمله يعكس خصائص المناخ المدارى والقارى معا فى تلك المدينة المثلجة الرابضة قاب قوسين أو أدنى من سفح جبال الألب بشمال غرب إيطاليا ..

وكرت بكرة الأيام خيطها الأبيض بياض الثلج الوشيك تساقطه بللورات فى رخات ! .. وجاء يوم أشرقت فيه الشمس دقائق معدودات وأدمعت المزن على الرغم من أن آخر يوم مطير للصيف قد ولى قبل ذلك بشهرين وكأنها حلاوة روح له قبيل الإعلان الرسمى عن مولد أجنة الشتاء التوائم التى أودعها رحم الخريف فى منتصفه تنفيذا لاتفاق قسمة أزلى بينهما كأقوياء ! .. وما تناثر خفيفا بعد

ذلك بأسابيع قليلة من رخات ثلج غير متصلة مراعاة لأمن الحمل وجوانية الحامل ! وتبشيرا بقرب قدوم أيام المخاض المرتقبة التى تتوالى فيها احتفاليات طائرات الثلج المتناهية فى الصغر التى تشبه الفراشات أو ندف القطن يطيرها منجد قديم قدم الكون يلبد فى الغيوم بآلته التى تشبه العود بيد أنها ذات وتر واحد تعزف لحنا واحدا يسمع له صرير يستدعى جحافل الزمهرير من الرحم الكبير قبل موعد الولادة المحسوب بدقة ! ..

في هذا اليوم جاءنى عادل التيت وكانت علاقاتى بالاخوة فى البنسيون قد تحسنت بعد أن اقتص منى كمال وعدا برد جميله الذى يثقل كاهلى ويحول بينه وبين أن يكون طبيعيا معى ! .. ساعد على ذلك أيضا مر الأيام وهدوئى ورصانتى فى معاملتهم وكرمى الذى كنت انتهز أيه فرصة سانحة لإظهاره ولأنه مع الزمهرير قل تألقى فى العمل بالسوق ! .. كل هذا ساعدهم على الرضى بعض الشىء عنى ولا أقول احترامى وتقديرى لشعورهم بالتفوق علي فهم فوق أن لهم خبرة أكبر بتلك البلاد أرضا ولغة تربط بعضهم رابطة الأخوة فى الدم وجميعهم من الاسكرية ثغر مصر فيما خلا الأخوين فاضل فهما من الجيزة صنو القاهرة العاصمة أما أنا ففلاح من الدلتا ! .. وأيضا فيما أحسب لأنهم احتفظوا فى ذاكرتهم حسن تصرفى مع مجدى كامل بالسوق فى يوم نزوله الأول الذى أتى بالنتيجة المرجوة

فأنبت بادرة للود والصداقة وإن كان كمال قد احتفظ بحقه الذى لا ينكر فيما أدين له ويأمل إذا ما نمت شجرتى بماء الحياة الذى أرشدنى إلى ينبوعه فى تورينو واينعت بالثمار والرياحين أن أجعل له نصيبا أوان قطافها وأكلها !

وإذاً قد جاءنى عادل التيت منشرح الصدر متألق الوجه يلقى بين يدى صفحة لجريدة تورينو المسماة " لاستامبا " مشيرا بأنمله فى أحد أعمدة الاعلانات عن حاجة مطعم خارج تورينو لعامل لغسيل الاطباق ومرددا كأنه عثر على غنيمة لى:
- فرصة لك !

هززت رأسى متسائلا وأنا أرمقه بنظرة فاحصة مرتابة مخافة أن أثقل كاهلى بحمل جميل آخر متظاهرا بعدم الفهم والقبول :

- لماذا لى وأية فرصة وأنا أحد نجوم السوق !؟

تجاهل عامدا ما بقى على الرغم منى يثير نأمتهم علي وهتف قائلا ليوضح :- جلية الأمر أنها فرصة لك أو لغيرك ! .. خارج تورينو يعنى أن صاحب المطعم سيكفل السكن والمأكل لمن يشغل العمل وبالتالى يمكنه أن يدخر الأجر كله !

ووجدت فى كلامه وفى اسلوب عرضه بعض المنطق فسألت مراوغا

وكأنـه قـد خصنـى بإمسـاك تلـك الفرصـة :

- ولكننـى اوفـر مـن عمـلى بالسـوق حـوالى خمسـة عـشر ميـلا لـيرة يوميـا فهـل سـيعطينى صاحـب المطعـم خمسـة عـشر ميـلا لـيرة يوميـا ؟!

تمتـم عـادل حاسـما : - ولا نصـف هـذا المبلـغ .. لـو اعطـاك ثلثـه لـكان رجـلا كريمـا !

سـألت مسـتنكرا :- ثلثـه ؟! .. يعنـى خمـس ميـلا لـيرات فى اليـوم .. مـاذا يغرينـى بقبـول العمـل لديـه .. أيتكلـف الأكل والـشرب والسـكن عـشر ميـلا لـيرات ؟!

أجـاب بهـدوء وكياسـة :- تعـرف جيـدا أنهـا تتكلـف أكـثر ! .. لكـن أى سـاذج مثلـك لا يعـرف انـه بانتقالـه إلى العمـل بالمطعـم سـتقتصر حياتـه عـلى الاختـلاط بالايطاليـين ولـن يسـمع غـير الـكلام الايطـالى وحينئـذ يقـوى محصولـه مـن اللغـة والثقافـة الإيطاليـة ويتقنهـما عـلى أصولهـما ويتفـوق علينـا ! .. فضـلا عـن أنـه سـيحتمى بـدفء المطعـم والحيـاة السـهلة داخلـه مـن هـذا الشـتاء القاتـل الـذى لم نألفـه فى بلادنـا ! .. آه .. عـلى فكـرة نسـينا حسـاب فاتـورة الـدفء ! .. والـدفء لا يقتـصر عـلى مـا يـسرى عـبر المواسـير فى الحيطـان ! .. الـدفء ياروحـى عليـه ! .. فى الدنيـا مفيـش أبـدا أبـدا أحـلى مـن الـدفء !

بالفعل غنى الكلام قرب نهايته .. وتذكرت فى تلك الآونة تونينو وكرمه السابغ علي وحظوتى لديه وما أرفل فيه من زهو نتيجة عنفوان العمل بالسوق وشهرة من يثبت لدى مقاول أنفاره ! .. كان ينتظر ردى فترددت لحظة .. تذكرت أيضا رفيقى المحبوب منير فترددت لحظة أخرى .. عندئذ هتف محتجا :

- أتتردد ؟ .. قلت لك أنها فرصة فلا تدعها تفلت من بين يديك ..

تساءلت مراوغا كرة أخرى لما كان يروغ بفكرى واكره نفسى عليه لوجاهة ما يعرضه فعلا :

- ولماذا لا ترسل لطفى أو كمال أو نبيل أو مجدى إليه لماذا لا ترسل احد الأخوين فاضل حتى ؟

قال مبتسما بسمة إشفاق :

- أنت اذن لا تعيش بيننا .. الاخوة جميعا وجدوا أعمالا بالمطاعم .. نحن مقبلون على " الكابو دانو " يعنى رأس السنة الميلادية بالإيطالى والمطاعم جميعها تنشط فى هذا الوقت كل عام وتستخدم الكثير من العمال ..

وسكت هنيهة ليتأملنى كأننى مخلوق أنتمى لكوكب آخر وأردف :

- لم يبق إلا أنت فعلا ! .. صحيح أن معظمهم لم يتسلموا العمل بعد فكلها وعود ومواعيد لربط الكلام .. أتعرف ؟ .. لطفى على وعد بعد عشرة أيام وقد وفقت فى التفاهم بنفسى مع صاحب المطعم لأجله لأنه لا يجيد اللغة لدرجة التفاهم وجعلتها خمسة أيام فحسب .. وأنا واحمد فاضل سنعود للعمل " بالمينتا " وهو مطعم محطة القطارات بعد أن تصالحنا مع صاحبه وأخذنا منه حقنا عن فارق أجر العمل فى السنة الماضية .. وكمال سيعمل بعد سفر أحمد طالب كلية الهندسة فى نهاية هذا الشهر ليحل محله فى مطعم " دابيا " .. أما نبيل فقد وجد وظيفة " كاماريير " .. فرصة نادرة لمصرى بناد كبير .. أدعوا الله أن يوفقه لأن الوظيفة تتطلب إجادة كبيرة للغة ليمكنه أن يتعامل مع الزبائن ويعرف ماذا يطلبون من صنوف المآكل والمشارب التى يتوه العقل فيها وكيف يحاسبهم إلى آخره ..إنها فرصة نادرة له وهو الآن يدرب نفسه على القيام بها يسهل له ذلك إلمامه باللغة الفرنسية !

سألته من قبيل العلم بالشىء :

- ومجدى كامل أين سيعمل ؟

أجاب وعيناه تبرقان :

- آه نسيت أقول لك مجدى استلم العمل فعلا اليوم فى مطعم يقع بالقرب من شارعنا !

وأذهلتنى تلك الاخبار التى لم اكن الم بشىء منها إلا فى ذلك الحين ذلك لأننى كنت اقتنص الوقت الذى أفرغ فيه من العمل بالسوق فى النوم اتقاء للبرد وتوفيرا لطاقتى لعمل اليوم التالى .. وواضح أن هذا الاخلاد المبكر إلى الفراش تسبب فى عزلى وعدم المامى ومتابعتى لمختلف الاخبار الهامة .. تلك التى لم تكن لتطرح على بساط الحديث إلا فى اخريات الليل بعد عودة الجميع من بحثهم عن العمل بالمطاعم فى الأمسيات .. حيث كنت اسبح مع الملائكة فى النوم وبالذات فى الأيام الثلاثة الأخيرة التى ساء فيها الطقس .. وتذكرت أن مجدى طالب كلية الهندسة سيعود هو الآخر مع شقيقة احمد إلى كليته أيضا تاركا عمله الحالى بالمطعم .. لمن .. ألمحمد فاضل .. سألت ..

أجاب :- كلا محمد فاضل ميكانيكى وسائق وسيعمل فى ورشة وجراح سيارات وقد ذهبت معه ومع احمد شقيقة واتفقنا مع صاحب الجراح وسيعمل معه ابتداء من الغد ..

فسألته :- إذن ستبقى وظيفة مجدى طالب الهندسة شاغرة فلم لا أحل محله فيها بدلا من العمل خارج تورينو ؟!

قال : - انه يعمل فى مطعم المفراتوا وسيحل محله كمال مؤقتا لمدة شهر !

- ولكنك تقول أن كمالا سيعمل بمطعم دابا محل احمد ؟!

- صاحب مطعم دابا سيغلق مطعمه لمدة شهر وسيعمل كمال خلال هذا الشهر فى مطعم المفراتو !

فقلت :- آه فهمت الآن .. حسنا علي أن غادر تورينو حتى لا يخلو كمال من العمل لمدة شهر ! .. وكدت أقول له أم أن هدفكم أن أذهب بعيدا عن الماركاتو وتونينو !

لكنى امسكت لسانى حصانى وفكرت قليلا .. قلبت الأمر على مختلف وجوهه فوجدتها فرصة نادرة فعلا للتعرف على الحياة الإيطالية عن قرب وللإمام باللغة من أفواه أهلها .. وبسرعة وعدم انقطاع إذ اننى سأعمل وأعيش معهم ولعلى بتلك الطريقة أيضا ارحل بعيدا عن كمال هذا الذى أنا مطالب طول الوقت بالعرفان له شفويا لحين الأداء التحريرى ! .. وطالما أننى أطيل أمد الأولى فيجب أن أظل أكفر عن ذنب مبهم لم اقترفه ولا اعلمه !

واحتوانى شوق غامر للغوص إلى مجهول الحياة الإيطالية .. تلك الحياة التى أنهل من قشرتها الآن واسبح على سطحها فقط .. أو بمعنى أدق أتطلع إليها فراقتنى الفكرة وإذا كنت قد اعلنت موافقتى لعادل فهب من فوره إلى التليفون يتصل بصاحب المطعم الكائن خارج

تورينـو مـن أجـلى .. فقـد وافقـت لهـذا الداعـى الثقـافى فقـط مضحيـا بمكاسـب السـوق الماديـة والمعنويـة ومحيـا تونينـو الصبـوح وكرمـه أيضـا وبالافـتراق عـن صحبـة منـير الخالصـة لوجـه الصداقـة فحسـب ..

- لكـن هـل جئـت إيطاليـا مـن اجـل المـال والشـهرة فى سـوق الخضـار ومصادقـة بنـى وطنـى مـن المصريـين ؟!

سـألت نفـسى هـذا السـؤال فوجـدت الإجابـة غـير ذلـك تمامـا لأن المـال موجـود فى مـصر لمـن يقبـل أن يعمـل شـيالا ! .. أمـا اكتسـاب لغـة وثقافـة حيـاة أهـل المهجـر فهـى المكسـب الحقيقـى مـن الغربـة التـى لا أنـوى أن أمعـن فيهـا فصـورة أمـى لا تفـارق خيـالى ووجيـب فؤادهـا يسـمعنى صوتـه فى كل لحظـة ! .. فضـلا عـن أن أنفـى تـواق لشـم رائحـة تـراب أمـى الكـبرى !

***

لحقـت بـه فى الطرقـة حيـث التليفـون معلـق بالجـدار لأقـف عـلى نتيجـة اتصالـه وأنـا فى غايـة الاثـارة والترقـب .. كان قـد انهـى المكالمـة ووضـع السـماعة فى اللحظـة التـى وصلـت إليـه فيهـا وتلقـانى قائـلا بابتسـامة عريضـة تراقـص لهـا شـاربه الكـث الأسـود الـذى يـكاد يغطـى شـفته العليـا :

- مبروك .. يبدو أننا كنا أول من اتصل بصاحب المطعم .. الوظيفة لم تزل خالية ! .. أخذت ميعادا لمقابالة غدا فى العاشرة صباحا !

كان صوته عاليا كأنه يعلن للقاصى والدانى حسن بحثه وتدبيره وإجراء المكالمة على حسابه ليحملنى جميلا هو الآخر ! وتتزايد أسباب وقوفى تحت شجرتهم التى ينعمون فى أعاليها برياحين ترابط " أبناء البلدة أوالحارة أوالحتة ! " ..

- لاهذا لن يكون !

قلت لنفسى :

- إن معى نقودا كسبتها بالعرق والدم فى السوق فلماذا لا أدفع منها خمسين ميلا ليرة لكل منهما واتحرر وأصعد الشجرة !؟ .. نعم المطلوب مجرد خمسون ميلا ليرة .. كمال ألمح بذلك حين ضرب مثلا مشابها وقع بين مصرى وآخر وهو يحدجنى بنظرة مركزة تردد المثل القائل " والكلام لك يا جارة " لكنى تظاهرت بعدم الفهم وقتها وآثرت تحمل عنت الوقوف وحيدا مهينا وأنا أتساءل هل هان عليهم شأنى إلى هذا الحد ؟

ساءلت نفسى وأجبت لكن بصوت عال ليسمعنى الجميع :

- أنا أرى نفسى معكم فى أعلى فرع من الشجرة ونظرتكم إلي غير

صحيحة وتحمل مسببات الأمراض المستعصية التى أصابت ذمم البعض فى الوطن ! .. والآن أيصح يا صحاب نقل العدوى لشجرتنا الصغيرة الرقيقة فى الغربة ؟! أليست الغربة بمسالكها الوعرة فرصة لتعويض ما نقص البعض من مكارم الأخلاق ودعوة للتطهر ! ..

ساءلتهم لكن بدا لى أن آذان الجدران هى من سمعنى فلا أحد ظهر منهم ومازال التيت يؤكد بالصياح ذاته ووجوده تغيظت وصحت مواصلا :

- قد جئت تلك البلاد لأثبت خطأ من قال من روادنا الإصلاحيين الأوائل عنها فى مطلع القرن رأيت الإسلام ولم أرمسلمين وفى بلادى رأيت المسلمين ولم أر الإسلام ! .. والمغالطة المستمرة من يومها ترديد بعض النبهاء من بنى الوطن تلك المقولة وكتابتها فى الدوريات والكتب وكأنها حقيقة لحث المجتمع على الإنفلات وممارسة الوجه الآخر للحرية وينفتح كما هنا ! .. إننا هنا مثلا نرى أنه من النادر أن تتزوج الفتاة وهى بكر ثيب ! وإن وجدت ارتاب عريسها فى سلامتها النفسية ! .. فما من رجل إلا وله صديقة .. وما من امرأة إلا ولها صديق ! .. لكنى أنا لن أنجرف مع التيار .. سأمتنع مضيفا سببا آخر للتطهر !

أخيرا جاء بعض اخوة بعضهم ! لكنهم كانوا فى واد آخر ولم يسمعوا

غير صوت التيت وألموا بالخبر .. جاء منهم احمد فاضل ولطفى ونبيل كامل يتساءلون وهم يرددون :

- صحيح !؟

أجابهم التيت وهو يقفز بينهم راقصا من روعة ما أنجز :

- طبعا ما يجيبها إلا رجالها !

واتى كمال دون أن ينطق بحرف وتسمر واقفا بجوارى مكتفيا مثلى بسماع التهانى التى انهالت على التيت ورؤيتهم فى تواثبهم حوله مرحا وفرحا للنجاح الذى حققه ويحققه الجميع .. دون أن ينتبه إلى وجودى أحد وكأن الأمر لا يعنينى .. وبعد أن أخذ منهم الرهق كل مأخذ تذكرونى ودنا منى احمد فاضل ببقايا المرح قائلا بجذل :

- ستعمل من الغد لافارى لبياتى ! .. ولكن لا تظن أننا سنتخلى عن تسميتك فاكينو !

فتضاحك الجميع لقوله إلا كمال الذى كان قد حافظ على صمته إلى هذا الوقت ثم بغته نطق قائلا فى غير احتفال :

- لا تتعلجوا الأمور قبل أن تتم المقابلة ونعرف الشروط !

فصاح شقيقة مجدى به وهو على غير رضى بكلامه :- سينالها الوظيفة أيا كانت الشروط !

obeikandi.com

حـاوره كـمال بـاصرار غريـب :- الا تصـبر .. الا تفهـم كلامـى .. ثـم أن الفاكينـو لـن يضحـى بسـهولة بأجـرة المرتفـع بالسـوق !

صمـت لحظـة وتوجهـت جميـع الأنظـار إليـه بسـؤال واحـد محـدد " إلى متـى غيظـك الـذى لا يعلـم غـير الشـيطان أسـبابه فالمسـألة تبـدو أكـبر مـن مجـرد تحميـل جميـل ! .. ويبـدو انـه فهـم مـا يجـول فى الاعين وشـعر بحـرج موقفـة فلـم يجـد مـن مـبرر غـير القـول بأننـى لا اتقـن فـن غسـيل الاطبـاق ! .. وفـن غسـيل الاطبـاق هـذا إن جـاز أن يسـمى فنـا يقتـضى بالدرجـة الأولى السرعـة والاتقـان .. لأن العمـل فى المطاعـم ليـس لعبـة .. إنـه عمـل ضاغـط ويصـل إلى سـاعات ذروة يكـون العمـل فى خدمـة الـرودا عـلى أشـده فـإن لم تكـن هنـاك سرعـة فى تنظيـف وأيضـا تجفيـف الأطبـاق والأوان سـيرتبك العمـل وسيشـعر الزبائـن بالأمـر وسـيغادرون المطعـم إلى آخـر .. وأيـا كان عـدد الاطبـاق والأوانى كبـيرا فسـيتوفر البـطء فى تقليـل هـذا العـدد مـن الـرواد .. وقـد رأينـا صاحبنـا (يقصـدنى) ينفـق وقتـا كبـيرا فى غسـيل سـتة أو سـبعة أطبـاق وآنيـة أو اثنتـين مـن أوان الطبـخ فى المـرات التـى تناولنـا فيهـا الطعـام جماعـة بالبنسـيون !

وأنهـى خطبتـه البليغـة بالتسـاؤل مضيفـا :- مـاذا سـيفعل حـين يجـد أمامـه مئـات الأطبـاق وعـشرات الأوانى والصـوانى وأدوات الخلـط والعجـن والـشى .. والشـوك والملاعـق والسـكاكين إلى آخـرة .. مـاذا سـيفعل حينـذاك

..هيـه مـاذا سـيفعل ؟

مرة ثانية حاورة شقيقة مجدى قائلا :

- يا اخى إن الله سيساعده ..

ومـع أنـه قالهـا بلكنـة اسـتفزتنى لطيهـا مسـحة تهكـم ماكـرة لكنهـا دفعـت الآخريـن إلى التململ مـما تعنـى فـرددوا بصـوت واحـد :

- إن الله لا يساعد غير المجتهدين ..

وصاح لطفى :

- ثـم أن بالمطعـم ماكينـة لغسـيل وتجفيـف الاطبـاق ولـن يفعـل أكـثر من إزالـة مـا علـق بهـا مـن بقيـا الطعـام فى سـلة المهمـلات .. ثـم بعـد ذلـك يقـوم بـرص الاطبـاق فى سـلة الماكينـة التـى سـتقوم عنـه بـكل العمـل !

قال احمد فاضل :

- وهـو قـد تـدرب فى السـوق عـلى سرعـة العمـل واتقانـه ! .. مـن عمـل فاكينـو لا يصعـب عليـه أن يعمـل لافـارى ليبيـاتى اعتقـد انـك يـا كـمال زودتهـا حبتـين !

سأل كمال وفى حلقة غصة من غضب مكتوم :

- حبتين ؟!

obeikandl.com

أنشأ صاحبه يغنى للرد عليه :

- حبة فوق وحبة تحت !

وتطوع عادل للإجابة بصراحة قائلا :

- تزيدها نكدا وهما وتعقيدا ! .. يا اخى ما بالك إنى لم اعهد فيك تلك النفس الحقودة !

ردد كمال بعين اللهجة السالفة :

- حقودة ؟!

بيناواصل عادل بنوع من الغضب :

- ثم ماذا فعل بك الفاكينو ؟ .. هيه ! .. إنك فى هذا الأمر لا تبدو عادلا وجيها ! .. لا تكاد تبدى أى سبب للعداوة ! .. نحن بعد الآن لن نقبل منك هذا الموقف .. احسم الأمر معه !

" أكل هذا لأنه ارشدنى إلى مأوى ؟ .. أكل هذا لاننى مدين له بفضل ترتب عليه استقرارى فى الغربة والتماع نجمى فى السوق " سألت نفسى وأنا اراقب ساكنا ما يدور امامى من حديث بشأنى واكتنفنى كمد وغم شديدين .. عدت اقترح على نفسى دفع الخمسين ميلا ليرة لكمال لأخلص ودفع أخرى لعادل (حتى لا يكون هناك مجال لتحمل جمايل لها ثمن) ولأحتفظ بمبادئي لنفسى .. الكرامة والتحرر

obeikandl.com

مـكارم أيضـا ويجـب ألا يتعارضـا مـع الأخـلاق ! لأدفـع ثمـن العرفـان .. لأدفـع ثمـن العرفـان .. وضحكـت مـن المـرارة ووجـدت نفـسى اتجـه لكـمال ودونمـا تفكـير فى العاقبـة أو الـتروى

دسسـت يـدى فى جيبـى واخرجـت كل مـا كان بهـذا الجيـب مـن نقـود وصحـت فيـه قائـلا بكـدر وسـخط :- كـم تريـد ثمنـا لفضلـك أدفعـه لـك فى الحـال واعتـق رقبتـى ! .. إنى جـاد فـلا تنظـر إلى تلـك النظـرة التـى أدرى تمامـا معنـى بريقهـا!

قلتهـا بعـذاب وتشـيعت بباقـى الأخـوة الذيـن اخذتهـم البغتـه فيـما يبـدو مـن نكـرانى للجميـل وقيمـة المـال والمصالـح اللـذان يشـكلان أسـاس العلاقـات المتبادلـة فى مجتمعـات الحداثـة! ..

قالـت لى أعينهـم أن عـلي أن أراجـع مبـادئى فثمـة خطـأ (مـما أراه مـن إجـماع حـولى) فى تسـميتى للأشـياء ووصـف الخدمـة التـى يقدمهـا لى شـخص بالجميـل .. أيـة خدمـة لهـا ثمـن ويجـب ألا أبخـس النـاس أشـياءهم كـما ورد فى القـرآن الكريـم ! .. كـما يجـب ألا أدعـى بـأن هـذا السـلوك الشـائن يقتـل المواطنـة فهـذه ليسـت ظاهـرة تتكـرر لمصريـين كثيريـن فى شـتى ارجـاء العـالم ! .. نعـم ثمـة شرف ومبـادىء عنـد الغالبيـة العظمـى منهـم والمظاهـر خداعـة ! ..

تواترت افكارى على هذا المنوال بسرعة وواصلت قائلا :

- إنى أريد أن يخطئنى أحد ! .. أريد واحدا يقول لى أنت مخطىء فيما تعرض أو تقول يا اخوان ! .. حقا كما يقال تفتق ثوب الصبر وما عدت احتمل !

- خمسون ميلا ليرة فقط !

هتف بها كمال مبتسما فى ثبات وبرود فاتسعت حدقات أعين الرفاق دهشا وبهوتا وصاحوا فى صوت واحد

- ماذا ..؟

بنفس البرود والثبات فى الوجه النحيل واصل كمال ابتسامته وقال موضحا أكثر :

- قلت خمسون وأظن أنه ليس مبلغ فهناك مصريون كثيرون يتقاضون أكثر من هذا لقاء بيع سرير للإقامة أو وظيفة لمصرى فى حاجة للنوم أو العمل وقد بعت له ما هو ..

اوشك أن يقول " ما هو اغلى من ذلك واثمن " لكن شقيقة مجدى الاصغر منه سنا قاطعة قائلا باستنكار طفيف :

- كمال !

obeikandl.com

سكت لحظة ليرى وقع قوله من نفس شقيقة الأكبر سنا منه ولما رأى منه ما يشجعه استتلى بلهجة أشد :

- ما هكذا كانت نصائح أمنا بالإسكندرية ! .. أنى لا اكاد اصدق أن هذا الواقف أمامى أخى وابن أمى كمال !

انتهزت الفرصة وعددت خمسين ميلا ليرة فى لهفة وأنا فى خوف من تؤثر كلمات مجدى فى شقيقة فيتراجع عن طلبه .. مددت يدى فى سرعة بالنقود ملوحا بها فى وجه كمال وماسا طرف أنفه بحد أوراق المبلغ قائلا :

- تفضل ..

فتحول مجدى إلي وصاح بعين اللهجة وهو يسحب يدى بعيدا عن وجه أخيه :

- أنت أيضا ضع النقود فى جيبك ! .. إنه كان يمزح .. نعم فقط كان يمزح ! .. أليس كذلك يا كمال ؟ .. قل أنك كنت تمزح بالله عليك .. قل أنا اعرفك واعرف مزاحك الثقيل !

قالها لدهشة الجميع وهو ينشج مغالبا دموعه .. انتعشت روحى لأننى اكتشفت واحدا فوق الشجرة يشبهنى وحدثت نفسى قائلا :

- وإذن أنا فوقها لا تحتها !

وعجبت من أن يكون فى الأسرة الواحدة أخوين لا يشبه احدهما الآخر فكمال ممعن فى الصفاقة ومجدى فى النبالة لدرجة انه يكاد أن يبكى من شدة شعوره بالخزى من سلوك اخيه .. واشفاقا عليه فكرت فى وضع النقود فى جيبى ثم عدلت عن هذا التفكير لأننى كنت فعلا فى امس الحاجة للتحرر من فريضة الذل التى تجعل من هذا الكمال كبيرا لى وهو بهذا الصغر نفسا وحجما ! .. تحاملت على نفسى وأنا ارمق مجدى بنظرة كلها أسف واعتذار ورفعت يدى فى وجه كمال ثانية بالنقود حتى مسست انفه بحد الأوراق كرة ثانية قائلا :

- خذ ثمن العرفان بالجميل يا أخ ! .. خذه ولا تحزن ألا تريد أن تقبض الثمن ؟!

دمدم احمد فاضل قائلا :

- والله معك حق يا فاكينو !

تمتم لطفى مصدقا على قوله :

- كل الحق والله !

هتف مجدى من فرط الأسى والألم :

- رباه

فصرخ عادل منفجرا أخيرا :

- ما هذا الله يجرى امامى هل نلعب كالعيال ؟ .. أنا الذى جئت بكم جمبعا هنا ! .. أنا الذى أرعى شئون الجميع وليس لكمال أو غيره أن يقبض الثمن ! .. أنا الذى جئت بكمال وأشقائه .. جئت بلطفى والاخوين طالبى كلية الهندسة أيضا أنا الكبير هنا ولم أطلب ثمنا فكيف يقبض احد ثمن الفضل الذى لى .. اذهب الآن يا كمال !

صعر كمال وجهه ولم يتحرك فاستمر عادل يزعق قائلا بسورة اشد :

- اذهب الآن والا سأمرمط بك الأرض ! .. اذهب يلعنك الله ! وانت ..

وجه حديثه إلي واستطرد :

- اذهب أنت الأخر بنقودك التافهة ! .. أو تظن أنه لا احد غيرك يملك نقودا .. اذهب والا ومرمطت بك الأرض أنت أيضا ! .. أهذه فكرة تعرضها ؟ .. ثمن الجميل ! .. يظهر انك وكمال من طينة واحدة .. اذهبا انتما الاثنين .. اذهبا اذهبا !

وقفز التيت فى وقفته قفزة يتأهب بها للهجوم علينا أنا وكمال فأدركه احمد فاضل ولطفى وامسكا بتلابيبه قبل أن تصل إلينا قبضات يديه .. ووقف مجدى فى المنتصف بيننا وبينه حينئذ شعر جميع من فى البنسيون من مصريين وإيطاليين بخطورة ما يجرى

فى الطرقة على مقربة من التليفون .. وجاء السيد مالا تدرينو وفى اعقابه زوجته يتساءل :

- ماذا يحدث هنا ؟

قالت السيدة مالاندرينو بصوت اخذ الاستياء بعض ما فيه من رقة :

- أتتعاركون وانتم أبناء بلد واحد .. فيما سمعت أنتم تقطنون فى حى واحد بالإسكندرية ..

وتبعثر البعض من نزلاء البنسيون من الايطاليون على مقربة وعن كثب يراقبون ما يجرى واقترب نبيل يستجلى الأمر فنوره مجدى قائلا وهو يفرق الجميع بيديه :

- لا شىء هيا يا اخوان هيا .. كفانا هذا الصباح ما قلنا وسمعنا .. هيا .. هيا نتفاهم بهدوء كما يتفاهم الأخوة فى الحجرة .. نعم الأمر لم يعد يحتمل السكوت عليه .. حقا لابد أن تصفى هذا الموقف نهائيا .. الآن هيا بنا ندخل الغرفة جميعا ونجلس فى هدوء ونتفاهم كما يتفاهم خلق الله العقلاء !

- دخلنا جميعا الحجرة الكبيرة التى اقمت بها مؤخرا منذ فترة وتفرقنا على الأسرة ونحن ننتظر أن يفتح احد الحديث وننظر إلى بعضنا .. قال احمد فاضل :

- كـمال والفاكينـو يتبـادلان سـويا مشـاعر حـادة ولابـد أن ننهـى تلـك الحـدة التـى تبـدو عليهـا مشـاعرهما ..

قلت بتحديد :

- أنا مدين له !

قال مجدى حامسا :

- ويكفى إقرارك بهذا الدين ردا !

قلت محاورا :

- اريد أن اسدد هذا الدين فورا وفعلا !

قال مجدى مستعطفا :

- سدده ولكن بطريقة أخرى !

قال لطفى مقترحا :

- هدية مثلا !

فصاح التيت مغضبا :

- الهدية يعنى نقود !

تساءل كمال :

- وما عيب النقود ؟

فقال نبيل معضضا توأمه :

- اجل ما عيب النقود ؟

obeikandl.com

زعق التيت :

- يـا نبيـل أنـت أيضـا اذن اعطنـى الآن ثمـن مسـاعدتى لـك فى الحضـور إلى هنـا .. أعطـونى كلكـم !

فصـاح احمـد فاضـل وعينـاه تلتمعـان كأنمـا قـد اهتـدى إلى وسـيلة ناجعـة تضـع حـدا لذلـك الجـدل غـير المجـدى :

- حسـنا مـا دام كـمال ونبيـل ومجـدى مدينـين جميعـا للتـت والتـت لا يطلـب ثمنـا منهـم اقـترح أن يسـتبدل كـمال الديـن الـذى عليـه للتـت بالديـن الـذى عـلى الفاكينـو !

قال نبيل :

- خلصت .. أتقبل هذا يا عادل !

قال عادل بفتور وأريحية مصرية متناهية :

- اقبله والسلام !

وعاد نبيل يسال ولكن تلك المرة توأمه :

- وأنت يا كمال تقبل ؟

هتف كمال بصوت كانما ينبعث من بئر فى أعماقه :

- اقبله بشرط !

صاح عادل محنقا :

openkandil.com

- شروط ؟!

واستمر كمال فى حديثه بعين الصوت :

- ألا أكون أنا أو اى احد من اخوتى مدينا بشىء لعادل !

هتف لطفى بنوع من المزاح :

- إنها قسمة ضيزى !

فقال احمد فاضل :

- اجل والله وماذا يدفع عادل لقبولها ؟

فكر عادل قليلا وفهم مغزى ما يرمى إليه كمال .. إنه يساومه كيلا يكون له اى سلطان عليهم .. يبغى أن يجرده من زعامته للجميع ليتزعم هو ! .. طبعا له الحق ولم لا وقد صار واشقاءه ثلاثة والرابع يقولون انه سيحضر فى الأجازة الصيفية ! .. بعد أن يؤدى امتحان الثانوية .. ولكن بتلك الروح المتوجهه للمادة فقط .. إلى أين تاخذ الجميع يا اخ كمال ؟ .. يبدو أننا سنشاهد منذ اللحظة مشاهد دامية ! .. ولا يكون زعيما للجميع وهو الذى احضرهم جميعا هنا ؟!

جمجم عادل قائلا :

- لا اقبل ..

صحت متلهفا باستهجان :

obeikandl.com

- وابقى أنا مدينا لهذا .. لا حل لهذا الموقف إلا بأن ادفع لكمال يا عادل ما طلب واخلص .. الخمسون ميلا ليرة ليست نقودا والنقود نفسها لا قيمة لها !

التحف عادل بالصمت ولم يعد احد يبدى اعتراضا على فكرة شراء الحرية ودفع ثمن العرفان بالجميل لما تعقد الموقف إلى هذا الحد .. وإذ وجدت الجميع فى صمت لا يدرون ماذا يقولون أو يفعلون انتهزتها فرصة ودنوت من كمال والنقود فى يدى وأنا أتوسل لمجدى :

- بالله لا تعارض يا مجدى !

عارض بأن بارح الغرفة دون أن يتكلم ولحق به عادل ثم احمد فاضل وشقيقه محمد الميكانيكى الذى لم يفه بكلمة واحدة كعادته .. وخرج لطفى أيضا وبقينا أنا وكمال وشقيقة التوام نبيل ومضت برهة صمت ثم دنوت أكثر من كمال حتى صرت قبالته ومددت يدى له بالنقود دون أن اتكلم .. مكثت برهة أخرى من الصمت انتظر أن يمد يده ويتناولها منى عندئذ رفع كمال عيناه إلي ولما تلاقت اعيننا واشتبكتا تمتم بابتسامة صفراء :

- كلا أنا لن آخد منك شيئا .. النقود تذهب وتنتهى .. أما المشاعر فتبقى !

وتكتل الغيظ فى صدرى حتى توهمت انه يوشك أن ينفجر ويتبعثر أشلاء وبددا فصرخت :

- لن أمكنك منى !

باصرار واصل :

- على العكس يسرنى أن تظل مدينا لى إلى نهاية العام !

- قلت لن أمكنك !

- وسارافقك غدا إلى المطعم لأرشدك فانت فى حاجة مازلت للإرشاد ! وإلى من يتفاهم نيابة عنك لأنك ضعيف مازلت فى اللغة !

- أنا أقوى منك وسأعرف العنوان من عادل أو من الجريدة وأذهب وحدى !

- حسنا سنرى همتك فى الذهاب وحدك !

- اتتحدانى ؟!

صاح جادا وحازما :

- اتحداك أن تذهب وحدك .. رقم التليفون فقط هو المنشور بالجريدة وبعد المكالمة عادل وحده الذى يعرف اسم المطعم وعنوانه وهو وحده الذى سيقرر أمرك ! .. اذهب إليه وسله ما تبغ إن كنت تجسر !

obeikandi.com

اندفعت خارجا إلى حيث كان عادل يجلس فى غرفته مع الأخوين فاضل وسألته على عجل :

- اعمل معروف اعطنى عنوان المطعم يا عادل إذا سمحت !

تبسم وتمتم قائلا فى هدوء : - موعد المقابلة غدا ولولا أننى سأكون مشغولا لذهبت معك لكنى تفاهمت مع احمد فاضل الآن ليذهب معك ووافق !

هتفت بيأس :- أستطيع أن اذهب وحدى .. أمن الضرورى أن يذهب احد معى ؟ .. أليس ممكنا أن أذهب وحدى ؟

اشتم عادل وباقى الأخوة من لهجتى وسورتى المكبوتة أن وراء تلك اللهجة فيما يبدو يكمن كمال بشخصيته المزعجة المتحدية والعنيدة .. أغرقوا فى الضحك وكان هذا كافيا لاسكاتى فسكتت حتف أنفى وكان هذا كل شىء فى هذا اليوم ..

obeikandl.com

كان إسم المطعم " ريستورانت ستة كولونا " وكان يقع فى قرية تسمى كازالتا وتبعد حوالى سبعة عشر كيلو مترا غربى تورينو تركب لها البولمان من محطته الكائنة فى أول شارع كورسو فرانشا إلى اليمين بعد أن تعبر ميدان بياتساتساتوتو وتسير بضع عشرات من الامتار

وكان اليوم التالى يوم احد ولذلك كنا جميعا فى حالة راحة من العمل فيما خلا الشقيقان طالبا هندسة الإسكندرية وعلى الرغم من اننى حاولت إلى أخر لحظة الذهاب بمفردى إلى " رستورانته ستة كولونا " غير أن عادل التيت لم يتخل عن تفاهمه مع احمد فاضل مكررا ذريعة أنه من اللغة والخبرة بحيث سيكون أفضل منى فى التفاهم مع مدير المطعم .. ولما أذعنت وأنا احاذر النظر فى عينى كمال الذى كان واقفا يراقب عن كثب ضحك وشعرت أنه يبث الضحكة من فيه ! وبأن بأعماقه تكشيرة لا تنم عن انتصاره وجبر هذا خاطرى لكن لم يكن الوقت مناسبا للرد عليه فربما كان يهدف إلى تفويت تلك الفرصة باستفزازى للاحتكاك به وتضييع الوقت والموعد ! وابتلعت اهانته وخرجت مع احمد فاضل دون أن انظر إليه أو إلى أحد ..

ركبنا من كورسو فيتوريو حافلة تتجه غربا شطر القسم التانى من

تورينـو المسـمى " بورتـا سوسـا " وتعمـل عـلى الخـط الموصـل إلى كورسـو " فرانشـا " أى فرنسـا لنركـب مـن المحطـة الكائنـة فى أولـه بعـد بعـد عبـور ميـدان أو " بياتسـا " تسـاتوتو ومسـيرة بضـع عـشرات مـن الأمتـار إلى اليمـين البولمـان الموصـل لقريـة " كازا لتـا " أو عـلى حـد قـول أحمـد الـذى همـس فى أذنى موضحـا :- معنـى اسـمها بيـت اللـبن !

استشـعرت بهجـة باطنـة فى الاسـم فهمسـت قائـلا لـه بـدورى :- فى الوجهـين البحـرى والقبـلى بمـصر أكـثر مـن قريـة بـذات الاسـم مـع اسـتبدال كلمـة بيـت بكلمـة صفـط !

وإذ بلغنـا محطـة البولمـان حـث احمـد خطـاه إلى رهـط الحافـلات وجعـل يقـرأ اسـم البولمـان المتجـه إلى القريـة ولمـا اعيـاه البحـث ولم يجـده عـرج عـلى مكتـب الإدارة بالمحطـة وسـأله فأجابـه موظـف مـن خلـف زجـاج نافـذة مغلقـة مـن شـدة الـبرد ومـن فتحـة صغـيرة مسـتديرة بهـذا الزجـاج :- يصـل بعـد سـاعة ! ويقـوم فى الحاديـة عـشر ..

وفى حسـاب الوقـت ادركنـا أننـا لـن نصـل فى الموعـد المحـدد لـه العـاشرة .. وأنـه لـن يكـون مـن قبيـل التبشـير بالنجـاح أن نتأخـر عـن الموعـد الـذى حـدده مديـر المطعـم وفـق ظروفـه فربمـا لا نجـده بعـد الميعـاد وحتـى إن وجدنـاه فإنـه يستحسـن ألا نعطيـه الانطبـاع بأننـا قـوم لا نحـرص عـلى فضيلـة احـترام المواعيـد ولا ثمـن للوقـت عندنـا .. واقترحـت

عـلى مـشرفى أن نسـتعين تاكسـيا مخصوصـا فاخـبرنى أن ذلـك سـيكلفنى الكثـير عندئـذ قلـت كأنمـا اقـضى بأمـر مفـروغ منـه :- لا تهـم التكاليـف فى تلـك الظـروف وليكـن مـا يكـون !

تـردد احمـد بعـض الوقـت وتلـكأ فهتفـت بـه ضائـق الـذرع :- باللـه عليـك لا تؤخرنـا أكـثر مـن هـذا .. ثـم أنـا الـذى سـأدفع !

واستسـلم احمـد ونـادى عـلى احـد التاكسـيات وحـدث السـائق عـن وجهتنـا قبـل أن نركـب فوافـق وركبنـا ..

مـرق التاكسى بنـا ينهـب الأرض نهبـا فى كورسوفرانشـا والعـداد يعـد وأنـا شـاخص النظـر إليـه يـرف قلبـى عنيفـا مـع كل " تكـة " صـوت تعلـق ميـلا لـيرة جديـدة ! وقطـع المناطـق غـير الآهلـة بالسـكان فى هـذا الطـرف القـصى مـن المدينـة الـذى لم نـر فيـه غـير مقابـر للسـيارات القديمـة أو مخـازن للـشركات الكبـيرة أو مصنعـا مـن المصانـع إلى أن صعدنـا أحـد الكبـارى العلويـة الضخمـة التـى التـى يقـع بأسـفلها طريـق الاوتوسـتراد الـدولى المحيـط بتورينـو ..

لما هبطنـا الناحيـة الأخـرى مـن الكوبـرى دخلنـا شـبكة متقاطعـة لعـدة طـرق فرعيـة .. ركبنـا منهـا الطريـق الممتـد بطولـه بعـد قطـع صرة الشـبكة! .. أسـلمنا بـكل راحـة لجـزء منـه زراعـى تصطـف عـلى جانبيـه

أشجار الحور الباسقة التى من خلالها لمحنا تزاحما من أشجار الزان والسنديان والكستناء والدردار تطلع إلينا! وخلف الأشجار على مدى البصر تقع مساحات شاسعة من الأراض الخضراء المنزرعة ..

لم احفل كثيرا بالنظر إلى تلك الأراضى على الرغم من الفرحة التى تشيعها الخضرة دوما فى نفسى إذ سرعان ما انغرست عيناى تماما فى العداد يرف فؤادى هذا الرفيف مع توالى كل تكة له .. وتمضى الدقائق ونجتاز مدينة من الضواحى أعرف بعد أن سال احمد السائق أن اسمها " ريفولى " .. وينعطف التاكسى فى شارع ضيق من شوارع تلك المدينة إلى اليمين بجوار سور مرتفع لم يتح لى رؤية ما وراءه لشدة ارتفاعه .. يمتد السور امتدادا كبيرا إلى أن نخرج من المدينة فاكتشف انه ليس سورا وإنما هو بطانة حجرية لتلك الأرض المرتفعة المطلة على الطريق المنخفض كثيرا عنها .. ويمضى التاكسى فى عدوه وعداده يصر ويعد فى عدو أيضا ..

بدالنا فى لحظة فى اللحظات أن السائق قد ظل الطريق إذ سألنا بغته وكأنه لا يعرف أين هو ذاهب بنا :- كازالتا !

سبق لسانى احمد فى الرد عليه أن نعم .. وتبادلت معه نظرة ذات مغزى فسأله على الفور إن كان هذا أقصر طريق ولسان حاله يود أن يسأل أهو الطريق ! .. أجاب السائق الهمام بأنه بالطبع هو وأنه

يعرفه معرفة تامة فخفضت صوتى رغم أننى تكلمت بالعربية لأقول لمشرفى بقلق وغيظ :

- إن كان هو وأنه يعرفه تمام المعرفة فلماذ سأل ؟!

أجابنى احمد ببساطته المعهودة :

- ربما ليتأكد !

وتاكدت أنا أن السائق قد ضل الطريق لفترة ودخل فى طريق آخر واوغل السير فيه عندما لاحظت أننا واجهنا طريقين أحدهما يسير فى مواجهة جبل والآخر يدور من حوله وأطال المسير فى الطريق الدائر لدرجة أننى توهمت أنه تدرب على السواقة على يد مطرب يغنى يا ليل من مطربى زمن ما قبل اختراع العدادات ! .. ثم فجأة قطع المسير فيه وعرج إلى طريق فرعى عائدا إلى الطريق الأول .. عندئذ انهارت اعصابى تماما فها هو خطأ للسائق يحسب له اجرا عليه وادفع أنا ثمن هذا الخطأ من مدخراتى التى عرقت بها لدرجة الادماء بالسوق .. ونبهت احمد إلى ذلك وأنا أكاد ابكى الما فهز راسه فاهما ومصدقا وفى تلك اللحظة وصلنا عند مفترق الطريقين ثم انطلق السائق بسرعة فى الطريق المقصود بسرعة كبيرة ومحمومة كما لو كان يدارى بتلك السرعة خطأه الفاحش وبعد المسير عدة دقائق صرنا على مقربة من سفح الجبل أو هكذا تخيلنا ذلك لشدة ضخامته وارتفاعه التى تجعله قريبا على بعده .. وطالعتنا قرية

فصاح السائق بفرح كأنه عثر على شيء ثمين افتقده لبعض الوقت :

- كازالتا !

وهدأ من سرعة السيارة ليتسنى له المسير فى الشارع الرئيسى بالقرية والذى لا يسع لشدة ضيقه غير سيارة واحدة كبيرة أو سيارتين صغيرتين بشق الأنفس وسألنا ثانية :

- ريستورانته سته كولونا ؟!

هتفنا سويا فى صوت واحد :- اجل !

حينئذ توقف وسأل احد المشاة عن الطريق إلى المطعم المنشود فوصفه له مشيرا الى شارع أضيق من الأول يرتفع لأعلى كلما اوغلت السير فيه .. وفهمت من اشارات الرجل أننا بعد عبور هذا الشارع فى النهاية نخرج ثانية إلى كورس فرانشا ثم بعد مصنع للبلاستيك مباشرة نجد إلى اليمين ريستورانته سته كولونا !

سار بنا السائق حيث أشار الرجل إلى أن خرجنا من القرية بعد أن قطعنا الشارع الضيق المرتفع والذى تقع على جانبية بيوت القرية متلاصقة .. وبلا حدائق هذه المرة " وعينى على العداد لا أكاد الم باى منظر كامل إلا فيما ندر وبعد مرحلة من السير طالعنا المصنع وسرنا من أمامه وبعد حوالى مائتى متر طالعنا مبنى كبير لفندق

محـاط بحديقـة وهتـف السـائق ونحـن ندنـو منـه :

- ريستورانته سته كولونا !

توقف واردفت :

- اثنان وعشرون ميلا ليرة !

همهمـت بـكلام غـير مفهـوم لغتـه لـه أو لأحـد كأننـى أود أن أعنفـه قائلا " ضللـت الطريـق عـلى حسـابى يـا ظـالم !" أو " حـار ونـار فى جثتـك ! " واخرجـت قيمـة الأجـر المطلوبـة مـن جيبـى ودفعتهـا فى يـده وأنـا أدفـع يـده لأنقـل إليـه احسـاسى فاسـتخفه الطـرب بـدلا مـن الخـزى وكأنـه يؤكـد المثـل المـصرى الـدارج " الـلى اختشـوا ماتـوا ! " وانـصرف بعربتـه وهـو يتضاحـك محييـا ومـا أظـن إلا أن رسـالتى وصلتـه : - جراتـسى تشـاو!

فلـم نـرد عليـه لا بسـبب عـدم الـرضى ولكـن لأن روعـة وضخامـة البنـاء الـذى وقفنـا أمامـه خطـف أعيننـا وانتباهنـا فتسـمرت أقدامنـا وطفقنـا نتأملـه بانبهـار وشـداه مـن الخـارج .. لنكتشـف لأول وهلـة أنـه ليـس مجـرد مطعـم وأنـه بالقليـل فنـدق أيضـا وربمـا يحـوى صـالات إحيـاء مناسـبات اجتماعيـة كالأفـراح والأعيـاد .. تصعـد إلى مدخلـه الزجاجـى اللامـع بسـلالم رخاميـة يـدور بهـا سـياج مـن النحـاس الأصفـر الـبراق كالذهـب .. يتكـون الجانـب المواجـه للطريـق العـام والمحيـط بالمدخـل مـن سـبعة أعمـدة رخاميـة شـاهقة العلـو والبيـاض لدرجـة أنهـا تـكاد

تشع كالبللور بالنور ! .. تحف بها أشجار عيد الميلاد التى لا تنمو إلا فى المناطق الباردة .. ارتقينا أول درجة من السلم لنصعد وما كدنا نرفع قدما لنرتقى الدرجة الثانية حتى هب علينا كلبان قصيرا الأرجل كثيفا الشعر من هذا النوع الذى يسمى فى مصر " رومى ! " وأخذا فى النباح بنا وهما يكشران عن أنيابهما .. خيل إلينا انهما على وشك أن يعقرانا فارتقينا الدرجات الباقية من السلم ركضا إلى الباب الزجاجى ذى الضلفتين وما بلغناه وخلنا اننا بدفعه سينفتح لنا فننجو بجلدنا من الكلبين حتى رأينا كلبة ضخما مخيفة الهيئة تتربص بنا وراء الزجاج .. أوشكنا أن نصرخ طلبا للنجدة لولا أن شاهدتنا سيدة عجوز فأسرعت إلينا ونهرت الكلبين بلغتها أن يبتعدا فكان أول درس أتعلمه وأنا على عتبة عملى الجديد هو مفردات نهر الكلاب ! .. أمر آخر ليس مهما أن أذكره عن كيف عرفت أن الحيوان الآخر كلبة لا كلب ! .. وكيف أنها ثبتت فى مكانها بهدوء لدى رؤيتها سيدتها تثرثر فى شبه اعتذار وتدعونا للدخول بمفردات لم أسمع أجمل من جرسها فى حياتى وثبتت فى ذاكرتى من شدة ما أصابنى ومشرفى من جزع دفعه لأن يهمس لى فى أذنى إبان دخولنا :

- كل هذا من أجلك يا فاكينو !

كانت العجوز بيضاء الوجه ذات شعر فضى ناعم تنسدل بقاياه على قفاها .. ممتلئة قوة وعافية رغم تقدم سنها .. ودخلنا ونحن نرمق

الكلبه الكبيرة التى وقفت قبالتنا بكثير من الحذر والتوجس ثم مالبثت أن توارت عن أعيننا لما أشارت العجوز إلى منضدة بمقاعد جلدية من تلك المنتشرة بنظام فى بهو الاستقبال .. كانت أول منضدة فى الترتيب والأقرب إلى الباب الزجاجى الذى يقع فى مواجهته " بنك الاستقبال " والذى هو عبارة عن البار فى ذات الوقت .. قالت العجوز بعد أن اوضح لها احمد شخصيتنا وما نريد :

- استريحا فى مكانيكما لا تقلقا لسوف تأتى الاميرة حالا !

وتباعدت عنا ثم غابت عن ناظرينا داخلة من باب مجاور للبار إلى اليسار فسألت احمد بفضول :

- هل قالت أميرة .. أيوجد أمراء هنا ؟!

فالتفت مبتسما وهو يقول :

- أه ! .. وفهمت ما قالت .. إذن فقد بدأت تفهم الإيطالية وهذه علامة تبشر بالخير لك .. إنها تقصد صاحبة المطعم ويبدو من لون بشرتها ولهجتها أن أصحاب هذا المطعم من " البومونتيز " ..

سالته مستثارا :

- وما معنى بومونتيز !

قال مجيبا :

- الم تقـرأ فى كتـاب التاريـخ عـن البومونـت أو البيدمونـت ؟! .. إنهـم جنـس مـن الإيطاليـين يعتـبرون أنفسـهم أصـل إيطاليـا كآل النوبـة عندنـا .. وهـم فعـلا كذلـك .. إن العجـوز تكلمـت بلهجـة هـؤلاء القـوم حتـى كـدت وأنـا العليـم باللغـة لا افهمهـا لذلـك أنـا اعجـب كيـف فهمـت أنـت !

ومـا كاد يكمـل قولـه حتـى ظهـرت الأمـيرة فـإذا بهـا امـرأة فى نحـو الخامسـة والاربعـين مـن عمرهـا شـقراء ممتلئـة الجسـد إلى حـد مـا .. حمـراء الوجـه الـذى تنتـشر عليـه بقـع مـن النمـش البنيـة اللـون زرقـاء العينـين ذات شـعر خفيـف يميـل إلى اللـون البنـى .. ناعـم .. ترتـدى ثوبـا انيقـا ارضيتـه بيضـاء منقـوش بـورد أحمـر كبـير الزهـرات نوعـا .. دنـت منـا عـلى مهـل وحيتنـا بطريقـة دمثـة أنيقـة وجلسـت بيننـا عـلى مقعـد ودعتنـا للجلـوس مـن حيـث وقفنـا تحيـة لهـا .. جلسـنا وابتدرتنـا هـى

قائلة :- ماذا تشربان ؟

قال احمد :- كابوتشينو ..

قلت أنا :- جراتسى !

تمتمت ضاحكة بخفة ظل :- تشرب جراتسى !

فضحكنـا معهـا واصرت عـلى أن اشرب شـيئا ولمـا رأيـت اصرارهـا تمتمـت

بـأدب جـم :- كابوتشـينو ..

ونـادت الامـيرة عـلى مـن تدعـى " نوننـا " قائلـة :- نوننـا .. نوننـا .. كابوتشـينو يـا نوننـا !

وظهـرت النوننـا فـإذا هـى المـرأة العجـوز فى البـار وتشـاغلت فى صنـع الكابوتشـينو عـلى حـين قالـت هـى داخلـة مبـاشرة فى الاستفسـار عـما نريـد :- تحـت امركـما .. .

وانـبرى إليهـا احمـد يحدثهـا عـن الإعـلان المنشـور فى جريـدة " لاسـتامبا " امـس وعـن هويتنـا كمصريـين وفى معـرض حديثـه أشـار إلي ففهمـت انـه يتحـدث إليهـا عـن اننـى المقصـود بطلـب الوظيفـة .. وإذ ذاك أخـذت المـراة تتفرسـنى بنظراتهـا كأنمـا تزننـى بتلـك النظـرات لتقـف عـلى مـدى مـا يـسرى فى أعطـافى مـن قـوة وفتـوة .. وجـاء وقـت فهمـت فيـه أنهـا تسـأل عـن جـواز السـفر فأسرعـت واسـتخرجته مـن جيبـى حيـث حرصت عـلى حملـة كاثبـات وتعريـف بالشـخصية واعطيتهـا إيـاه .. قـرأت المـرأة باللغـة الفرنسـية البيانـات المعـبرة عـن شـخصيتى .. توقفـت عنـد مسـمى وظيفتـى فى مـصر فصوبـت إلي نظـرة تنـم عـن الفضـول وعـدم التصديـق فـأسرع احمـد يوضـح لهـا الأمـر قائـلا بايطاليـة بسـيطة كنـت افهمهـا :- أتينـا إيطاليـا للسـياحة أساسـا لا للعمـل ! .. التأشـيرة تعكـس هـذا .. لكـن جـمال بلدكـم أغرانـا بعـدم المغـادرة بعـد انتهـاء التأشـيرة فكسرناهـا

! .. وطبعا بعد انفاق ما حملناه معنا من نقود تحتم علينا البحث عن عمل ! .. أى عمل ولو أقل من مستوى أعمالنا فى مصر .. يستوى الأمر لدينا طالما يحقق لنا ما نصبو من التمتع بالجمال الذى نراه ولا يرانا! قالها وهو يحدق فيها بجرأة أقلقتنى فقد تعتبرها المرأة مع طريقته فى الكلام اجتراء عليها .. لكنها كانت سيدة وامرأة ناضجة فلم يزد ذلك محياها احمرارا وفقط تبسمت بثقل وسرور وهزت رأسها علامة على الرضى والتفهم ثم سألت :- ولكن هو مصرى .. يعنى أجنبى .. والسلطات الإيطالية لا تسمح للأجانب بالعمل دون تصريح ..

وضمت قبضتا يديها معا وللأمام فى حركة يفهم منها أنها إن وافقت على تشغيلى كأجنبى وعلمت السلطات ستعاقب عندئذ اشتدت بأحمد الحرارة ودافع قائلا :

- لا اطمئنى تماما من تلك الناحية يا سيدتى .. لن يبلغ احد السلطات فقد جئنا للسياحة ومن مصلحتنا ألا تعلم السلطات أننا قد كسرنا الفيزة بتجاوزنا مدة الإقامة بها .. وهذا يعنى أننا أشد حرصا منكم على هذا الأمر .. هزت رأسها ثانية علامة على الفهم وتحدثت عن الأجر فقالت :

- الأجر ليس كبيرا ولا يناسب مقام وظيفته المكتوبة فى جواز السفر !

سأل احمد :- كم مثلا ؟

أجابت فى هدوء ودعة :- مائة وخمسون ميلا ليرة فى الشهر ..

صحت فى أعماقى " مائة وخمسون ميلا ليرة " ورغم اننى صحت فى اعماقى فقط إلا أن المراة فيما يبدو كانت خبيرة بصيحات الأعماق فأسرعت توضح بلهفة : - هذا غير الأكل والمأوى طبعا !

وتحول احمد إلي يسألنى رأيى فاخبرته بأننى اوافق طالما هناك طعام وشراب وثقافة ! وليقل لها ذلك بطريقة تعبر عن هذا المعنى فقد جئت ايطاليا بحثا عن الثقافة والمعرفة لا عن النقود .. ضحك وقال محدثا اياى بالعربية :- ها .. ها .. للثقافة والمعرفة ليس إلا يا فاكينو !

سمعت المرأة كلمة فاكينو فهتفت متسائلة ومستثارة :- فاكينو ؟!

عندئذ تدارك احمد الموقف وقال محدثا إياها برقة :- لا .. فقط .. صديقى يفضل العمل فاكينو .. لأن فيه رياضة وثقافة فمجتمع السوق يشمل جميع طوائف الشعب فوق أن فيه قوة وجلد !

وهزت المرأة رأسها مستنيرة بالفهم وقالت برقة وأناقة :- ولكن العمل فى السوق صعب جدا ..

أجابها منتهزا الفرصة ليدحنى : - هو هكذا لا يميل الا إلى الأعمال الصعبة ! .. وقد اكتسب فى السوق سمعة باهرة وتستطيعين أن تسألى مقاول الأنفار بالسوق عنه .. أتعرفين يا سنيورا المقاول تونينو ؟

هزت رأسها تلك المرة علامة على عدم المعرفة فاستتلى : - لو أنك كنت تعرفينة لسألته عنه حينئذ كنت تسمعين عنه كل خير !

افتر ثغر المرأة عن بسمة صغيرة تنم عن رزانتها ووقارها ورقيها ورقتها وأتت العجوز بالكابوتشينو ووضعت صينية الفناجيل أمامنا وتوارت .. وممدنا أيدينا إلى الفناجيل وطفقنا نرتشف منها ونحتسى على حين قالت المرأة وهى تنظر إلى بعيد من خلال الزجاج كما لو كانت تسترجع ماض عزيز : - فى الصيف الماضى عمل لدينا شاب أسمر من أريتريا لكنه سافر عائدا لوطنه لأنه طالب والدراسة بدأت .. كان شابا قويا منظما ونظيفا .. وجهت إلي أنظارها بشدة فى الكلمات الثلاث الأخيرة واستعانت بيديها على الوصف كى أفهم مباشرة .. أدركت المغزى الذى ترمى إليه .. أومأت لها برأسى قائلا: - هذا جميل !

كدت اضيف وسأكون عند حسن ظنك وظن الجميع لكننى لم اتمكن من التعبير عن ذلك بالايطالية وفهمت هى فيما يبدو ما لم أقله فقالت بدورها بصوت لين رقيق :- هذا جميل !

وانتهينا من احتساء الكابوتشينو وآن أوان السؤال الأخير عما إذا كنا قد اتفقنا .. سألها احمد عن ذلك فأجابت بحسم : - بعد غد الثلاثاء سأتصل بكم لاقول لكم متى يحضر للعمل ولهذا اترك لى الاسم والعنوان ورقم التليفون .. قالت ذلك موجهه كلامها لاحمد ثم تناولت ورقة من دفتر كان على المنضدة امامنا وسألته أن يمليها ما طلبت ففعل ثم وقف متاهبا للانصراف فوقفت بدورى .. صافحنا السيدة وحييناها ودلفنا من الباب الزجاجى ونحن فى توقع جزع أن تطاردنا الكلاب ثانية .. لكننا حين أصبحنا على الدرج رأيناها تقترب وتهز ذيلها وتنهنه بصوت أفهمنا أنها لن تؤذينا .. وأنها ما جاءت تلك المرة إلا لتحيتنا وقد رأتنا فى موضع الاهتمام والترحاب من آل الدار .. تباعدنا ونظرت خلفى فرأيت السنيورا واقفة خلف الباب الزجاجى تبتسم ابتسامتها الرزينة القديرة فاهتززت فى أعماقى لسبب مبهم لعله ما توحيه شخصيتها من قوة وتاثير .. وقد لاحظ احمد ذلك فسألنى متمتما وقد وضع يديه فى جيوبة اتقاء البرد :- ما بك ؟

أجبته وأنا اتململ من قوة ملاحظته لى بصوت يختلج : - لا لا أنا ارتعش من البرد مثلك !

وران الصمت بيننا بعد ذلك ونحن نهرول فى الطريق صوب القرية

.. بلغناها واخترقنا الشارع الذى يتوسطها منحدرا فى نهايته ومتقاطعا مع الشارع الرئيسى وهناك سألنا عن محطة البولمان المتجة لتورينو فعرفنا إنها تقع على بعد أمتار قليلة من حيث كنا نسأل بجوار مدرسة أطفال القرية .

***

وقفنا بالمحطة ننتظر وصول البولمان ربع ساعة تقريبا ثم جاء البولمان وركبناه فتحرك بمجرد صعودنا وقطع لنا التذكرجى الذى كان يرتدى حلة العمل الرسمية بلونها الكحلى تذكرتين ثمن كل واحدة منها خمسمائة ليرة أى نصف ميلا ليرة .. ومضى بنا البولمان .. ثم مضى .. حتى إذا بعدنا عن " كازالتا " هبطنا فى الطريق نقطع منطقة منخفضة يهوى فيها الطريق عن مستوى الأراضى الخلاء المترامية على جانبيه والتى قد تشغل بعضها مقبرة للسيارات العتيقة المتهالكة .. أم بيت من البيوت القديمة .. أو بستان من بساتين أشجار الفاكهة .. ثم ارتفع بنا الطريق مرة أخرى .. كنت انظر من خلف الزجاج إلى المناظر التى تتغير أمامى مع سرعة اندفاع البولمان فأراها كالأطياف المعتمة بلا روح أو نأمة .. كأنما نهاية العالم هنا فى تلك المنطقة غير المستوية من الأرض والمميزة بالمرتفعات والمتخفضات التى صنعتها فيما يبدو يد الإنسان لا عوامل التعرية الطبيعية .. إذ كانت فيما

يبدو منذ القدم وإلى عهد قريب (لست أدرى) منطقة محاجزر لنوع من المواد الطبيعية التى يستخدمها الإنسان فى اعلاء شأن حضارته ومدنيته .. أما الآن فهى خلاء .. خربة .. وانهالت فى خواطرى ذكريات تثير فى نفسى الحنين إلى الوطن وأنا أنظر منصتا لأنات الريح على زجاج نوافذ البولمان وأفكر فيما وقع لى وما انتظر وقوعه من أحداث .. وبلغ البولمان مدينة " ريفولى " ثم تخطاها وسار فى منطقة من الطريق أكثر اتساعا واستواء واستقامة إلى أن بلغ مشارف تورينو ولاحت حركة الحياة النشطة التى افتقدناها بضع ساعات ونحن خارجها .. حركة حياة حقيقية استوفت من النضج حقها فأدركت والبولمان يخوض بنا غمار تلك الحياة فجأة أننى سأتجشم تعبا كثيرا وصعوبات جمة فى التعود على تلك الحياة الأخرى التى تنتظرنى .. هناك فى بيت اللبن !

عرف جميع الرفاق بالبنسيون أن المقابلة مع سيدة المطعم قد تمت على خير وجه بمعاونة الرفيق احمد فاضل الذى حرصت على تأكيد فضلة الغامر علي وأنا الهج بعبارات المديح والشكر له مخافة أن يطلب هو الأخر ثمنا ! ولكن عندما عرفوا أن للاتفاق نتيجة أرجىء أمر اعلانها إلى مكالمة تليفونية ارتسمت فى أعينهم علامة استفهام تم تكبيرها عمدا تحت مجهر تحليل تناوبوا عليه النظر واجتهدوا فتباينت الرؤى وتوالت أقوال التكهن والتخمين لتقرع

سـمعى بـلا هـوادة :- يـا اخـوان التأجيـل لمجـرد ابـداء عـدم التلهـف عليـه وعـدم الحاجـة إليـه .. تعزيـز النفـس عـادة إيطاليـة متأصلـة كـما هـى عـادة مصريـة !

- يـا ولاد ! التأجيـل ربمـا يكـون مـرده رغبتهـم كأصحـاب عمـل السـؤال عنـه قبـل الإقـدام عـلى الموافقـة !

- ربما كان للسيدة زوجا تشاوره !

- أو شريكا تراجعه ..

- أو صديقا تأتنس برأيه السديد ..

أما كمال كامل فكان الوحيد الذى قال متخابثا وهو سعيد :

- ربما لم يعجبها شكله !

فضحـك الجميـع منـه لتماديـه فى غيـه واصراره عـلى معـاداتى ودهشـوا عندمـا رأونى أنـا الأخـر أضحـك ! وأكـثر مـن ذلـك أعلـن الـرضى الكامـل قائـلا :- قـد قـال الرفيـق نكتـة ! أتحـدى أن يدلنـى باحـث ألمعـى منكـم عـلى رجـل أكـثر غبطـة منـي ولـو بطريـق الصدفـة ! .. وسـكتت هنيهـة لأؤكـد هـدوئى وصلابتـى ثـم أردفـت مواصـلا الضحـك :- قـد قـال الرفيـق نكتـة ! .. وإن زعـم أنـه وجـد هـذا الرجـل أطالبـه بـأن يعرفنـى عليـه لأوثـق عـرى الصداقـة معـه !

obeikandl.com

ومـن حسـن الحـظ اننـى بضحـكى وضعـت الأمـور فى نصابهـا فالضحـك والفكاهـة أفضـل وأسرع سـبل فـك عقـد الخصـوم الألـداء ! .. وهـو كـما يقـال عـدوى تنتقـل بـين النـاس كلـما تفاقمـت مـرارة الهـم والابتئـاس ! .. ولذلـك أحيانـا مـا يضحـك المـرء منـا بـدون سـبب ! .. وعندمـا اخـترت أن اضحـك عـلى هـذا النحـو وأنـا امسـك جانبـى واحـرك رأسى فى هـذا الاتجـاه وذاك لابـد أن قسـمات وجهـى كانـت تتشـكل فى أشـكال غايـة فى الغرابـة إذ توقـف الجميـع عـن الضحـك فجـأة وراحـوا ينظـرون إلي ويأسـفون لمـا أصابنـى مـن لطـف والتيـاث ! .. لم يكـن ضحـكا خالصـا .. خالـط الضحـك رغبـة عارمـة فى البـكاء ولذلـك طـال بشـكل مفـزع ينـذر بخطـر فقـد النفـس السـوية ! .. تحولـوا إلي يطيبـون خاطـرى .. يربتـون عـلي ويـرددون مـلء الأشـداق كلـمات العطـف والشـفقة الرتيبـة المحفوظـة فى مثـل حالتـى .. أخفقـوا فى التكهـن هـذه المـرة بالسـبب فى تلبـكى الجـوانى ! .. لم يلـم أحـد بحقيقـة وحجـم مـا اعتمـل بداخـلى .. نـار ! .. أجـل إندلعـت بداخـلى نـيران مـن الحـزن تكفـى لإحـراق جميـع الأوغـاد فى العـالم الذيـن تسـببوا بجشـعهم فى غـرق عبـارات نقـل البؤسـاء الباحثـين عـن لقمـة العيـش أو اللاجئـين فـرارا مـن حـرب أهليـة فرضـت عـلى وطنهـم ! .. صـورة غايـة فى الغرابـة طافـت بمخيلتـى ولا أدرى كيـف وأنـا أضحـك مـن غريمـى ومـن نفسـى ! .. لم يتخلـف أحـد عـن مواسـاتى فى مصيبتـى وصدمتـى مـن تحـول مـن أديـن لـه بالعرفـان إلى عـدو ..

معقـدا وسـيلة رد الجميـل والتواصـل الإنسـانى البسـيط .. لا لا يمكننـى أن أصـدق وليـس لأحـد أن يدعـى أنهـا مجـرد الخمسـين ميـلا لـيرة ! .. إنهـا عـداوة زرقـاء النـاب نابعـة مـن مسـتنقع يغـص بالزواحـف ! .. إنـه لى دومـا بالمرصـاد .. يهـدد إعجـابى بنفسـى وإعجـاب أصحـاب الأعـمال بى زاعـما أن شـكلى لم يعجبهـم ! .. لتطـب نفسـا يـا مـن كنـت منقـذى إنى أغـادر إلى حيـث لا أراك ولا أرى أى مـن أبنـاء الوطـن الـذى ننتمـى إليـه سـويا .. أغـادر المدينـة العريقـة التـى أنجبـت الملـك العظيـم الـذى وحـد الأمـة الإيطاليـة لنتفـرق نحـن أبنـاء أم الدنيـا عـلى أرضـه ! .. ألا تصحـو عـلى شـمس تطلـع فى هـذا الشـتاء الطويـل وتثـوب لرشـدك ! .. لم يتخلـف أحـد غـيرك وهـا انـت تنـثر عـلى نظـرات وبسـمات الحبـور مـما ألم بى وتنفجـر ثانيـة ضاحـكا وتغـرق فى ذلـك أيمـا إغـراق ! .. هـا .. هـا .. هـا ..

صـاح مجـدى كامـل بأخيـه :- حـاذر حتـى لا ينفـرط عقلـك ويأتيـك بعـد الـشر .. اللهـم اجعلـه خـير ! .. لقـد قلـت أن شـكله ربمـا لم يعجبهـا ! .. أهـى القشـة قصمـت ظهـر البعـير !؟

وفى تلـك اللحظـة طـرق طـارق البـاب إذ كنـا جلوسـا فى غرفـة الأخويـن فاضـل وانفتـح البـاب فانزلقـت عواقـب عاصفـة الضحـك الكامنـة فى الغيـب كجـدول مـن المـاء عـلى وجـه الطـارق .. كانـت سـيدة البنسـيون التـى بهرهـا فيـما يبـدو هـذا الاغـراق فى الضحـك الـذى لم يتمكـن أحـد

مـن الامسـاك بـه قبـل أن ينزلـق عـلى محياهـا الجميـل فتـورد واحمـر بشـدة وافـتر ثغرهـا عـن ابتسـامة حـيرى بـين محاولـة عجـم سر هـذه النوبـة غـير الطبيعيـة التـى اشـترك فيهـا الجميـع فى الضحـك منـذ قليـل وبـين المحاولـة الناجحـة التـى قاومـت بهـا عـدوى الاشـتراك معنـا فى الضحـك عـن بعـد ! .. تلـك التـى اشـفقت عـلى نفسـها فيـما يبـدو أن تنتقـل إليهـا دون سـبب والضحـك مـن غـير سـبب عنـد المصريـين قلـة أدب وربمـا كان عنـد الإيطاليـين أيضـا ولذلـك صاحـب السـيدة فيـما يشـبة الغضـب ولكـن بصـوت رقيـق :- احمـد فاضـل .. احمـد فاضـل .. أنـت جـاءك ضيـف يقـول انـه مـن الجيـزة بلـدك !

وكان فى خـبر وصـول مـصرى أخـر ومـن الجيـزة أيضـا بلـد الأخويـن فاضـل مـع مـا تعانيـه الجماعـة مـن تخمـة وتفـكك سـبب آخـر كاف لاسـتمرار سـكوتنا جميعـا وفى امسـاك أنفاسـنا وانظارنـا تتسـابق نحـو البـاب لنتطلع فى توفـز وفضـول إلى الوافـد الجديـد الـذى ظهـر بطلعتـه البهيـة بمجـرد تفجـير السـيدة مالاندرينـو قنبلتهـا ..

فوجـىء المسـكين بنظـرات أعـين تحجـرت وبسـحن انقلبـت مـن سرعـة الانتقـال مـن حـال إلى حـال فوقـع فى روعـه أنـه غـير مرحـب بـه فتقهقـر إلى الخلـف خطـوة وهـو يغمغـم محدثـا احمـد فاضـل بقولـه :- اسـف لأننـى ازعجتـك وازعجـت فيـما يبـدو الجميـع ولكننـى ..

هـب احمـد ومحمـد فاضـل معـا واقفـين وصاحـا فى صـوت واحـد قاطـع :- عـلى العكـس اهـلا بـك .. قـد كنـا نفكـر فيـك وننتظـر وصولـك يـا اخ فايـز !

وتهلـل وجـه الأخ فايـز لمـا سـمعه وتشـجع داخـلا والقـى نفسـه عـلى صـدرى الأخويـن ينهـل منهـما القبـلات والعنـاق واثنـاء ذلـك يسـال :

- هـل مـن مـكان لى .. هـل مـن سريـر ؟! .. قـد كنـت عـلى ثقـة مـن رجولتكـما !

وتحـول الينـا يصافحنـا ويـكاد لشـدة رغبتـه فى نيـل الـرضى الكامـل وصداقـة كل فـرد فينـا مـن أول نظـرة أن يلقـى نفسـه عـلى صـدر كل مـن أتى دوره فى المصافحـة والتعـارف معانقـا .. غـير أن أحـدا لم يشـجعه! .. التـزم الجميـع جـادة التحفـظ فيـما عـداى .. كنـت أكـثر الموجوديـن إحساسـا بمشـكلته فصافحتـه وعانقتـه وأكـثر مـن ذلـك لثمـت وجنتيـه الشـاحبتين وأنـا أشـد عـلى يـده بحـرارة لأدفئهـما فيـسرى الـدفء فى عروقـه ويتـورد منـه ماشـحب قائـلا :

- تجلـد يـا اخ كلنـا مررنـا بتجربتـك .. لا تصـدق أحـدا يقـول لـك انـه جـاء فوجـد مسـالك الغربـة سـهلة ممهـدة مفروشـة بالرمـل والورد !

- شكرا لك .. كفر شكر لك يا اخ !

مـن فتـور المقابلـة التـى لقاهـا ألفـانى مختلفا بشـكل جعـل الأمـور تختلط عليـه فأخطـأ وقـال كفـر بـدلا مـن ألـف ! فسـنحت فرصـة لم يتوقعهـا أحـد للضحـك مـن أوسـع بـاب وعلـق التيـت قائـلا :

- كفر شكر لا تكفى نعطيه بنها !

وجاوبه كمال الذى لم يكن ليفلت الفرصة قائلا :

- وبعدها طوخ .. يا آل طوخ .. طوخ لكم وأنتم لطوخ !

ثـم أنـه تلعثـم إذ نـسى فيـما يبـدو الاسـم إلى قدمنـى بـه احمـد فاضـل إليـه فانتهزهـا هـذا الكـمال فرصـة أخـرى طالمـا اتسـع البـاب الضيـق الـذى دخـل منـه الضيـف للمـزاح والسـخرية أكـثر .. صـاح :

- فاكينـو ! .. أخ فاكينـو ! .. لـك أن تناديـه بهـذا الاسـم فهـو يـروق لـه لدرجـة أنـه نـسى اسـمه الحقيقـى !

- فاكينو ؟!

تسـاءل الوافـد الجديـد محـاذرا أن يكـون فى باطـن هـذا النـداء مقلبـا سـاخنا مـن المقالـب الكلاميـة التـى ألـف اولاد البلـد ايقاع بعضهـم البعض فيهـا التماسـا للهـزر والضحـك .. لذلـك جـاءت نـبرة صوتـه متخافضـة وانيـة وعـلى نقيـض مـا يأملـة مـن الرغبـة فى كسـب صداقـة الجميـع بسرعـة فأسرعـت موضحـا لـه لاعـادة طائـر السـكينة إليـه والهامـه الثقـة

قائـلا فى بعطـف وتـودد :

- فاكينـو بالإيطاليـة يعنـى شـيال لا تتعجـل ربمـا تحظـى غـدا بمكانتـى فى السـوق وينعتـك هـذا الكـمال الفاضـل بهـذا الإسـم !

تمتـم الشـاب الغافـل فى بـراءة واستبشـار وهـو يقتـات نظـرة تـودد صافية لـكل مـن أحمـد ومحمـد فاضـل :

- فاضل .. أهو من عيلة فاضل أجاويد بلدنا !

هتـف كـمال مسرعـا ليغـير بـذكاء تيـار الضحـك الجـارف هـذا المسـاء بعيـدا عنـه وناقـلا الحديـث إلى افـق آخـر قائـلا بمكـر :

- لكننـا لم نجـد إجابـة مقنعـة حـين تسـاءلنا لمـاذا أرجـات صاحبـة المطعـم أمـر الموافقـة عليـك إلى مـا بعـد الغـد وقلـت ربمـا أن شـكلك لم يعجبهـا فضحكنـا جميعـا والآن هـل مـن سـبب أخـر !

صاح عادل مغضبا :

- لسـنا فى مـزاد ولسـت الـدلال يـا سى كـمال حتـى تقـف مناديـا هـل مـن سـبب آخـر وأنـت يـا سى احمـد ..

وتنبـه احمـد لمـا يقـول فالتفـت إليـه منتظـرا مـا يتـم عليـه حديثـه .. اسـتطرد بكثـير مـن الجديـة :

- أنـا لـن اغفـر لـك ابـدا هـذا التـصرف الأحمـق الـذى تكلـف اثنـين وعـشرون ميـلا لـيرة !

سـال احمـد عـلى اسـتحياء إذا كان يعتقـد إلى تلـك اللحظـة انـه اتى عمـلا خارقـا بتفاهمـة مـع سـيدة المطعـم عنـى ففوجـىء بلهجـة عـادل تقلـل مـن قيمـة مـا قدمـة :

- تقصد التاكسى !

صاح عادل حاسما :

- إيـاه اقصـد منـذ متـى ونحـن نسـتقل التاكسـيات هنـا .. اثنـان وعـشرون ميـلا لـيرة !

أسرعت موضحا بالقول :

- أنـا الـذى قـررت ذلـك يـا عـادل خوفـا مـن أن نتأخـر عـلى الميعـاد .. ثـم أنـا الـذى دفعـت النقـود فـلا تغضـب !

صاح عادل بنفس اللهجة الحاسمة :

- ولو !

فسـاءلت نفـسى تـوا " مـاذا يقصـد ؟ .. فـرض زعامتـه هـو الآخـر عـلي ..

obeikandi.com

ثـم .. ثـم لمـاذا لم تعلـن المـرأة صاحبـة المطعـم موافقتهـا عـلي فعـلا ؟! .. أرجأتهـا لمـاذا .. لمـاذا ؟ .. وظـل هـذا التسـاؤل الأخـير يطـن ويـرن فى رأسى فى تلـك الليلـة وطـوال اليـوم التـالى وليلتـه وبـرح بى حتـى كـدت مـن شـجو ووجـد أغنـى " ظلمـوه " .. وهـى كلمـة منحولـة مـن غنـوة شـهيرة يتكـرر اسـتعمالها فى المواقـف الصعبـة حتـى تـكاد أن تصـير مثـلا ! .. وأضيـف فى حالتـى حتـى كـدت أغنـى " هـذه ليلتـى " لكنـى لـن استرسـل قائـلا كـما الغنـوة الأخـرى وحلـم حيـاتى ! .. لأننـى فقـدت الحلـم مـع هـذا الصنـف مـن البـشر الـذى شـاء حظـى العاثـر أن ألاقيـه مـن بنـى جلـدتى فى غربتـى !

ثـم فى صبـاح اليـوم المنشـود خرجـت للسـوق مـع بقيـة الصحبـة للعمـل وظـل السـؤال معلقـا فى مكانـه لا يريـم أن يتنـازل عـن عـرش رأسى .. الأمـر الـذى صدعنـى واوهـن عزيمتـى فـما صدقـت أن انتهيـت مـن نوبـة العمـل الأولى التـى انتهـت كالعـادة فى السـابعة صباحـا ونزلـت مـن مـكانى طالبـا مـن " تونينـو " أجـرى عـن تلـك النوبـة وتعللـت بالمـرض مشـيرا إلى رأسى فأفلتنـى مـن حظيرتـه هـذا اليـوم ونقـدنى أجـرى وبينـما أنـا أجـرى لأخـرج مـن بوابـة السـوق عـلى وجـه السرعـة فكـرت فى اننـى لـن اتحمـل قلـق الانتظـار لتلـك المكالمـة مـن " ريسـتوانته سـتة كولونـا " واننـى إذ أعـود مبكـرا هكـذا سـأحمل أعصـابى مـن عـذاب القلـق فـوق مـا تطيـق .. فانقلبـت عائـدا إلى سـاحة التنزيـل بالسـوق واقتربـت مـن

تونينـو معتـذرا وأوحيـت إليـه بالإشـارة إلى رأسى أن الصـداع قـد ذهـب بمجـرد تنـاولى لفنجـال مـن القهـوة بالبـار وفهـم مـا أريـد فادخلنـى لجنته ثانيـة واغرقـت نفـسى بأنهـار عرقهـا إلى منتصـف النهـار ..

ثـم لمـا اسـتوفى العمـل غرضـه وغايتـه ولم يعـد ثمـة مزيـد منـه غـادرت السـوق بصحبـة الصديـق منـير الـذى سـألنى مـا بى هـذا الصبـاح فكذبـت عليـه نفـس الكذبـة إلى سـقتها للمقـاول وأنـا أتهـرب مـن النظـر فى عينيـه ومـن اخبـاره بأمـر فراقنـا المنتظـر الـذى لا يـدرى أحـد متـى موعـده .. مخافـة أن يثنـى عزمـى عـن امسـاك العمـل الجديـد للاسـتمرار بالسـوق متذرعـا مثـلا بمنزلتـى عنـد تونينـو وبمكاسـبى الماديـة التـى تربـو مدخراتها عـلى ثلاثـة إضعـاف مـا سـأدخره مـن اجـل العمـل بالمطعـم .. إذ لـن يفهـم (والـكل ليـس عـلى شـاكلتى) التعلـل باننـى لم ارتحـل مغتربـا مـن أجـل المـال فحسـب .. وأن المعرفـة والثقافـة وتغيـير مـا التبـس بالنفـس مـن خـبرات غـير نافعـة إلى آخـر قائمـة الـكلام الـذى لا يسـتفيد منـه المـرء بأكـثر مـن الـكلام !

وعندمـا بلغـت البنسـيون ودلفـت داخـلا غرفتـى لابحـث عـن أدوات الاغتسـال وازالـة مـا نمـا مـن شـعر الذقـن الـذى لم يتسـن

لى حلاقتـه فى بكـرة الصبـاح لضيـق الوقـت الـذى اتيـح لى بعـد أن اسـتيقظت مـن النـوم فوجئـت بسـيدة البنسـيون تدخـل الحجـرة ورائى

وتحدثنى بلغتها الإيطالية التى تسترسل رقيقة ناعمة عادية بغير مراعاة لمستوى فهمى ومع ذلك استطعت بمشقة أن افهم إنها تحادثنى عن أمر يتعلق بمحادثة تليفونية اجراها صاحب ريستورانته سته كولونا .. ومن شدة فرحتى نسيت نفسى لدرجة أننى أمسكتها من يدها وخرجت بها اجرى فى الطرقة باحثا عن احمد أو عادل أو حتى كمال ليفهمنى ما تعنيه كلماتها من أمر بالنسبة لي .. لم أعر احتجاجها على ركضى بها على هذا النحو التفاتا لعلمى أنه انفعال دون غضب فقد كانت يقينا تقدر حاجتى الشديدة لفهم ما تقوله .. ولم افلتها من يدى إلا بعد أن اكتشفت لسوء الحظ أن أحدا من مجيدى اللغة غير موجود فتركتنى وهى تدغدغ معصم يدها الذى كنت اقبض عليه بقوة وقسوة وجوها النفسى البهيج يصفح عنى ما صدر منى من سلوك شائن خطر ! ..

قد كان ممكنا أن يتطور هذا السلوك لأمر غير محمود مع تلك المراة ذات المحيا المنطلق البشوش مع اكتشاف خلو البنسيون إلا منها ومنى والشيطان الثالث وكنا على مقربة من الباب فسمعنا مفتاحا يدور فى قفله ثم دفع الباب ودخل احمد ومحمد فاضل وتابعهما الجديد فايز فاستنجدت باحمد مبتدرا اياه بمجرد ظهوره :

- الحق يا احمد سلها عن المكالمة .. صاحبة المطعم اتصلت بالتليفون

وردت عليها وهى الآن تعرف النتيجة !

تمتم احمد مستثارا :

- صحيح !

ثم تحول إلى السيدة يسالها بالايطالية عن مضمون المكالمة فاخذت المرأة تقص عليه ما وقع منى منذ حين وتضحك دون أن تدخل فى موضوع المكالمة على ما فهمت من حركاتها وسكناتها ونظراتها نحوى واشاراتها إلي ثم فجأة تناول لسانها حديثا فهمت منه انه يتوجب حالا الاتصال بالمطعم .. وزاد يقينى رؤيتى الابتسامة تعلو شفتى احمد وسألته قبل أن تنهى المرأة كلامها صائحا بلهفة :

- المطعم وافق .. اليس كذلك ؟ .. المطعم وافق !

أجابنى بهزة من رأسه ليسكتنى ريثما تنتهى السيدة من حديثها من قبيل الأدب فى الاصغاء أو لأنه كان حديثا هاما وشائقا ويريد إلا تفوته كلمة منه .. لست أدرى .. المهم أن المراة انهت حديثها بتوجيه نظرة رقيقة عاطفة إلي وهى تتمتم بكلمات فهمت إنها توجهها إلي فهززت راسى قائلا لها " أى نعم " وكأننى فهمت ما تعنيه واوافق عليه ! .. مما ضاعف من بهجتها وضحكها إذ كان الأمر يتطلب على ما يبدو الإجابة بلا فيما يتعلق بما كاد يقع بيننا عن غير قصد

! .. وخطت داخلة جناح اقامتها ومازالت تضحك فى مرح وعجب وسألت احمد :

- ماذا قالت بالضبط ؟

أجاب :عليك أن تتواجد غدا فى الثامنة صباحا بالمطعم لاستلام العمل!

ومد يده مصافحا بابتسامة واضاف :

- مبروك ..

وفى إثره قال محمد فاضل وهو يصافحنى بنفس الطريقة مفثر الثغر:

- مبروك .. لم تعد فاكينو .. ستحظى هناك بما افتقدته هنا !

فقلت له وأنا اشد على يده بحرارة :- مبروك أنت أيضا .. قد علمت انك قد تسلمت عملك بالجراج منذ أمس .. وحيث نجد الحب نجد الأقارب والبلديات !

- مبروك فوزك بالحب والبلديات الطلاينة !..

قالها فايز ضاحكا وهو يصافحنى بفرح حقيقى فقلت له :

- بارك الله فيك والعقبى لك يا فايز !

- فيما سمعت عن شخصيتك المحترمة .. أنا لا استغرب لهفتك وفرحتك بالعمل فى المطعم على الرغم من ضآلة أجره بالنسبة لما تكسبه بالسوق ولأنك صرت احد رجال تونينو !

obeikandl.com

- المـال ليـس كل شيء يـا فايـز .. وشـخصية تونينـو المحبوبـة هـو مـا ربطنـى بالسـوق ومـا حفـزنى للتفـوق ..

- معك حق المال ليس كل شيء .. هذا رأيك !

انتـشر الخـير بـين الرفـاق بالبنسـيون مـع اوبـة الجميـع فـرادى أو مثنـى مـن أعمالهـم بالسـوق أو المطاعـم وتـكأكأ الجميـع عـلى بالتهـانى فامتـلات فرحـا وحبـورا بنفـس وبهـم .. حتـى كـمال الـذى لم يجـد فائـدة فيـما يبدو مـن امعانـه فى العـداء ونحـن أولا وقبـل كل شيء أخـوة تربطنـا أواشـج لا حيلـة لنـا فيهـا سـواء فى الوطـن أو الغربـة وأنـا راحـل عنهـم ربمـا إلى غـير رجعـة جـاء يهنئنـى ويشـد عـلى يـدى مصافحـا وهـو يقـول :- نريـدك أن ترفـع رأسـنا !

قلـت لنفـسى " سـارفعها حيـث سـأجد الأمـن والحـب ! " وقلـت لـه مومئـا بـرأسى :

- طبعا كما رفعتها بالسوق !

وقال مجدى :

- سنراك طبعا فى يوم الأجازة الاسبوعى بالمطعم ..

قلت :

- لاشك وأين اذهب فى يوم الأجازة !وسأل نبيل :

- إنى لا افهم لماذا أنت فرحان إلى هذا الحد .. الأنك لن ترى وجوهنا بعد اليوم ؟!

لكزة مجدى فى جنبه بذراعه قائلا :

- عندك وقف ماذا تقول ؟ .. أتكشف خبيئة نفسك بلا مواربة ألا تعرف كيف تتكلم مثل توأمك ؟!

قلت فى نبرة واثقة وبهدوء وكأنما قد بدأت أدرك مبلغ ما يتظاهر به البعض من مشاركتى السرور والحبور ومبلغ ما فى هذا الشعور من زيف :

- حقا سأرفع رؤوسكم هناك كما رفعتها بالسوق .. وسأراكم فى يوم الأجازة بالمطعم .. وأنا فرحان إلى هذا الحد لاننى لن أرى بعض الوجوه بعد الآن وهذه كلمة الصدق الوحيدة التى قيلت اليوم !

قال عادل :- وسيرافقك احمد فاضل فى بكرة الغد !

رددت فى آلية ورتابة من مرارة نفسى : - وسيرافقنى احمد فاضل فى بكرة الغد ولكن .. سكتت لحظة ثم سألت مستطردا فى غياب ذهن :

- لماذا ؟

تساءل عادل فى شبه حنق :

- ماذا أو لا تريد أن يرافقك احد ؟!

أجبت وأنا اسهم فى اللامرئى بنظراتى التى راحت بعيدا إلى شرود :

- على العكس أنى اتساءل لماذا أرجأت صاحبة المطعم أمر الموافقة إلى اليوم وقد كنا بين يديها أول أمس لم يحر أحد جوابا وقد دعانى هذا للصمت وطى تلك الصفحة !

obeikandl.com